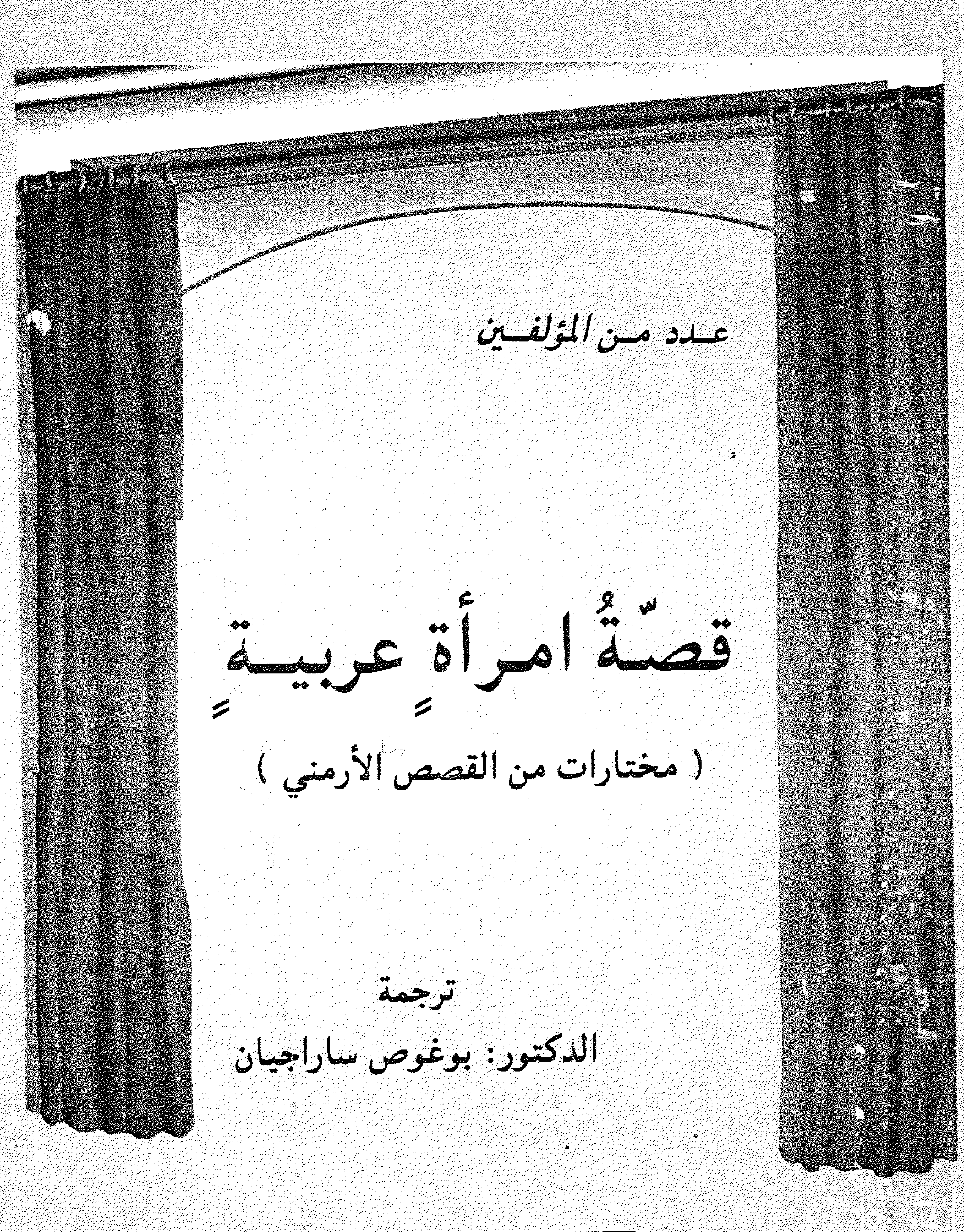


عدد من المؤلفين

قصّةُ امرأةٍ عربيةٍ

(مختارات من القصص الأرمني)

ترجمة

الدكتور: بوغوص ساراجيان

الإشراف الفني زهير الحمو

قصة امرأة عربية

القصة القصيرة العالمية

« ١٦ »

إهـــــداء ٢٠٠٧
مديرية المطبوعات والنشر – وزارة الثقافة
الجمهورية العربية السورية

عـدد مـن المؤلفـين

قصّةُ امرأةٍ عربيـةٍ

(مختارات من القصص الأرمني)

ترجمة

الدكتور: بوغوص ساراجيان

منشورات وزارة الثقافة

دمشق - ١٩٩٣



قصة امرأة عربية : مختارات من القصص الأرمني / عدد من المؤلفين ؛
ترجمة بوغوص ساراجيان . ـ دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٣ . ـ ٢٥٦
ص ؛ ٢٤ سم . ـ
(القصة القصيرة العالمية ؛ ١٦) .

١ ـ ٨٩١ س ا ر ق ٢ ـ العنوان ٣ ـ ساراجيان
٤ ـ السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع ـ ١٩٩٢/١٠/١٠٧٣

الكسندر شيروانزادة

- روائي ومسرحي أرمني كبير من مواليد ١٨٥٨ .

- انقطع عن الدراسة بسبب الفقر وزاول مختلف المهن.

- عمل محاسباً في مكاتب المؤسسات النفطية في مدينة باكو. تسلم في ١٨٨١ - ١٨٨٣ ادارة مكتبة الجمعية الخيرية الأرمنية في باكو فاطلع على الأدب العالمي والأرمني والروسي . طرد من العمل لأفكاره التقدمية .

- تنقلَ طويلاً باحثاً عن لقمة العيش . اشتغل سكرتيراً لجريدة «الصدى» في تفليس (١٨٨٥ - ١٨٩٠) .

- عاش في أوروبا سنوات عديدة وعاد إلى الوطن عام ١٩٢٦.

- أول عمل أدبي له هو قصة «حريق في مصنع السفن» عام ١٨٨٣ ، تلتها «مذكرات عامل» عام ١٨٨٤.

- حصل على الشهرة بقمة أعماله مسرحية (الناموس) (١٨٨٥)

- من أهم أعماله المترجمة إلى العديد من لغات شعوب الاتحاد السوفييتي واللغات الأجنبية :

- «النار» مجموعة قصص ، باكو ١٨٩٦ .
- «الفنان» (قصة) ، تفليس ١٩٠٣ .
- «آمال خائبة» ، تفليس ١٨٩٠ .
- «الفوضى» (مسرحية) ، باكو ١٩٩٨ .
- «فداء للشرف» (مسرحية) ، تفليس ١٩٠٥ (ترجمها إلى العربية بوغوص سراجيان ونشرتها وزارة الثقافة والارشاد القومي في سورية ، دمشق ١٩٨٣) .
- توفي عام ١٩٣٥ .

زائر المقهى

الكسندر شيروانزادة

كان يتردد يومياً على المقهى الذي أزوره أنا أيضاً .

يدخل متأبطاً مظلته الثقيلة وبسرعة بادية ليخلق انطباعاً بأنه إنسان مشغول جداً ، منهك القوى لكثرة أعماله، فيجلس إلى إحدى الطاولات المستديرة . ثم يمسح جبهته المتجعدة بمنديل كبير ، ويلتفت يمنة ويسرة ، بفخر وخيلاء، ويوزع هنا وهناك نظراته القلقة .

كان لديه الكثيرمن المعارف . فما ان يراهم حتى يبدي حركه عصبيه ثم يهب واقفا في مكانه ويسير نحوهم. فيجلس قربهم دون استئذان ، وأحيانا من غير تحيه . ولكنه عندما يقرأهم السلام ، لم يكن يرد عليه أي من الحاضرين أو يحرك كرسيه ، لافساح مكان يجلس فيه حول الطاولة . ومع ذلك كان يجد ، وبعناد وحزم ، مكانا شاغراً له ، ولو خارج الحلقة .

يبدو ان لهذا الرجل مكانة في أعين عارفيه شبيهة تماما بالكرسي الزائد . ولم يكن الرجل يقع في الحيرة والإرتباك من جراء المعاملة اللامبالية ، بل كان يبدي ظاهريا نوعا من اللااحترام ازاء هؤلاء الناس .

كان نُدل المقهي أشد لا مبالاة نحوه . فعندما يدخل المقهى يتبادلون النظرات الساخرة، لا بل ويطلقون أحيانا ضحكات تنم عن الهزء والتهكم المعروفة عن هؤلاء الخدم العاملين في مختلف الأماكن العامة ازاء الزبون الذي لايدفع لهم بسخاء وكرم. فهم يتأخرون كثيراً عن الاقتراب منه، ويبطئون في تلبية طلبه، ويسيرون سير السلحفاة وكأنهم يؤدون واجباً غير محبب.

أثار هذا الرجل فضولي. لقد اشتعل الشيب في رأسه قبل الآوان . كان وجهه الأحمر - الأزرق ، وأنفه المتورم البثير ، وعيناه الحمراوتان المبللتان بالدمع أبداً ، كل ذلك يترك انطباعاً بأنه من المدمنين على السكر. ولكني، والحق يقال، لم أره سكرانا قط. بيد ان سترته البالية بصدرها وأكمامها اللامعة كالفولاذ من كثرة الوسخ ، تفضح أسرار جيوبه الفارغة. ولكنه كان يحاول ستر فاقته وعوزه بنوع من الكبرياء المصطنع . وهذا هو سلاح الفقراء الفخورين الغياري على أنفسهم . وأيقنت ان هذا الرجل استمتع في الماضي بملذات وأطايب هذه الدنيا ، وانه غير قادر الآن على التراجع عن اجترار ذكرياته .

كان يتكلم بصوت عال جهوري ذي نبرة آمرة . ويذكر بين حين وآخر أسماء بعض الآمراء المحليين والأغنياء بلهجة تلم عن بعض الود والاحترام ، أو الازدراء والاحتقار تعبيراً عن صداقته نحوهم أو معرفته بهم .

كان أحيانا يضرب جبينه بكفه ، وكأنه يتذكر شيئاً هاماً جداً، فيصرخ قائلاً :

- آه ، كدت أنسى...

ثم يهب واقفا ويقترب من الهاتف دون ان يترك أبداً مظلته الثقيلة ، ويتحدث بنبرة آمرة .

- السنترال ؟ أعطني الرقم ٩ - ١١ . شكراً. من يكلمني؟ أوه، هذا أنت أيها الأمير. تحياتي الخالصة لسمو الأمير. أود الحديث عن قطعة الأرض. إذا خفضتم السعر قليلاً، فربما أتدبر

الأمر. ماذا ؟ أزوركم اليوم ؟ آسف يا سمو الأمير، ليس بمقدوري زيارتكم لكثرة أعمالي وضيق وقتي. سآتيكم في الغد. هل تعافى نجلكم الصغير ؟ الحمد لله. انقلوا أطيب تحياتي واحتراماتي لسمو الأميرة. لا ، لا، فأنا مشغول اليوم جداً، ولا يمكنني تلبية دعوتكم على حفلة الشاي ، أرجو ان تقبل الأميرة اعتذاري . غداً اذاً في الحادية عشرة. إلى اللقاء .

وهكذا دوما، يتحادث مع الأمراء أحياناً، ومع أثرياء القوم آنا، وكبار الموظفين آونة أخرى، مع خمسة أو ستة أشخاص خلال ساعة واحدة. وما ان يقترب من الهاتف حتى تتبادل الخادمات الإبتسامات والنظرات . بينما يشعر هو بارتياح كبير بعد المحادثة ، فيتوجه نحو ندمائه بخفر وخيلاء فيجلس لحظات معدودات ثم يعود إلى الهاتف مجدداً. كان أحياناً يؤنب عاملات الهاتف كونهم لا يردون عليه بالسرعة المعهودة .

كانت مشيته عامة، حركاته وسكناته ولهجته في الحديث تدل على إنه رجل عملي جداً، متميز بعصبيته وقلة صبره. هكذا خيل لي حينئذ. وذات يوم سألت الخادمة.

– أخبريني من فضلك ، من هو ذاك الرجل النشيط؟

– لا أدري .. الله أعلم (أجابت الخادمة) اسأل ناديا فهي تعرف الجميع . ناديا هي الأقدم بين الندل وتعرف حقاً جميع الزبائن. ها هي تستغرب قائلة :

– يا للعجب ؟ ألا تعرف بيوتر بيوتر وفيتش بيبيانتس؟ انه من المحسوبين علينا . لقد ابتلانا به رب العالمين .

– بلاكم به ؟ ؟

– أجل ، إنه مصيبتنا ، بلوى حقيقية .

– ولكن من هو ؟ ماذا يعمل ؟ ؟

– إنه وسيط، أو كما يقول هو وكيل. يدعي بأنه يشتري ويبع بيوتاً للآخرين، ويؤجر شققاً، ومن يدري، فهناك الآلاف

من الأعمال والأنشطة التي يمارسها. ومن الغريب ان صاحب المقهى، ذلك الرجل الفظ، لم يطرده حتى الآن. يأتي كل يوم فيشرب القهوة ويلتهم الفطائر ثم يغادر المقهى.. وهكذا دواليك...

وقبل ان تنهي كلامها ابتعدت بخطى سريعة، بينما كان بيوتر بيوتروفيتش، الجالس إلى احدى الطاولات، قد ازدرد طعامه واحتس قهوته سريعاً، مبتعداً بخطى أشد سرعة. فلحقت به ناديا لتقول له:

– قف يا بيوتر بيوتروفيتش، ادفع الحساب ثم اذهب...

– حسن، حسن، فيما بعد، ليس لدي وقت الآن (أجاب بيوتر بيوتروفيتش من غير أن يلتفت الى الوراء).

وركض نحو الشارع مسرعاً حتى أن مظلته ارتطمت باطار الباب فتحطم أحد قضبانها . فصرخت ناديا غاضبة :

– لعنة الله عليك من زبون، لقد فرّ هارباً كالقط السارق. كيف لا يخجل من سترته التي يلبسها وقبّعته التي يعتمرها؟

وقهقهت جميع الخادمات. ومن حسن الحظ أنه لم يكن في المقهى أحد من الزوار غيري.

أثار هذا المشهد اهتمامي. اقتربت ناديا مني قائلة :

– هل رأيت ما فعله هذا اللئيم؟ لقد فعل ذلك مرات عديدة: يحضر يومياً ويجلس مع السادة المحترمين، يقدم طلباته ثم يلقم الطعام ويعبّ الشراب، ويتوارى عن الأنظار. وهكذا، يدفع الآخرون حسابه. وعندما لا يجد أحداً من معارفه، يوصي أيضاً على الطعام والشراب، وقد اضطررت مرتين للدفع بدلاً منه. لا ، لن أقبل طلباته بعد اليوم، يا له من رجل سافل دنيء، تباً له. . .

– كيف تجرؤين على نعت مثل هذا السيد المحترم بالسافل؟ (قلت ذلك محاولاً استدراجها للحديث عنه) .

- المحترم ؟ (كررت ناديا بسخرية) أتسمعان يا ماشا وجينيا، لقد سمّى بيوتر بيوتروفيتش بالسيد المحترم؟ ! هل يقبل الرجل المحترم، يا سيدي، أن أدفع أنا الخادمة المسكينة ثمن القهوة بدلاً منه؟

- حقاً ان بيوتر بيوتروفيتش رجل وقور (أصررت أنا) ألا ترون كيف يتحدث يومياً عدة مرات بالهاتف مع امراء ومليونيرية المدينة، ولقد حادث البارحة المحافظ .

قهقهت الخادمة عاليا .

- مع المحافظ، مع المحافظ (كررت الكلام وضربت ركبتيها بيديها) ليس في هذه المدينة يا سيدي أمراء ووجهاء ومحافظ يتنازلون للتكلم مع بيوتر بيوتر وفيتش .

- ولكنه يتحدث معهم وأنا أراه بأم عيني يومياً .

- دعه يكلم نفسه ، فما من مانع له ، وهو لا يدفع أجراً مقابل ذلك .

- كيف ذلك ؟ هل يحادث نفسه ؟

- هذا هو الواقع . انه يتحدث مع نفسه .

- لا أفهم .

- كل شيء واضح ، انها مجرد دعاية ، وليس إلا .

- دعاية ؟

- أجل يا سيدي، لقد ابتدع بيوتر بيوتر وفيتش هذه البدعة كي يخدع الناس بأنه يعامل كبار القوم. أتدرون انه يدعي بأنه وكيل كبير ويظهر نفسه بأنه مشغول دائماً، ولكننا نعرف جميعاً، إنه عاطل عن العمل ولا يثق به أحد فيوكل له عملاً ما. فلو كان له عمل يؤديه لامتلك نقوداً ولدفع ثمن قهوته بنفسه، أليس كذلك ؟

-وأدركت حقيقة بيوتر بيوتر وفيتش المسكين. ذلك الرجل البائس الذي جاهد بخدعته البريئة كسب ثقة زوار المقهى.

- كلنا يدرك الأعيب بيوتر بيوتر وفيتش (أضافت ناديا) وقد اعتدنا عليها والفناها حتى صرنا نغض الطرف عنها. دعه يتحدث بالهاتف كما يحلو له، طالما إنه لا يضر أحداً.

في تلك اللحظة عاد بيوتر بيوتر وفيتش أدراجه ثانية وهو يتحدث بحرارة وحماس مع أربعة أسياد آخرين.

وخيل لي ان ناديا ستطالبه بثمن القهوة ، وكنت على استعداد تام لدفعها بدلاً منه ، كي لا تحرجه أمام الآخرين . غير ان ناديا لم تقترب منه . قالت :

- غير مناسب أبداً ، فالأسياد غرباء. ومهما يكن الأمر فبيوتر بيوتر وفيتش منا وفينا ولا تجوز إهانته بوجود الآخرين.

ومنذ ذلك اليوم أستيقظ في داخلي نوع من العطف ازاء هذا الرجل. وقد تألمت جداً لكوني غير قادر على توكيله بأي عمل يقوم به. كنت مستعداً لتأمينه على أكبر الأعمال لو كانت بحوزتي. ويبدو إنه كان يعرف ذلك أيضاً، ولذا لم يكن يعيرني أدنى التفاته، رغم إنه كان الشخص الوحيد في المقهى الذي استقطب جميع اهتماماتي. ومن غير التعرف عليه شخصياً والتحدث إليه، كنت أشعر ، من يوم لآخر، ان روحه تتعذب وتشقى تحت نير الحياة القاسية الفاشلة، وكنت أرى كم كان يبذل جهداً جباراً لخداع الناس بكبريائه الخادع وروابطه المختلقة ، وكم كان يلاقي المزيد والمزيد من الفشل في إقناع الآخرين، وبقدر ما كان يقترب من الهاتف، كان يزيد من تهتك وسخرية العارفين. السخرية التي كانت تصل أحياناً إلى حد الاستهتار والوقاحة. سمعتهم ذات يوم يقولون له:

- ساوكلكم غداً يا بيوتر بيوتر وفيتش بشراء ألف برميل من الملينات .

- هل بامكانك بيوتر بيوتر وفيتش ان تستأجر لي قصر نائب الملك ؟

- اشتر لي يا بيوتر بيوتر وفيتش خمسمائة جمل أرسل عليها بضاعتي إلى الهند. وهكذا دواليك من السخريات الوقحة.

كانت تتملكني سورة من الغضب الشديد. وكنت مستعداً للتدخل أحياناً ورفع عقيرتي بالاحتجاج ضد هذه المعاملة اللاانسانية. كانت خادمات المقهى أكثر أخلاقية ونبلا من أولئك السادة بألبستهم الأنيقة وهندامهم الجميل. كنت أسمع غاليا كلام ناديا، التي تبدي تعاطفها النزيه نحو بيوتر بيوتروفيتش :

- آه ياسيدي، لماذا لا يفقه هؤلاء الناس انه من العار التهكم على التعساء؟ وقد أسفت جدا؛ لانها وبّخت بيوتروفيتش بحضوري ونعتته بأنه سافل دنيء

مع بداية الصيف ذهبت إلى المصيف. وهناك لم أنس قط بيوتر بيوتروفيتش . كنت أتذكر كيف يتقوس ظهره بين يوم وآخر ، ويشيب شعر رأسه ولحيته. وكان صوته الأجش لا يغيب عن مسامعي، والذي تطرق إليه الوهن والضعف تدريجيا. وكنت أفكر في سري «ترى هل هو عازب أم إنه يرزح، كغيره من البؤساء، تحت رزء عائلة كبيرة ؟ ».

ومع بداية الخريف قفلت راجعا إلى المدينة. وشرعت اتردد على المقهى نفسه .

لم أر هناك بيوتر بيوتروفيتش. سألت ناديا :

- أين هو ؟

- لا أدري .

- لعل المسكين قد مات ؟

- لا ، يقول عارفوه إنه لا يزال حياً .

- ولِمَ لا يأتي إلى المقهى ؟!

- آه ياسيدي ، لا يمكنك أن تتصور كم أشفق حاليا على بيوتر بيوتروفيتش (أجابت ناديا بصوت ملؤه الصراحة) لقد مضى حوالي الشهرين لَمْ يات فيهما إلى المقهى .

- لماذا ؟!

وحكت لي الخادمة ما حدث. ذات يوم، قبل شهرين، قام صاحب المقهى «وهو أسفل السفلة» بخطف سماعة الهاتف من يد بيوتر بيوتروفيتش، وصرخ به قائلا : «كفاك ياهذا، لقد ابليت جهاز الهاتف». غضب بيوتر بيوتروفيتش بالطبع ونعت صاحب المقهى بانه رجل غير مهذب. وتشاجر الاثنان. فأمر صاحب المقهى بيوتر بيوتر وفيتش ألاّ يزور مقهاه بعد اليوم بقوله «كفى ما أكلته من نقل وشربته من قهوة مجانا في مقهاي». ولم يتمالك الأخير نفسه فصرخ قائلاً : «من أنت أيها الكلب الأجرب حتى تهينني. لقد أطعمت الكثيرين أمثالك، وسيأتي اليوم الذي أطعمكم فيه مجدداً». وعندها أمسك صاحب المقهى بتلابيبه وأخرجه من المقهى على مرأى من الجميع .

- ومنذ ذلك اليوم لم يزرنا ذلك الرجل المسكين (واصلت الخادمة كلامها) وأنا أتصور جيداً حالته. صدقني يا سيدي، اننا نحن الندل حزينات جداً بدون بيوتر بيوتروفيتش. لقد اعتدناه تماما، وكنا نبادله الحديث كل لحظة. كان أحيانا يقص علينا لمعا طريفة من شبابه. أتدري انه كان ابنا لاحد الأثرياء وقد أضاع ماله في القمار؟ انه يحكي لنا بصورة مشوقة جداً عن الحفلات التي كان يقيمها، لدرجة يتمنى المرء معها الإستماع والإنصات إليه حتى اللانهاية .

- هل هو متأهل ؟

- طبعاً .

- هل عنده أولاد ؟

- عنده بنتان. واحدة في السابعة والأخرى في الثامنه. تصور انه كان عازبا في عز أيامه، ولكنه أسلم عنقه لنير الزوجية الثقيل بعد ان وقع في الفقر. فانىّ لنا ان نتفهم هذا النوع من الرجال. ليت بيوتر بيوتروفيتش يجد صاحب مقهى آخر أكثر طيبة، لأن صاحبنا رجل شرير جداً. المهم أن يكون بحوزته هاتف، لأن الهاتف بالنسبة للسيد بيوتر

بيوتروفيتش كالسيجارة بالنسبة لكم. أجل، أجل فهو لا يستطيع العيش بدون هاتف...

ومضت شهور أخر لم أر فيها بيوتر بيوتروفيتش حتى في الشارع.

كدت أنساه تقريباً، ولكني قابلته فجأة ذات يوم... وإليك ما حدث...

كان الطابق السفلي للبيت الذي أسكنه أشبه بقبو عفن رطب. بيد ان صاحب الدار البخيل كان يؤجره للسكن. ورغم قلة إيجاره، لم يكن أحد يقدم على استئجاره. فالاعلان الملصق على باب الدار قد اتلفته الأمطار ولم يعد بالإمكان قراءته. وكل من يرى قن الدجاج ذاك، يبتعد فوراً دون السؤال عن قيمة إيجاره. وقد وصل الأمر بالبواب إنه كان ينهي الناس قائلاً.

- لن يعجبكم ، فهو أشبه بالقن .

ذات مساء كنت جالساً في شرفة بيتي، حين رأيت عربة تدخل الباحة محملة بأثاث بيت .

كانت تتقدم العربة امرأة بدينة مع ابنتيها الصغيرتين، يبدو الفقر عليهن جميعاً .كان يسير خلف العربة رجل انزل قبعته الواسعة على عينيه ، ورفع قبة معطفه بشكل يستحيل معه رؤية وجهه. كان يسير بخطى وئيدة ، حاني الرأس مقوّس الظهر.

توقفت العربة أمام البيت الخالي. نادت المرأة البواب بصوت عال، فلم يجبها أحد. وعلمت فيما بعد ان البواب اختبأ عمداً ؛ كي لا يساعد هؤلاء الناس الفقراء.

- أسرع يا بدروس، مالك تبطىء يا رجل؟ (نادت المرأة الرجل السائر خلف العربة).

- إني قادم ، إني آت (كرر الرجل بصوت غاضب) .

وعرفت في الحال صاحب ذلك الصوت ومظلته الثقيلة. إنه بيوتر بيوتروفيتش مع عائلته .

شـرع ، بمسـاعـدة الحـوذي ، ينـقل المتـاع من العـربـة إلى البيت، بينما ساعدتهما المرأة وابنتاها .

وأحـسـست ان بيـوتر بيـوتروفـيـتش قـد يرتبك إذا مـا شاهد شخصاً يعرفه ؛ ولذا تراجعت إلى الوراء كي لا يراني. وقد أسفت جداً لرؤيتي كتفيه المرفوعتين أبداً ترزحان تحت وطأة الصناديق والخزائن. ومـهـمـا يكن الأمـر، فـقـد أثار اهتمامي وضع بيوتر بيوتروفيتش الراهن، ولذا كنت أود سماع ما يدور في الأسفل .

كان ينقل أثاث البيت متاوها متوجعا، وهو يتمتم لاعنا هذا وذاك . ومن الواضح إنه كـان ينـدب حظه العـاثر . كـمـا يلعنه ذلك الإنسان الذي يساق إلى السجن مـحـمـلاً بالارزاء الثقيلة.

كانت زوجتـه تصدر الأوامر والتعليمات بصوت عـال صارخة بهم جميعاً وكأنها مديرة للسجن. وخيل لي ان ذلك الصـوت شـرير جـداً ،.مكروه جـداً. وشـفـقت على بيـوتر بيوتروفيتش مرة أخرى .

وأخيراً، تم افراغ العربة وابتعد الحوذي صارخاً ومطلقاً العنان لسيل من السباب والشتائم. لم يكن راضياً عن الأجرة التي تلقاها، ولذا صب جـام غـضـبـه على جـواديه اللذين أشبعهما ضربا بسوطه اللاهب. لم يكن بيوتر بيوتروفيتش هو الذي دفع الأجرة ، وإنما زوجه.

كانت أبواب ونوافذ المسكن مفتوحة. فلم يكن بمقدوري وحدي ، بل وبمستطاع جميع الجيران ان يستمعوا إلى مـا. يدور في عائلة بيوتر بيوتروفيتش ، سيما وان عقيلته الضخمة الجثة لم تكن تتوانى عن اطلاق قوارص الكلام.

لقد سمعها تقول له .

– تسأل كيف ستعيش في هذه الحفرة النتنة ؟ بالطبع ، ان كبرياءك المزيف لايسمح لك بذلك . ولكن، لابأس عليك، ستتعود العيش هنا. كان يجب علينا اختيار مثل هذه الزاوية

منذ أمد بعيد حتى يتحقق فيك المثل القائل «أنف في السماء واست في الارض» .

– لا ياناتاشا، إنك امرأة لجوجة جداً ، أما كان بمقدورك الانتظار قليلاً حتى اتوفق في أعمالي . ؟ !

– أعمالي، أعمالي، أية أعمال هذه، يارجل ؟ لقد تزوجت منك قبل عشرة أعوام وأنت لا تزال تمنيني بالأحلام الخادعة ، كلامك كالعسل وفعلك كالاسل . «تريثي حتى أبيع قطعة الأرض، اصبري حتى أبيع المنجم، فأقبض عمالته ونصبح أغنياء». ولكنك لم تؤد أي عمل حتى هذه الساعة. فأنت من الصباح حتى المساء تتسكع في الشوارع أو تجلس في المقهى، تجادل هذا وتداخل ذاك ثم تعود إلى البيت صفر اليدين. أي وكيل أنت، وأي عمل تقوم به؟ ؟ ! أنت لاشيء، لاشيء البتة. كل ما تجيده ذكر أسماء بعض الوجهاء والأكابر، والتحدث بصلف وغطرسة عن ماضيك .

– اعلمي ياخليلتي أن بيع أرض أو منجم ليس كبيع زوج من الجوارب. إنه يحتاج إلى الوقت والصبر.

– الصبر، الصبر، قل لي إلامَ نصبر؟ فابنتاك حافيتا القدمين، وأنا انهك آخر قميص لي، أما أنت فقد أصبحت شبيها بحانوت الثياب البالية، ولكنك تعيش مردداً أسماء الأمراء والمليونيرية. وها أنت تردد على مسامعي الآن بأنك ستشتري للإنكليز أم للبلجيكيين آباراً للبترول. لا ، أنا لم أعد أصدقك أبداً ، فأنت أعجز من أن تقوم بأي عمل. فلو كنت عاقلاً لما فرطّت بثروة أبيك، أو على الأقل، لما كنت تزوجت هذه الزيجة الغبية .

– وما حيلتي ؟ لقد أحببتك وتزوجت منك .

– اخرس حباً بالله، فمن أنت حتى تحب أو تقع في الغرام ؟ !

– إذن أنت التي وقعت في غرامي (حاول بيوتر بيوتروفيتش الانتقال من الجدال إلى المزاح) .

- كيف لا، لقد طار عقلي لأجلك (سخرت منه الزوجة) كفاك ثرثرة ولغوا. لم يبق في المدينة إنسان واحد لم تستدين منه. فأنت مديون للقصاب والخباز وصاحب الدار وغيرهم. كفى، لقد فضحت نفسك، واوقعتنا في العار والشنار.

- ماذا تريدين مني إذن، أخبريني ؟

- أريدك ان تتخلى عن غطرستك وان تقوم بتأدية عمل ما كبقية الناس، بائع مثلاً .

- ماذا ؟ ! (احتقن بيوتر بيوتروفيتش غضباً) أنا أعمل بائعاً ؟ ! ان الأحجار ستحتج على ذلك. وماذا يقول عني العارفون بماضيي، أتدرين...

- فليقولوا ما شاؤوا، المهم ان تشبع عائلتك .

- كلا، فأنا لا أقدر على خدمة الناس، ولاسيما العمل بائعاً.

- حسن، لا تخدم عند الناس. ولكن دعني أفعل ما أريد في هذه الحالة .

- ماذا تفعلين ؟

- سأذيع منذ الغد على الجيران إنني غسّالة وسأبدأ بغسل ثياب الآخرين الوسخة .

- لن تفعلي ذلك .

- سأفعل .

- لن تشرشحي بيوتر بيوتروفيتش بيبينيانتس .

سأفضحك حباً في إعالة أولادي المساكين .

استمرت المشادة حامية الوطيس ، ولهجة بيوتر بيوتروفيتش في انخفاض وحسيس، بينما نبرة نصفه الآخر في ارتفاع مسيس . ولست أدري ما جرى، ولكن الصغيرتين بدأتا فجأة بالصراخ والعويل .

وتناهت إلى مسامعي شتائم الزوجة القائلة : «فقير فخور، نبيل أفّاك، طفيلي كسول، مخادع مختال» فيرد عليها

بيوتر بيوتروفيتش : «قليلة الحياء، سليطة اللسان، ابنة الكلبة » الخ... الخ... وسُمِعَ دوي الكراسي قويا، ثم لعلعة خرساء.

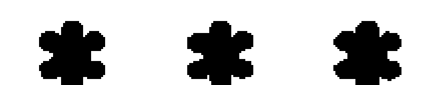
وساد السكون .

خرجت بعد قليل الى الشارع للتجول مساء كعادتي .

رأيت في عتمة الليل شخصاً جالساً فوق مَقعد البواب أمام البوابة. كان ينوح بهدوء.

إنه بيوتر بيوتروفيتش .

ولما رآني، نهض واقفاً ، وضع يديه فوق خصره، رمقني بنظرة ملؤها الفخر والكبرياء، وشرع يدندن لحناً ساراً من إحدى الأوبرات...



الفنــان

الكسندر شيرفانزادة

مـرت علي حـوالي خمسة أشهر في أوديسا غيرت فيها غـرفـتي أربـع مـرات. فـفي المدن الكبـيـرة يحلو للانسان الوحداني تغيير مكان اقامته من آن لآخر، فيخيل له إنه انتقل من عالم لآخر: جيران جدد وبيئة جديدة واحيانا عيشة ونفسيات جديدة تماماً.

قـدر لي هذه المرة العيش في شارع صاخب وفي الدور الثالث من بناية ذات خمسة طوابق. كانت ربة البيت أرملة ايطالية في الخمسين من عمرها مكتنزة البدن ولكنها سليمة وقوية. وكان زوجها ملقنا في الأوبرا الإيطالية ثم انتقل إلى روسيا منذ زمان بعيد ، حيث توفي تاركا لزوجته وابنته الوحيدة ميراثا لا يتعدى حزمة من النوطات القديمة وحاشية عن الفنانين الإيطاليين. وبما إنه لم يكن للأرملة أي مـورد للرزق، فقد كانت تؤجر غرف بيتها.

تعرفت منذ اليوم الأول على جيراني، فكان وسطاً جديداً وشيقاً بالنسبة لي، غالبيته من الإيطاليين وطالب روسي وطبيبة أسنان يهودية جميلة ولكنها ليست نضرة جداً.

كانت تعيش وسط الدار ابنة صاحبته لويزا في ربيعها العشرين بشعرها الأشقر الذهبي وأسنانها العاجيه النظيفة وعينيها البراقتين الجميلتين . وكانت لويزا مطربة ذات صوت جهوري عذب تعد العدة للظهور على المسرح. كما أنها تعزف البيان وتعطي دروساً موسيقية تنال أجراً توفره بنية الذهاب لإيطاليا لصقل صوتها.

في يومي الأول أحسست بيأس عادي وسط هذه البيئة الغريبة عني. وفي اليوم التالي اعتدت عليها وبعد أسبوع تعرفت على الجميع. كنا نتغدى كلنا في غرفة واحدة وعلى طاولة معينة وفي وقت محدد. فمن الساعة الثانية حتى الرابعة أو الخامسة كنا نقضيها في فرح ومرح، وغناء وموسيقى، ورقص ودعابة، الأمر الذي أشاع الدفء والمحبة والألفة بين مختلف القوميات والمعتقدات.

ذات يوم جلست لويزا إلى البيان وشرعت تعزف الفالس، فهب تشيللينين محتضناً لوكريتسيا كافاريللي ورقصا معا. وعم الفرح والهرج والمرج بين الجميع، لأنهما زوج مثير للضحك والسخرية حقاً. كان تشيللينين نحيف البدن، فارع القامة أما لوكريتسيا فقد كانت بدينة وقصيرة جداً. كانت لويزا تعزف وقد شدت رأسها الجميل إلى الخلف مدوية بقهقهة رنانة ملأت الغرفة بجرس موسيقي عذب.

ونحن على هذه الحال لحظت هيأة غريبة عني لم يأبه لها سواي في الدقائق الأولى بسبب قربي من الباب. ومنذ الوهلة الأول استحوذني الغريب وملك علي لبي، فراقبته محدقاً محملقاً. كان صبياً في السادسة أو السابعة عشرة من عمره، نحيفاً شاحب الوجه، مقوس الصدر إلى الداخل، يرتدي سترة نيلية قصيرة ذات حزام وقد طرز صدرها بكفين متعاقدين من الخيوط الصوفية، وبنطالاً ضيقاً من ذات اللون. وكان يمسك بيده قبعة خضرا طرية مزينة بالريش وشبيهة بتلك القبعات التي يعتمرها بائعو التماثيل اليونايين أو الموسيقيون الإيطاليون. كانت ملامح وجهه وسيمة ومنتظمة

وعيناه عميقتا المغزى حزينتين. وكان مخياه من الوجوه التي تحرك شعور الحب والاحترام من أول نظرة إليها. تقدم الغريب وهز رأسه محييا:

- مرحبا .

- اوه .. إنه الفنان - هكذا صرخ كافاللارو بصوته الجهوري وهو إنسان بالغ الطيب وفي الخامسة والثلاثين من سنيه. وللحال ردد الآخرون صائحين :

- الفنان .. الفنان ...

وعندها توقف الرقص والغناء، والفرح والمرح واتجهت عامة الأنظار صوب الفنان الذي سأله كافاللارو قائلاً :

- أين كنت، فنحن لم نرك منذ زمان طويل؟

ودنت لويزا منه سائلة :

- مهلاً ، مهلاً .. يبدو إنه حزين .. ما الذي جرى لك ؟ لما لا تدخل؟

فسأل الصبي قائلاً:

- أين السنيورة ستيفانين ؟

كان صوته مرتعداً وحزيناً وكانت نبرته تثير أشجان القلب وتنم عن الدماثة والكآبة معاً .

فقالت لويزا : - آه ، لقد افتهمت ، يظهر أن أمك مريضة من جديد . يا لك من صبي بائس : انت تصعد إلى السماء وهي تتمسك بالأرض .

أجاب الشاب مكلوما :

- أرجوك لا تعطفي علي يا سنيورينا لويزا ، فهل السنيورا ستيفانين في البيت ؟

- إنها في المطبخ .

وأحنى الصبي رأسه احتراماً وتقديراً ثم ابتعد . فقال كافاللارو :

- يا للصبي المسكين، يبدو ان أمه خطيرة جداً .

فأضافت لويزا قائلة :

- لا أظن ذلك. أن تلك المرأة تتمارض دوماً كي تعذب أبنها.. يا للصبي المسكين ! وردد الطالب الروسي بسخرية مرة:

-مسكين ولكنه لا يقبل عطفك يا سنيورينا لويزا، فهل رأيت كيف انفعل؟

فتكلم كافاللارو وقد رمقني بنظرته الحانية البريئة من تحت حاجبيه الكثيفين قائلا :

- إنه فخور جداً وكبرياؤه يليق بكآبته . ان طلعته تذكرني دوماً بأخي الذي كان عازفاً عبقرياً على الكمان وقد توفي بين يدي في ربيعه العشرين .

عندئذ وجهت إليّ الطبيبة اليهودية رئيسة سؤالها قائلة:

- أتعرف ليون ؟

- كلا ؟ عجباً يا جيران .. فحضرته لا يعرف ليون .

فصاحت لويزا ولوكريتسيا قائلتين :

- اوه .. أمر لا يغتفر .

وأضاف كافاللارو قائلاً :

- يخيل لي ان كل عاشق للفن لا يحق له ان يجهل الفنان ليون.. إنه فنان أصيل.. أجل، انه فنان بروحه وقلبه، بدمه وبكل جوهره .

ازددت شوقاً وتلهفاً لمعرفة ماهية ذلك الصبي الذي سحر جيراني. وعندها أضافت لويزا قائلة :

- بمقدورك التعرف عليه في الحال، ان كنت راغباً في ذلك بالطبع.

ثم خاطبت الجميع قائلة :

- أليس من المستحسن لو ذهبنا كلنا لعيادة أم الفنان؟ بلى سيكون ذاك عظيم جداً، إني ذاهبة وليتبعني من شاء.

قالت ذلك اتجهت نحو الباب مباشرة فتبعها جميع الحاضرين ما عدا الطالب الروسي والباريتون(*) بوريل .

(*) الباريتون: ذو الصوت الجهوري الثاني.

كان الفنان قاطناً فوقنا ، فقادتنا لويزا نحو الدرج الرئيسي المؤدي إلى الدور الرابع ومن ثم صعدنا إلى الطابق الخامس على درج خشبي ضيق قذر ودلفنا إلى فجوة مظلمة . وللحال اخترقت أنوفنا رائحة نتنة للحم مقلي بالشحم .

توقفت لويزا أمام باب خشبي لا يزيد عن الذراع ارتفاعاً وقالت:

- يجب أن نرفع السقف قدماً آخراً من أجل السنيور تشيلين.

فسخر تشيلين من بدانة لوكريتسيا محتضناً جذعها بذراعيه الضخمتين وقال:

- بل يجب علينا توسيع الباب قدمين لأجل السنيورة كافاريللي.

ولجنا غرفة لاتتسع عن قن الدجاج مساحة، فلمحت في احدى زواياها شيئاً لم أدر كنهه: أهو سرير أم تخت ؟ لقد حجبت جثة ستيفاتيا الضخمة كل شيء أمامي. وخطوت خطوة إلى الأمام حيث رأيت وجه امرأة راقدة تحت لحاف قديم بال وهي تئن وتتألم. وكان الفنان واقفاً عند قدميها مشتت البال بين سقم أمه وبين هموم أخرى، فلم يلحظ قدومنا. وعندئذ تكلمت السنيورة ستيفانيا مخاطبة المريضة :

- كفاك أنينا وتوجعاً فأنت لا تحتضرين وإنما مرض بسيط يفارقك غداً أو بعد غد . لقد حضر الجميع لعيادتك فاستقبلي ضيوفك كما يتطلب الواجب. ثم توجهت إلى ليون قائلة:

- يبدو إنك ازعجت الناس عبثاً .

وعندما رأتني المريضة استفسرت قائلة :

- هل حضرته طبيب؟

فردت عليها السيدة ستيفانيا مجيبة :

- إنه ليس طبيباً ، ولكن ربما عالج مرضك خير من الأطباء .. إنه من أبناء وطنك ...

- ارمني ؟ - صرخت المريضة رهبة ام رغبة ثم رفعت رأسها بتثاقل وجلست في فراشها .

- ارمنية ؟ - رددت وراءها مأخوذاً ، لأنني كنت أتوقع أي قوم في ذلك الوسط إلا الأرمني فأجابت السيدة رئيسة قائلة :

- نعم.. والفنان من مواطنيك .. والغريب في الأمر كيف لم تعرفا بعضكما البعض. وسألتني المريضة قائلة :

- من أين أنت؟ ألست من بيسارابيا ؟ كلا .. اوه، حمداً لله ! وتباً لأهل بيسارابيا إذ لا رب لهم .. إنهم وحوش كاسرة لا يفقهون ماهية مرضي.. وما العمل ياربي، فما من إنسان يرغب في تفهم مرضي .

وصرخت السيدة ستيفانيا قائلة :

- لا تعودي إلى معزوفتك القديمة .

-لا أقدر على السكوت يا ستيفانيا فقلبي يشتعل ناراً. أنتِ أمٌ مثلي ومن حسن حظك إنها فتاة .. اواه ليته كان بنتا، فأنتَ لا تعرفين ما يفعله.. إنه يعذبني مثل أبيه تماما.

ثم التفتت إلي وقالت :

- ان هذا الفاجر هو ابني الوحيد، أتفهمني ؟ إنه ولدي الوحيد، فأرجوك ارشاده محبة بالله وأبعاده عن السبيل الذي سلكه والده .

وهمست لويزا في اذني قائلة

- أنها شكوى عادية فلا تعرها انتباها.

ونظرت إلى ليون الذي أدار وجهه خجلاً ناحية الجدار من غير ان يلتفت إلينا. فاقتربتِ لويزا وأمسكت بيده وادارت وجهها نحوه ثم حدقت في عينيه نظرة أخت محبة حانية ، فبدا ان تلك النظرة قد اخترقت روح ليون حتى الأعماق، وأية روح لا تخرقها تلك النظرة عموماً؟ فاشرق وجه ليون بالبشر وحملق بوجه الإيطالية بعينين يملؤهما شعور العرفان والثناء.

وتابعت الأم المريضة قائلة :

- لو كان ابنا بأرأ لما استقبل ضيوفه الأكارم في بيت كحظيرة الخنازير. أما ترون وضعنا ليس عندنا حتى كراسي.. ما بك واقف كالصنم يا صفيق الوجه؟ ألا ترى ضيوفي؟

قدم ليون زوج الكراسي الموجود في الغرفة للمرة الثانية لكن الجلوس مستحيل في هذه الغرفة التي لا تتسع إلا لوقوف سبعة أو ثمانية أشخاص. لم تتحمل لوكريتسيا قلة الهواء طويلاً فسارعت إلى الخارج حيث تبعها تشيللين وهو يردد:

- ان أم الفنان «لا تشتهي» الموت بعد ولا داع للقلق بتاتا.

بعد خروجهما من الغرفة سنحت لي الفرصة لاجول ببصري في أنحائها، مما أثار في شعور من العجب والارتياح. ففي احدى الزوايا علقت صور كبار الموسيقيين والملحنين والمطربين والمطربات في العالم تعليقاً شبيهاً بقصب المروحة . وفي زاوية اخرى انتصبت طاولة صغيرة محملة بشتى أنواع الكتب الأدبية الرخيصة. كما شاهدت تماثيلاً نصفية من الفخار لبتهوفن وموتسارت وشكسبير وفاغنر ، وقصبة فخارية سميكة وأخرى مكسورة وغيرها من الأشياء. وقد علق على جدار الطاولة غيتار وماندولينا ولباس مسرحي شبيه بلباس بريجوليتو. ولعل أكثر ما يثير دهشة واستغراباً تلك الصورة المرسومة بالورنيش والتي تمثل ملاكمة بين شابين في سبيل مغنية الشارع، التي توسطت الشابين بشعرها الأشعث، محاولة التفريق بينهما. وفي تلك اللحظة أسر إلي كافاللارو قائلاً :

- أترى ؟ موسيقا ورسم وشعر وكأنه لم ينس شيئاً !

بينما كانت المريضة قد استأنفت تذمرها وشكواها فقالت:

- مـرت أيام ثلاثة لم أر فـيـهـا وجـهـه.. إنه لا ينام يا ستيفانيا. لا ينام. أليس إنه معرض للمرض أيضاً ؟ وما علي ان أفعل؟ من الذي سيرعاني ان أصيب بشيء؟ انه لا يخرج من المسارح ليلاً ونهاراً، وكأن وبال الأب قد انتقل لابنه فلعنة الله على قبره.. لقد سود كل أيامي .

وعلقت لويزا قائلة :

- ذات الشكوى دائماً .. كيف لا تمل ولا تتعب هذه المرأة؟ يالها من أنانية...

كانت روح الأثرة والأنانية بادية على عيني المريضة بالرغم من جمالهما واشعاعهما على وجه ذابل لامرأة في حوالي الخمسين من عمرها .

لاحظت عند الوداع ان كافاللارو قد وضع ليرة ذهبية في كف ليون الذي امتنع عن قبولها . فتقهقر الباريتون باقياً في الغرفة كي يسنح للفتى بتشييعنا .

وفيما بعد اوجزت لي السنيورة ستيفانيا قصة ليون كما يأتي :

كان والده حلاقاً مسرحياً متفان في حبه للفن . وفي ذات يوم وقع الحلاق المسكين فريسة لداء السكر اللعين، ولكن ليس بدون سبب. فقد تبين إنه كان عاشقاً يائساً لاحدى المطربات. وبعد مرور زمان قصير أصبح العاشق الفاشل مادة للسخرية والاستهجان وراء الكواليس ، فكان الجميع -من الفنانين وحتى عمال لمسرح- يتندرون ويسخرون من جسارة وجرأة مشاعره إزاء حسناء يذكرون بين عشاقها محافظ المدينة ومارازلي المليونير اليوناني الشهير بأعماله الخيرية .

واشتد الهم والغم بالحلاق الذي عجز الشراب عن خنق مرارة قلبه الملتاع. وذات يوم، ضرب المخرج الذي دعاه «غربيداً» أثناء سخريته من باروكة شعر صنعها الحلاق. وطردوه من وظيفته فأصبح بعدها ملكاً خاصاً للخمرة والأزقة. وفي احد الليالي وجدته الشرطة مرتمياً تحت شجرة

وقد غمره الثلج ، فأحضرته إلى بيته حيث توفي بعد أيام ثلاثة بالتيفوئيد تاركاً أرملته وابنه لارادة القدر.

كانت الأرملة قد شقت وتعذبت كثيراً من حرفة زوجها ولذلك أسلمت وحيدها البالغ ثمانية أعوام لأحد النجارين، أما هي فشرعت تخيط البياضات للناس. وبعد شهرين هرب الصبي من حرفته ملتجئاً إلى المدرسة، فقدم له المحسنون أقساط الدراسة حيث تعلم القراءة والكتابة. وفيما بعد سلمته الأرملة إلى متجر للألبسة ولكنه لم يبق هناك أيضاً، إذ دفعته يد القدر الخفية إلى المسرح فشرع يوزع الأعلانات مقابل أجرة يومية مقدارها خمسون كوبيكا كما إنه نال حق الجلوس في بلكونات المسارح مجانا. ثم انتقل إلى ما وراء الكواليس وطفق يتعرف على عالم الفن تدريجيا فتعرف على جميع الفنانين الذين أحبوه واحترموه لوداعته ونشاطه الذي لا يحد في تقديم خدماته الجليلة إليهم. وهكذا أصبح ليون المشاهد الدائم لعروض المسرحيات عموما، والإيطالية منها خصوصا، أما في النهار فانه لا يفارق المسرح أبداً.

وهنا علقت لويزا قائلة :

– ستدهش يا سنيور ان قلت لك ان ليون يخلق المجد والشهرة لكل فنان ناشيء في بلدنا. أجل، أجل.. فلا تعارضني يا سنيور تشيللي، انها حقيقة ساطعة سطوع الشمس. فهو يتمتع بصحبة العديد من رفاقه الذين يؤمنون بذوقه الرفيع ويحبونه حباً عميقاً وبريئاً، وهم بدورهم هواة عظام للفن. أنا غير واثقة من مبدئية هؤلاء ولكني متأكدة بأن ليون مبدأي ولا يقبل الرشوة اطلاقا، أحقا ما أقوله يا سنيور كافاللارو ؟

– انه بريء براءة الطفل الوليد وحساس كوتر الغيتار.. انه نسخة عن المرحوم أخي ...

واستغربت مستفسراً :

– ولكن كيف يجلب الشهرة والمجد للفنان الناشيء ؟

أجابني كافاللارو قائلا :

- من التصفيق الأول .

فاجبته قائلاً : - لا أفهم ما تعنيه .

- يبدو يا سنيور انك لا تتصور أهمية التصفيق الأول بالنسبة لفنان في بلد غريب .. انه شيء عظيم، لا بل انه المعجزة. واظنك كهاوللمسرح قد لاحظت الظاهرة التالية: فجمهور المسرح يبخل بالتصفيق الأول على الفنان الجديد، والمستمع المعجب جداً بأغنية أحد المطربين غالبا مايستحي من ابداء إعجابه تخوفا من ان يطعنوه في نوقه. هاهنا بالضبط يأتيه ليون منقذاً اياه من ورطته، لأن ليون متحرر من تحاملات وقيود المجتمع ولايخجل من ارسال تصفيقه أولا، فتتبعه شلته ومن بعدهم يبدأ الجمهور بالتصفيق الحاد، وفي الغداة تكتب الصحف عن ذلك الترحيب العجيب، واذا بالفنان الغمر قد أصبح مشهوراً .

وعقّب تشيللي قائلا :

- طبعا ، ان كان للفنان موهبة وكفاءة .

- بالطبع .

وعلق بوريللي قائلاً :

- قد يحدث ان يرسل ليون تصفيقته الأولى لفنان غير كفوء.

فرد عليه كافاللارو ببسمة ساخرة وقال :

- استمحيك العذر، وأؤكد لك ان شيئاً من هذا القبيل لم يحدث لفرقتنا على أقل تقدير .

وتنبأت ان بوريللي هذا لم ينل تصفيق ليون بعد .

كان من المحتمل ان يستمر النقاش طويلاً لولا دخول ليون ثانية. كان محياه هادئا في هذه المرة حين دعا كافاللارو إلى احدى الزوايا وهمس في اذنه بسر ما ثم وضع في جيبه ليرة ذهبية. وعلمت فيما بعد ، ان كافاللارو كان قد وضع

الليرة تحت وسادة أمه أثر خروجنا من الغرفة، لكن ليون أيقن أنها فعلته فأخذها من أمه وأعادها لصاحبها الذى انطلق يفرك جبين ليون بحب أبوي ويقول له :

- إنك عنيد جداً ياليون. فلا تزعل مني. هيا اجلس لنتسامر قليلاً . أكنت في المسرح البارحه ؟

- طبعا .

- هل اعجبك دوري ؟

- طبعا . ط .. ب . . عاً . . .

- ولما تشيح وجهك عني ؟ .. آه ، انك تجاملني ؟

- لقد كنت مرتبكا البارحة ياسنيور كافاللارو .

- أنا ؟ أبداً . . أنت مخطىء .

- لست مخطئاً ياسنيور، فعندما تكون هادئاً لا تزلّ أبداً. لقد علمنا بنبأ ازعاجك .

- لقد خيل إليك ذلك ، اذ لم يثرني أحد ما.. أرايت انك لم تتفهمني جيدا ياليون ؟

حملق ليون بعيني كافاللارو بنظرة صافية حكيمة أقنعته بأن الزور والبهتان مستحيلان لديه فربت كافاللارو على كتفه قائلاً :

- أنت على حق يارفيقي، فقد تشاجرت مع المخرج قبل التمثيل بقليل.

- لا ياسنيور .. بل قل مع المايسترو.

- ومن أين عرفت ذلك ؟

- عندما كنت تغني « أو كارلو » رفع السنيور مارتيني النغمة نصف درجة كي يغالطك. والسنيور مارتيني معروف بتحيّزه لنفسه ولا يعقل ان ينتقم منك اكراما للمخرج، ولذا فهو كان يثأر منك لنفسه .

فالتفت كافاللارو نحوي وقال مشجعاً :

- أتسمع ياسنيور؟ ان الغريزة الموسيقية وسليقة النقد الصافية تتكلمان بلسان هذا الفتى .

نهض ليون ثم أحنى رأسه شاكراً لنا زيارتنا له وأسرع نحو الباب، فملك علي لبي لدرجة اشعرتني بحاجة ماسة للتحدث معه، فسألته انطلاقا من المشاعر الوطنية :

- أتعرف اللغة الأرمنية ؟

- أعرفها .

كان وأمه يتحدثان اللغة الروسية بلكنة تركية. وكانت ربة البيت ولويزا وكافالارو الوحيدين الذين يعرفون الروسية من الإيطاليين. أما ليون فكان يتكلم مع الآخرين بالإيطالية.

وسألته عدة أسئلة واضحة وبلغة أرمنية سليمة فرمقني مشدوهاً ثم ابتسم. واضطررت للرجوع إلى اللغة الروسية فسألته قائلاً :

- ألم تفهمني ؟

فأجابني باللغة التركية :

- لغتك كنسية.. وهذه هي الأرمنية التي أعرفها.

لم يكن جهل أهالي بيسارابيا للغتهم الأم أمراً جديداً بالنسبة لي ، ولكنها المرة الأولى التي أرى فيها أرمنيا يعتبر التركية لغة أرمنية .

رجوت ليون ان يزورني من آن لآخر كما وعدته بأن أرد له زياراته. لم يطل انتظاري له، إذ جاءني في الغد ليبشرني بنبأ تماثل والدته للشفاء. وفي الواقع لم تكن صحة أمه تهمني كثيراً، وكل ما كان يشغلني ويقلقني مصير الفتى.

عندما شرعت في الحديث معه عن الموسيقا والمسرح انشرحت اساريره مثل العاشق الولهان الذي تحدثه عن حبيبة قلبه. وحكى لي بدوره عن حماسه الشديد بكبار المطربين والملحنين الذين قدر له سماعهم خلال السنوات السبع الأخيرة خلال زيارتهم لروسيا مروراً باوديسا. وهنا

سألته قائلاً:

- يبدو انك تعزف أو تغني ؟

- كلا ياسنيور .

- لا أفهم .

- لا صوت عندي للغناء .

- ولكن لديك العديد من الآلات الموسيقية في غرفتك .. لقد رأيتها بالأمس .

- أجل ، إني أعزف الغيتار والماندولينا .

- أتعرف النوطة ؟

لقد علمتني إياها السنيورةلويزا. ولكن هل سمعت غناء لويزا ؟ ان صوتها مرنان جداً ، أليس كذلك ؟ أجل؟ هل أعجبك ؟ حتماً، ومن لايعجبه مثل هذا الصوت.. اوه، ان القدر يعد لويزا بمستقبل باهر.

وصمت ليون مطلقا حسرة ومرسلا نظرة عميقة إلى مجاهل الآماد البعيدة، فقرأت على قسمات وجهه سر عذاب نفساني حمض. وأصارحك القول ، إني لم اعر حسراته انتباهاً، اذ لم يكن بمستطاعي التصور ان قلب فتى في السابعة عشرة ربيعاً قادر على تحمل مثل هذه الكربة النفسانية فسألته :

- كل هذا حسن، ولكن كيف تعيش أنت وأمك ؟ أليس أن أباك لم يترك لكما ميراثاً ؟

هناك عمل كثير ياسنيور، فأنا أبيع البرامج وأمثل دوراً صامتاً على المسرح «وأمسك ذيلاً». آه ياسنيور لو سنحت لي الظروف لتعلمت العزف على الماندولينا والكمان ولانضممت إلى الفرقة الموسيقية

- أتذكر والدك يا ليون ؟

- طبعا ، أذكره جيداً .

- يقال إنه إنسان طيب .

- نعم يا سنيور، طيب جداً ولكنه...

فاكملت كلام الفتى قائلاً :

- ولكنه كان سكيراً .

لم يكن يضربني أو يغضب علي بتاتا.. ولكن لا.. لقد غضب مرة واحدة لازلت أذكرها .

- يبدو إنك كنت شقياً ؟

- حقا. لقد كان حانوته في الطابق الأرضي من ذلك البيت الأزرق فكنت أذهب يومياً لتمشيط الشعر المستعار. وفي أحد الأيام كان مغتما جداء حين جاء إليه جنرال يود حلق لحيته، اذ كان أكابر القوم يترددون عليه دائماً. وكنت سارحا فأخذت مشطاً ووضعت عليه ورقة وشرعت أعزف بشفتي، فحنق الجنرال وأمر والدي بطردي، فما كان منه إلا ان اقترب مني شاداً أذني وضاربا على قذالي ثم طردني من الصالون. وما ان غادره الجنرال حتى ناداني ماسحا عبراتي وخاطبني مقبلاً «ان كانت عندك موهبة موسيقية فانا مستعد لرهن نفسي فداء لتعليمك الموسيقا». أجل يا سنيور لقد كان وادعا جدا بالرغم من سكره .. كم الساعة رجاء؟

- الحادية عشرة .

- أوه .. لقد تأخرت .. أرجو معذرتك الآن وسازورك من جديد فغرفتك جيدة وستعطيني كتبا فأقراها ، أليس كذلك؟ الف شكر لك وإلى اللقاء.. ان حفلة اليوم على شرف كالفاتي وسيكون المسرح مكتظاً فعلي الذهاب سراعا كي أمسك ذيلاً.

كانت كالفاتي هذه مطربة عظيمة .

وذهبت للمسرح كي اشترى تذكرة لي فرأيت طابوراً طويلا منتصباً أمام شباك التذاكر يصل حتى منتصف الشارع . كان الجو باردا ورطبا ورديئاً وكان على ان احتل دوري في آخر الصف وان انتظر ما يقارب الساعة أو يزيد

كي أتمكن من الحصول على تذكرة. فعدلت عن رأيي وقررت العودة إلى البيت، وعندها سمعت صوتا يناديني فاحسست انه صوت ليون الذي أميزه من بين مئات الأصوات. كان ليون واقفا على بعد خطوات معدودات من شباك التذاكر حين تركه وجاء إلي ، فسالني بالتركية قائلاً :

– أتريد تذكرة ؟

– بلى .

– اتبعني كي تحتل مكاني وإلا لن تصل إلى الشباك بسرعة.

احتليت مكانه بينما توجه هو إلى آخر الصف حيث كنت واقفا . وهنا بالضبط فطنت الى مغزى عبارة «مسك الذيل». كان ليون ينتظم في الصف حتى يصل إلى نصفه فيبيع دوره لمن يرغب فيه من الناس بخمسة أو عشرة كوبيكات، يعود بعدها لاحتلال مكانه في آخر الصف وهكذا دواليك. لقد كان يبحث عن شتى السبل والوسائل التي تقربه من المسرح الذي كان له بمثابة الطعام والهواء، لا بل انه الحياة بالذات .

ازددت شوقاً وتلهفا لرؤية ذلك الفتى كل يوم. وذات صباح قابلت عند باب غرفته شابين غريبين يحادثهما. كان احداهما تربا له يرتدي لباسا باليا ويعتمر قبعة جديدة، صفراء العينين، رادني الشعر، نمش الوجه، وسيم الطلعة. أما الآخر، فقد كان شابا لمحته سابقاً في العديد من أماكن التسلية وفي مسارح المدينة. إنه شاب في الخامسة والعشرين، نحيف البدن فارع الطول لدرجة تظنه مصنوعا من القضيم، وجهه طويل وضيق ، عيناه صغيرتان مدورتان بارز الحلقوم. وكان شعره الخفيف المرسل يتدلى من قبعته اللينة المنكسة إلى حاجبيه ملتصقا كاللزقة برقبته النحيلة وحوالي حلقومه. كان ملتفا بمعطف غير مبطن واسع الكمين فوق سترة سوداء وقد أمسك باحدى يديه عصا صفراء مدببة كالشمندر وبالاخرى كراريس وجرائد محلية .

وقدمهما ليون إلي قائلاً :

– انهما صديقاي : الشاعر تشاوشينكو وايتسكو مارغوليس .

فشددت على أيديهما. وعندها قال الشاب الشاعر ذو الجلباب الواسع :

– يأمل تشاوشينكو التعرف على الناس عن طريق مؤلفاته.

وللحال وضع احد كراريسه امام انفي وسألني قائلاً :

– هل ترغب في اقتناء نسخة من كتيبي ؟

– بكل سرور .

كان ديوانا صغيرا بعنوان «ساعات الألم والمرارة» للشاعر ليونيد نيكولاي تشاوشينكو. وبعدما وضعت سعره في جيبه قال :

– قد تستغرب جرأتي وجسارتي في فرض كتيبي عليك ولكن لاتمتعض منه . فالناس يبيعون ضمائرهم وتشاوشينكو يبيع كتبه. فانا منضد سابق، اكتب وانضد واطبع وابيع الكتب واجني ثمار عملي .

فقاطعه الشاب المدعو ايتسكو مارغوليس قائلاً :

– وأنا أبيع الجرائد أحيانا وأخدم في المسارح أحيانا أخرى وحين تهاجمني الضائقة والفاقة أمسح أحذية الناس.

فسخر منه تشاوشينكو معلقاً :

– وهو يخال نفسه روبنشتاين المستقبل .

– آه يا سيدي، هل أنت أستاذ موسيقى، كلا؟ وأسفاه، كنت أطمع في بعض دروس البيان.اسخر مني ما طاب لك يا تشاوشينكو ولكن ليكن في معلومك إنني الإنسان الوحيد الذي سيكتب موسيقى لديوانك «ساعات المرارة والألم». والآن هيا بنا يا أيها الشاعر العظيم .

قال ذلك منصرفا كالريح فتبعه تشاوشينكو مثيراً فرقعة عظيمة من جراء ضرب هراوته على درجات السلم الخشبي .

حمدت الله لأن والدة الفنان لم تكن في البيت هذه المرة فهي قد ذهبت لقضاء بعض حاجاتها من السوق. واخبرني ليون بأن تشاوشينكو ومارغوليس قد حضرا لاستشارته بأمر الحفلة التي ستقام على شرف باربيني المطربة الأولى في الفرقة الإيطالية، وبانهم يعدون العدة لاحتفال مهيب وفوق العادة. فتشاوشينكو يزمع اهداء المطربة قصيدة تجب ترجمتها إلى الإيطالية.

فسألت ليون مجربا إياه :

– أرغب في معرفة ما شأنكم وحفلات تكريم الفنانين ؟

فصاح مصعوقا :

– كيف ما شأننا.. أليس ان المطربات يخدمن الفن؟

– وما وجه الغرابة في ذلك ؟

– يجب على كل إنسان تكريم الفن.

– الفن يتطلب التبذير والاسراف وأنت ورفاقك فقراء...

– الاثرياء يقدمون الهدايا والعطايا للفنانين ونحن ننظم التظاهرات...

لم يكن قد مضى على حديثنا سوى دقائق معدودة حين آبت والدته إلى البيت وقد رمت بسلة يدها تحت أنف شكسبير ثم شرعت في التهجم على ابنها قائلة :

هل كان أشقياء الشارع هنا ؟ يبدو انكم عقدتم اجتماعا؟ لقد مر أسبوع كامل وأنتم توجعون رأسي بحفلة تلك المطربة اللعينة . هل رأيت يا سيدي رفاق السوء الذين يصاحبهم هذا الولد العاق ؟ وما الذي سيتعلمه منهم ؟ تباً لك من ولد بليد تافه .

يحدث أحياناً أن تكون الأمهات عدوات لابنائهن الحلال. بالطبع، كانت والدة ليون تحبه ولكنها لم تكن ترى الهوة العميقة المنتصبة فيما بينهما.. تلك الهوة العميقة التي لا يمكن ردمها أو تغطيتها بوابل من التقريع والتوبيخ الذي لا يجدي نفعاً. وفي احدى المرات، وبينما كنا نتحدث عن هذا الموضوع حول مائدة الطعام، دافعت السنيورة ستيفانيا وبوريللي عن الأم بينما ذاد الباقي عن ليون، فقالت رئيسة:

- يتهم الناس اليهود بأنهم ماديون وأنا موافقة على ذلك . ولكني أؤكد لكم إنه ما من أم تعامل ابنها بهذه المعاملة المادية التي تجترحها أم مسيحية. فاليهودي يستثمر ابنه بشكل حاذق وماهر، فإن لاحظ عنده موهبة موسيقية أو غنائية استثمر تلك الموهبة بالذات، فلا يقسره لأن يعمل حرفيا أو بائعاً.

لقد بكى ليون وانتحب أمامي مرتين حين وبختـه أمه وأصفة إياه بالولد «التافه» ثم تمسك بجيدها وهو يصيح بأعلى صوته :

- لا تلوميني يا أماه ، فأنا أحبك ...

اوه .. كلا .. لا يمكن لذاك الفتى ان يخادع أو يناور فهو يحب أمه حباً لا حدود له وهذا هو بالذات أهم أسباب تعاسته وشقائه.

دعوته إلى غرفتي باشاً هاشاً. كان عاري الرأس، أشعث الشعر، شاحب الوجه وقد اصفرّ بياض عينيه. دخل علي متأبطا الماندولينا كمن يخشى ان يختطفها منه أحد ما. وكانت أزرار سترته مفكوكة فتباعد شقي قميصه وظهر صدره النحيف البارز. أما ركبتاه فقد كانتا ترتجفان برداً وقد ارتفع طرفا بنطاله فظهر حذاؤه ظهورا بشعاً. وبعد ان جال ببصره في ارجاء الغرفة قال:

- المعذرة يا سنيور.. لقد ظننت إنك قد أستيقظت؟

فسارعت لتطمينه بأني كنت أنوي النهوض لتوى. ثم

رجاني ان أسمح له بالبقاء في غرفتي لمدة نصف ساعة. فاعلمته ان بمقدورة استخدام غرفتي في الوقت الذي يلائمه. إلا أن هيأته المضطربة قد أثارت ارتباكي وقلقي فسألته وأنا أحدس إنه يود الإختفاء عن أعين الرقباء :

– ما خطبك ؟

مرت عدة دقائق دون ان يجيبني على سؤالي فلم أكرره بل شرعت في ارتداء ملابسي، اقترب من الباب ورنا إلى الخارج مسترقا النظر ثم ارتد واقفا في وسط الغرفة شاداً على الماندولينا بقوة أعظم وقال :

– أتدري يا سنيور. ؟ إنه قد تأتي أمي لغرفتك .

– وأي بأس في ذلك ؟

– إني أتهرب منها لانها تريد كسر الماندولينا والقائها طعما للنار.

– ولماذا ؟

– كنت أعزف طيلة الليل فارقت ولم تنم البارحة .

وحكى لي ان حفلة البارحة كانت مهداة إلى فرقة موسيقى الأوبرا حيث ذهب جميع الموسيقيين لتناول العشاء في الفندق بعد انتهاء الحفل، وان رئيس الفرقة قد دعاه لتلك الوليمة. وأثناء العشاء عزف أحدهم على الكمان لحنا رائعاً يدعى بـ «شريد مدريد» .

– كان ذلك اللحن يرن كالجرس في أذني فشعرت بحاجة ملحة لحفظه وعزفه في ذات الليلة والأنسيته.

–وهل تعلمته ؟

– نعم .

– أتعزفه لي ؟

كان ليون صريحا بطبعه لا يجيد اللف والدوران ويعالج الأمور ببساطة. لقد استمعت مراراً لما يعزف وما

دريت أكان يجيد العزف أم لا، ولكني شعرت بأنه يثير أشجان النفس ويذكي إحساس المستمعين إليه .

وجلس على الكرسي محتضنا ماندولينته حيث كانت أشعة الشمس الليمونية تتسرب إلى غرفتي صباحا ، فتحول نظر ليون اليها بدافع خفي أشبه بالقوة المغناطيسية. آواه لتلك العيون الحالمة ولذلك الوجه الوديع.. لقد مرت سنتان وستمر السنون ولكن ذلك اليوم سيظل شعلة وقادة في ذاكرتي ما حييت.

ما اللحن الذي عزفه ليون؟ ذلك مالا أدريه. ولكني لن أنسى مانسيت ذلك الأثر الذي تركه في نفسي. كنت متحجراً وسط غرفتي كمن أصابته قوة سحرية من وقع الأحاسيس العارمة. لقد خيل لي ان الافراح والاتراح العاصفة والهادئة قد اختلطت في لحن «شريد مدريد». لعل ذلك اللحن بركانا لقلب ذلك الشعب الناري الشجاع وتجسيداً لتلك العبقرية المجهولة بالنسبة لي، ولكن أكثر ما يهمني في تلك الحالة هو العازف نفسه. لقد أحسست ان وجود الفتى الواقعي المادي قد غاب عني ولم أعد أرى سوى ظله. فهو لم يكن يشعربوجودي، لأنه كان مأخوذاً ومسحوراً بأنغامه الحلوة لدرجة لم تعد فيها أعصابه تشعر بهذا العالم المادي، بل ان روحه قد ذابت كلية في أجواء اللحن المعزوف وارتقت إلى عالم بعيد مجهول.. عالم الأرواح الخيرة الساحر.

وبعد انهاء العزف ظل ليون صامتا ساكتا لدقائق معدودة، ورانيا إلى شعاع الشمس الذي بدأ يتلون بالوانه الطبيعية الخلابة. ولم أتمالك نفسي فصحت مشجعاً :

- مرحى لك يا ليون ، مرحى لك ...

ولكنه لم يعرني سمعا فقد كانت شفتاه الرقيقتين ترتعشان رعشة ملحوظة مع إنهما كانتا مطبقتين دائماً. وفجأة وهنت يداه ومال رأسه الصغير على كتفه وزلّت الماندولينا عن صدره متدلية تدليا هادئاً إلى ركبتيه النحيلتين . وعندها لحظت الدموع الرقراقة في عينيه

الرانيتين إلى شعاع الشمس، فناديته مؤاسيا وسألته :

– علام تبكي يا صغيري؟

فانتفض من مكانه وهب واقفاً ثم أبعد شعره الكثيف عن جبهته وخاطبني بلهجة غريبة فقال :

– لقد اخبرني عازف الكمان بأن شريد مدريد كان بائساً تعساً غنى في الليالي القارسة تحت نافذة فتاة الغراند باكيا ملتاعاً. أما والده فقد علق نفسه من الشجرة واختنق خلاصاً من بؤسه ويأسه .

لم اع يومئذ حقيقة الكآبة المستترة خلف كلماته وخيل لي انه كان يهذي ، لأنه كان في حالة هذيان حقيقي، ولكن لماذا، ومماذا ؟ وبعد ان ارتد إليه وعيه قال هاذيا :

– آه .. العفو .. إني .. أرق .. لا أدري ..

– أجل يا ليون، أنت نعسان فاسترح في غرفتي ان شئت.

– أشكر لطفك يا سنيور، ولكن اسمح لي بابقاء الماندولينا عندك والارمتها أمي طعماً للنار. لقد رمت البارحة غيتاري وبعض صوري إلى الشارع .

فهتفت من أعماق نفسي وقد اغتظت جدا لأعمال الأرملة الفظة :

– ان أمك شريرة يا ليون .

فاغتم ليون كثيراً وشرع يدافع عنها بأنها ليست شريرة وإنما طيبة ووديعة. فهي تحب ليون جدا وهو يشعر بقبلاتها أثناء نومه. أنها تحبه محاولة اخفاء حقيقة مشاعرها نحوه لئلا يتدلل فيشقى في حياته أكثر وأكثر. وهنا سألته مستفسراً :

– ولكن هل أنت شقي أو فاسد ؟

– لست أدري يا سنيور.. أمي تقول : من يعصي أوامر أهله فهو فاسد وفاجر.

فعمدت لاختباره قائلاً :

– ولما لا تنفذ ارادة أمك ؟

فرماني بنظرة كآبية دون ان يحري جواباً وقرأت في دخيلته كم سيكون ليون ضعيفا عندما يكون منفذاً لمشيئة أمه العمياء. ولم يداخلني أي شك في انه مستعد للتنازل عن جميع ملذات الدنيا على ان يتخلى عن المسرح .

قصيت على طاولة الغداء مزاجه الغريب هذا فكانت لويزا تصيخ السمع وقد أثار لحن «شريد مدريد» ارتباكها، اما كافاللارو فقد ابتسم ابتسامة ذات معنى وحرك رأسه حركة تقريعية عندما كان يحدق في عيني لويزا. وعلق الطالب الروسي بأن ليون مخلوق شاذ وعليل النفس لحد ما اذ لا انسجام ولا تناسق فيما بين سنه ومشاعره ومن ان عقله يتطور على هواه. فاثارت هذه الملاحظة حفيظة كافاللارو الذي انبرى لانتقاد الطالب الروسي من غير ان يرعى حرمة قواعد اللغة الروسية فقال :

– عليل النفس .. ؟ عجباً لهذه الحياة ، فالناس يتعمقون في دراسة العلوم كي يتهموا عباقرة وافذاذ البشر بالجنون والعتوه. كلا يا سادة يا كرام ، ان أصحاء العقل هم من أمثال ليون ونظرائه ولكنهم أناس أشقياء تعساءيا حضرة الطالب، فهل فهمتني؟ انهم البؤساء الذين لم يخلقوا في أوقات وأماكن مؤاتية لكي يستفيدوا ويفيدوا من عبقريتهم. أما أمثالك من العلماء فلا يتركون سانحة الا واستخدموها في الحكم على الناس بدون ترو وتدقيق، بدلا من ان تمدوا يد العون والمساعدة اليهم فتخلصون الجواهر من اوحال الشارع. واأسفاه على ليون .

وتابع كافاللارو حديثه راثياً فقال :

– انه يذوب ويحترق كالشمع من يوم لاخر، وجسده النحيف لا يتحمل نكد العيش . فهو لا يكاد يأوى إلى فراشه في الليل حتى يغادره بأسرع ما يمكن إلى شباك التذاكر حيث يحصل بعض الكوبيكات، التي يخص القسم الأعظم منها

في سبيل الانفاق على المسرح. ففي الغد ستقام حفلة تكريم عظيمة لمطربته المفضلة باربيني وأنا على اقتناع تام بأنه سيبذل قصارى جهده كي تأتي التظاهرة على أروع وأجمل شكل.

في الليلة التالية كنت جالسا مع عائلة صديقي في إحدى مقصورات المسرح حيث سرحت النظر في البلكون. وبعد جهد جهيد تمكنت من تمييز ليون بين الرؤوس الكثيرة. كان متكئاً على الحاجز، واضعاً رأسه بين كفيه وهو يرنو إلى خشبة المسرح، وقد جلس على جانبيه كل من الشاعر تشاوشينكو وايتسكو مارغوليس . وسرعان ما ظهرت المطربة باربيني فرفع ليون رأسه مرسلا تصفيقه الحاد ثم قلده تشاوشينكو ومارغوليس ومن بعدهما كل من كان في البلكون. وفي ذات اللحظة رمت عشرات الأيدي باقات الزهور الحمراء والبيضاء وقصاصات الورق الرقيقة المتعددة الالوان التي هطلت كالغيث الهتون، فانسحرت الصالة رغماً عنها وهزت المسرح موجة عارمة من التصفيق الحاد دامت أكثر من خمس دقائق . فأخذت المطربة قطرة من الوابل المنهمر - زهرة - وضمتها إلى قلبها وهي تنحني إلى اليمين والشمال ثم ارسلت نظراتها الى البلكون موزعة قبلاتها الهوائية على عشاق فنها، فاشتعل الجمهور حماسا واندفاعا وزاد من حدة التصفيق والهتاف لمطربتهم الكريمة .

كان ليون قاذفا بدنه خارج الحاجز وكانه يود السقوط مع تلك الأزاهير تحت قدمي الفنانة وان يكون قربانا حيا للفن.

وانقضت الوصلة الأولى والثانية والثالثة وحماس ليون يزداد طردا مع نجاح المطربة، فكان يصفق رافعا يديه فوق رأسه وهو يهتف بأعلى صوته «افيفا برافا، برافي سيما».

ومع حلول موعد الانتهاء من الوصلة الأخيرة اختفى ليون وتشاوشينكو ومارغوليص عن ناظري. وبعد ان خرجت

مع الجمهور المتزاحم رأيت ما يلي: كان حوالي ثلاثين أو أربعين شرطيا قد تحلقوا وهم غارقين في لجة من انوار المصابيح. وكان الخارجون من المسرح يتجمعون خلف دائرتهم، بينما رابط أكثر من مائة طالب جامعي حول أحد جانبي المدخل وانتظم صفان من الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة حول الجانب الآخر للمدخل. وكان تشاوشينكو البالغ الوحيد بينهم ممسكا بورقة ما في يده .

كان عشرة من الشبان الجامعيين يحملون أكاليل الزهور أما شبان الصفين فقد أمسكوا بمشاعل كبيرة. كان المنظرشيقاً وجميلاً وايقنت ان ليون لا بد وان يكون قد لعب فيه دوراً بارزاً .انتحيت جانبا وشرعت افتش عن ليون ببصري ، اذ ان العثور عليه ليس امراً عسيراً. كان يرئس أحد الصفين ويمسك مشعلاً طويلاً. ألا يشعر هذا الفتي بهذا البرد القارس حتى انه لم يرتد لا معطفا ولا جاكتة ولم ينتعل جرموقا؟ لعله لم يشعر ببرودة الجو اطلاقا؟ لقد كان مسحوراً وسعيداً بالدور السامي الذي يؤديه حفاظاً على انضباط صف الشبان. وكانت السنة اللهب الصادرة عن المشاعل تبدو خافتة شاحبة أمام أنوار المصابيح الكهربائية التي كانت أشبه بضوء النجوم الساطعة في الليلة الليلاء.

كان وجه ليون النحيف قد تلون بلون بنفسجي فاتح يذكرنا بلوحة غريبة ابدعتها ريشة عابثة لفنان من ممثلي الفن المنحط. وكانت عيناه تلمعان كالفولاذ المصقول على وجهه العليل. أما جسده الغارق في الانوار الكهربائية الساطعة فلم يترك له ظلا على الأرض، لا بل ان جسده كان ظلا بحد ذاته. وعندما كان يتكلم، حتى ولو من بعيد، كان يخيل لي انه يتحدث بكل جوارجه ونياط قلبه. طبعا لم يكن صوته يتناهى إلى مسمعي، ولكني مستعد للرهان بأن صوته كان متواترا مهزوزامن جراء المتعة النفسية والسعادة اللامتناهية.

عندما خرجت المطربة محاطة بجمهور المعجبين هتف ايتسكو مارغوليس: هوراه. فتقدم تشاوشينكومن المطربة مقدما لها قصيدته العصماء التي اجترحها تكريماً واحتفاء بها.

وطيرّ ليون قبعته في الهواء فارتمت خصلتان من شعره الكثيف على جبهته الرقيقة. وقلده جميع الشبان في الفرقة، بينما بدا تشاوشينكو برأسه الضيق الطويل وشعره المرسل الخفيف ودوت هتافات الشباب الشبيهين بالعراة تشق عنان السماء: «برافا، برافي سيما» ولعنت في سري تلك المطربة السعيدة التي - وربما رغما عنها- سلبت عقول شبان في ريعان الصبا، معرضة حياتهم وربما أرواحهم للخطر. وتساءلت : هل الفن ضعيف في أوج قمته حتى يجبر البراءة على الركوع أمامه .

لدى اقتراب المطربة من العربة الفاخرة الواقفة أمام المسرح امتدت الأيدي لاطلاق عنان الخيول المطهمة. وخمنت ان ليون هو السبب في كل ذلك فلعنت صديقي في قرارة نفسي. ولكن لا، لقد أخطأت التقدير فليون كان بعيداً جداً عن المنجرفين في ذلك التيار الخضم الذي وصلت فيه حماقات الجامعيين لدرجة عظيمة من العشوائية .

كانت فرقة ليون تحمل المشاعل مرافقة العربة على اليمين والشمال. وكانت المطربة تتقبل باقات الورد من الجامعيين فتفرطها وترش أوراقها على الشبان الولهين وتكافىء الطلبة بقبلات حارة مرسلة على الهواء .

اخترقت الحشد بصعوبة بالغة كي أصل لصديقي الذي تنهد قائلاً :

- أنت هنا أيضاً ؟ هل استمعت إليها ؟

- أجل ياليون لقد اجادت الغناء ... ولكن ماذا يفعل هؤلاء الطلبة ؟ اتروقك هذه التظاهرة ؟

فرد ايتسكو صائحاً :

-نحن لسنا حيوانات .

وصاح تشاوشينكو منفعلا :

- بلى يا ناس، نحن بشر.. كفوا عن سلوككم القبيح أيها الطلبة الأكارم .. العار، ثم العار وعلق ليون قائلاً :

- حذار، حذار.. انها تستنكر وتسستهجن سلوككم.. ها هي ترغب في النزول من العربة .. هيه .. أنت يا فيتا وبيترو وميرغيل وخايس اطفئوا مشاعلكم. مهلا يا ناس، انها تغادر العربة.. نزلت.. انهم يلجمون الخيول.. كارسيما.. عاشت باربيني: (افيفا، برافا، برافي سيما) .

رفع ليون مشعله عاليا وهتف باعلى صوته محييا ثم توارى مع صديقيه بين الحشد المتلاطم، بينما لوح تشاوشينكو بمعطفه الممزق كشراع في مهب الريح .

قفلت راجعا إلى البيت وقد أثقلني الصراخ والضجيج فارتميت على سريري ونمت دون ان أدري. وفي منامي زارني والد ليون : ذلك الحلاق البائس الذي ارتمى أمام مدخل المسرح ثملا باسماله البالية بينما شرع المارة يسخرون من حبه اليائس ، الذي انبثق فيه -كما اعتقد- من خلال حبه للفن ذاته . هكذا كنت أتصور الحلاق على الدوام وهكذا رأيته في منامي...

بعد استيقاظي أحسست بحاجة ملحة لرؤية ليون فسارعت إلى بيته ولكني لم أجده، بل قابلت أمه وقد خنقتها العبرات. ونشأت المسكينة تتذمر، بأنه عاد إلى البيت في الثالثة صباحا ليغادره مع انبلاج الفجرثم توسلت إلي قائلة:

- حبا بالله يا سيدي .. ارشده وأهديه سواء السبيل، فهو يحبك ويحترمك جدا وسيمتثل لكلامك. انه يسير على هدي والده ولسوف ينذر نفسه للشراب والعربدة طائفاً في الأزقة كالكلاب الغرثة.

- لن يفعل ذلك ، انه لبيب .

– وهل تظن يا سيدي ان والده كان غبياً ؟ كلا والف كلا.. لقد كان نبيها فسلبوا لبه وسودوا أيامي. لقد حرموني من زوجي ولا أرغب في تجريدي من ابني الوحيد.. فساعدني يا سيدي، أنا أم تتعذب فهل تفهم حقيقة شعوري؟

أجل كنت أدرك أنها أم تحب ابنها وتتعذب في سبيله فاشاركها في الأمها وأعطف عليها ، ولكني ما كنت أطيق شكاواها الدائمة واهتماهها المفرط بابنها إلى حد الأثرة والأنانية.

صعدت بعد الظهر أيضاً فرأيت ليون نائماً ولاحظت حمرة غير عادية تكتنف خديه الهزيلين، يبدو ان البرد القارس قد نال منه ليلة البارحة. وأمسكت معصمه وجسست نبضه فكان سريعاً. انه مريض طبعاً ولكنه ما اهتم للأمر، بل انه اغتنم فرصة غياب أمه عن الغرفة فبادر لاخباري بسبب فرحته حين اخرج صورة من تحت وسادته وقال:

– هل تعرفها ؟

كانت صورة مطربة الأمس السعيدة .

وقرأت على الصورة الكلمات التالية : إلى عزيزي الفنان.

وسأل ليون نفسه قائلاً :

– لست أدري لماذا يدعونني الناس فناناً ؟ لقد زرتها اليوم لاقدم لها تهانيي بالنجاح الذي احرزته بالأمس، فاهديتها باقة زهور شذية. ودعتني إلى الداخل حيث شربنا القهوة وتحدثنا طويلاً. وحين سألتني عن مرتبي كذبت عليها مدعيا ان والدي قد ترك لي ثروة عظيمة، لأني كنت أخشى ان تعرض مالا علي ان هي درت بفقري. ثم اهدتني رسمها فقبلت يدها وقبلت جبيني. اوه يا سنيور، ان لدى الكثير من أمثال هذه الهدايا في ذلك الالبوم..

كان الفنان سعيداً وفخوراً جداً بهذا الثواب ولذا تابع كلامه قائلاً:

– عندي صورة لا احتفظ بها في هذا الالبوم، لأن أمي تهددني باحراق كل صوري وأخشى ان تحرق معها تلك الصورة أيضاً .. سأريك إياها الآن...

نهض ليون من فراشه ماداً يده إلى سترته واخرج منها مظروفافيه رسم حبيب على قلبه. وقرأت على الصورة الإهداء التالي : «إلى عابد المستقبل من لويزا».

– أوه يا سنيور، سأكون عابد المستقبل حقا وحقيقة، فلويزا لها مستقبل عظيم جديربها وستقنعك الأيام بذلك يا سنيور... يا لله ما هذا ؟ ان رأسي يدور، سأرقد قليلاً ...

عندما ولجت السيدة الماست ـ والدة ليون ـ الغرفة نصحتها باستدعاء الطبيب. وللحال رفع ليون رأسه وجلس في فراشه.. أي طبيب؟ من المريض؟ ما من داع للدكتور... وفهمت ما كان يرمي إليه: كان يخشى ان يمنعه الطبيب من مغادرة البيت.

وفي السابعة مساء طلعت ثالثة فلم اجده. واخبرتني السيدة الماست انه ارتدي ثيابه وانسلّ هاربا من البيت لحظة مغادرتي إياه. يا له من فتى غبي يعرض حياته للخطر. وسرعان ما قذفت بنفسي إلى الشارع بحثاً عنه، فتأكدت انه سيكون عند المسرح . وبالفعل قابلته هناك يعرض على المارة برنامج استعراض اليوم صائحاً بأعلى صوته:

– برنامج اليوم يا سادة يا كرام .

كان الناس يمرون دون ان يعيرونه ادنى التفاتة، بل ان البعض كان يعنفه قائلاً : اغرب عنا، سحقاً لك يا هذا. وكانت روح ليون الفخورة تتقبل هذه الاهانات باناة وصبر ظاهرين ونظرت إلى وجهه المكمد فانفطر قلبي دما، وقلت له:

– بدار إلى البيت فأنت مريض حقاً ...

– من قال إني مريض؟ آه ، أمي؟ انها رعابة دوما تتخيل نفسها مريضة أو تظن إني المريض. كلا يا سيدي، هناك عرض جديد في الأوبرا فانى لي الذهاب إلى البيت؟ ان

الأوبرا خير منزل لي وأشار إلى المسرح وانصرف ضاحكا وانا اسمع صوته من بعيد :

– برنامج يا سيد .. برنامج اوبرا جديدة وشيقة.. برنامج بعشرة كوبيكات ...

وصعدت اليه صباح الغد فرأيته نائماً في فراشه. واسرعت لاستدعاء طبيب كان يعيش في نفس الدار. جاء الطبيب وعاينه ثم كتب له بعض الدواء. واستطعنا الاحتفاظ به في البيت بشق الأنفس . وفي مساء اليوم التالي اجهش بالبكاء والعويل حين منعناه من الخروج إلى المسرح ولحسن الحظ انخفضت حرارته في اليوم الثالث .

انقضى فصل الشتاء. وفي اليوم الأول من أيام الصوم الكبير عاد جيراني الفنانون إلى وطنهم ، فكان يوما حزينا وكئيباً ليس بالنسبة لليون فقط، بل ولي أيضاً، لأني اعتدت جيراني واحببتهم كثيراً .

شيعنا أصدقائنا الإيطاليين إلى المحطة. وعند الوداع قبل كافاللارو ليون ثلاث قبلات أخوية. وفي ذات اليوم بالذات اخبرتني لويزا بأنها تزمع السفر إلى أيطاليا بعد شهر من الزمان. كان الأمر منتهيا، فالسنيورة ستيفانيا ممتثلة لفكرة فراق ابنتها منذ أمد بعيد .

عندما أخبرت ليون بنبأ سفر لويزا المرتقب خيل لي ان ذلك لم يؤثر فيه تأثيراً بليغاً. لعل السبب في ذلك أن ليون كان سوداوي المزاج في تلك الآونة ، حين أغلقت المسارح عامة أيام الصوم الكبير . كان ليون يزوريومياً الحديقة الجميلة المحيطة بالمسرح، فيجلس هناك رانيا إلى البناء الضخم ثم يقفل راجعاً إلى البيت منكس الرأس . من يدري حقيقة الهواجس والأفكار التي كانت تعتمل في رأسه؟ فها هو يصلح الغيتار الذي رمته أمه إلى الشارع ويشرع في العزف عليه. كان يزورني بين الحين والآخر ليعزف على الماندولينة بناء على رجائي، وفي احدى المرات طلبت إليه ان يعزف لحن «شريد مدريد» فاعتذر عن ذلك .

وجاءت الدراما لتحل محل الأوبرا وبدأت المسرحيات في الأحد الأول من الصوم الكبير. وعاد ليون إلى عمله السابق ولكن بحماس أقل، خصوصا وانه يحب الأوبرا أكثر من الدراما التي تمثلها فرق أقل قدرة وأهلية مما في الأوبرا.

تملك الفنان اهتمام جديد اثار في الرعب والخوف. لقد كان يأتيني يومياً ليعزف «شريد مدريد». وفي احدى المرات، قطع اللحن وانصرف سراعا إلى لويزا حيث تحادثا طويلاً عن رحلتها إلى ايطاليا. كانت لويزا الطيبة الوديعة لا تمل استفساراته وتساؤلاته التي كان يغدقها عليها لأنها كانت تحب الحديث عن مستقبلها الفني كثيراً .

وذات مرة لفتت رئيسة انتباهي قائلة :

- هل تدري انه هائم في حب لويزا ؟ نعم يا سيدي، اقسم بالله انه يعشقها لدرجة الجنون !

فاجبتها :

-حذار يا آنسة من ان يسمع ليون فيزعل ويفتم .

تذكرت مصير الحلاق المسكين وتملكتني رهبة هائلة من قدر ابنه أيضاً. وحمدت الله لكون الملتفين حول لويزا أكثر تعقلاً وتبصراً من الوسط الذي عاشت فيه تلك المطربة التي ولع الحلاق بها. وقطعت رئيسة وعدا بأنها لن تعود للحديث عن مشاعر ليون المقدسة ثانية ...

وأخيراً، حل ميعاد سفر الآنسة. كان ليون فرحاً جذلا طوال الأسبوع الأخير وخيل لنا إنه هو الذي سيقوم بتلك الرحلة: فيغدو ويروح، ويفرح ويمرح، ولا يدخر وسعاً لكسب ود لويزا. وفي عشية السفر ابرزت لي لويزا ريشة فضية وقالت:

- يالجنون مواطنك ، اليس سعرها أكثر من اجرة اسبوعية باكملها ؟

- لقد اهداك الريشة لتكتبي له رسائلك بها .

- أجل سأكتب له ولكني رجوته ان يسترد هديته فانكرب وكاد يبكي.

كان القطارسيتحرك في العاشرة صباحاً. ذهب كل من يسكن عند السنيورة ستيفانيا لوداع لويزا في المحطة. وظننت ان ليون سيسبق الجميع ولكن خاب ظني. ذلك أمر غير معقول، ترى، ما الذي اعاقه عن رؤية لويزا لآخر مرة؟!

اعلمتني السنيورة ستيفانيا بأنها استلمت رسالة شكر وامتنان من كافاللارو، طمأنها فيها بأنه سيهتم بأمر لويزا فيرعى أولى خطواتها في ايطاليا. ثم اشرق وجهها فرحاً وبشراً حين أضافت قائلة :

- انه انسان أمين ونزيه جداً ولسوف يرعى لويزا كأخ حقيقي، ولولا ذلك لما سمحت لها بالذهاب لإيطاليا ...

لم يسبق لي ان رأيت لويزا مغبوطة مسرورة كذلك اليوم، على الرغم من أنها بكت مرتين لفراق أمها ريثما وصلنا إلى المحطة. لم تكن قادرة على الاستقرار في مكانها، بل كانت تثب فرحة مرحة كفتاة في ربيعها السابع حين تترقب موعد حلول السفر. كانت تلاطفنا وتداعبنا جميعا ووعدتنا بالمراسلة كل على حدة. كانت غارقة في آمال المستقبل الحلوة، فهي ستعود بعد عامين وقد صقلت صوتها لتغني في الأوبرا. ولم تكن تخفي عنا اثرتها لعشاق ومحبي فنها. وحينئذ مرت بذهني خاطرة تقول:

- وليون ، ألا تفكرين به ؟ !

وفجأة سألت لويزا وكأنها خمنت تساؤلي، فقالت :

- ولكن أين ليون ؟ آه .. فهمت سبب تأخره، لقد لمحته في حانوت الأزهار. ان قلب ليون واسع وعميق كالمحيط.. هو ذا أترون ما يجلبه لي ؟ ألم أقل لكم ؟ يا له من عنيد !

شق ليون الجمهور المحتشد ووصل الينا لاهثا والعرق يتصبب منه لكثرة ما ركض. ثم توجه مباشرة إلى لويزا فرفع قبعته محييا بايماءة من رأسه وقدم اليها باقة الزهور.

لشد ما أصبحت عليما بطبع ليون ولذا خشيت جداً من تأنيب لويزا له. فلو ان الآنسة لمحت، ولو من طرف خفي، إلى ان هديته ثمينة ولا تتفق مع جيب ليون الفقيرة، لأهانت كرامته أيما إهانة. ولكنها كانت رقيقة ولطيفة جدا عندما تفهمت نفسية ليون، فشكرته باسمة وشرعت تشم الباقة وتطري فعلته لدرجة اجبرت وجنتي ليون على الإحمرار حياء وخجلا.

لكن رئيسة لم تكن عالمة بدنيا القلوب الدافئة حين سألت :

- هل سيستقبلك كافاللارو أثناء وصولك لميلانو؟

فردت السنيورة سبتيفانيا قائلة :

- طبعاً .

وعندها سأل ليون بصوت كئيب مهزوز :

- وهل هو هناك ؟

فاجابته السنيورة ستيفانيا بمتعة خالصة :

- كلا، ولكنه سيأتي إلى ميلانو لاستقبال لويزا خصيصاً.

وللحال اختفت تلك النشوة الروحية التي سببتها ابتسامة لويزا للفتى وحلت مكانها شهوة الغيرة والحقد الباطنيتين، ولكن ليون - كمعظم الرجال الأقوياء - قادر على ضبط نفسه في هذه اللحظات الحرجة فأضاف قائلاً :

- ذلك حسن جداً فالسنيور كافاللارو سيساعد لويزا في غربتها.

طفقت لويزا في وداعها الأخير بعد سماع الجرس الثاني. ففعلت أكثر مما كان متوقعا من أنسة ساذجة بسيطة بريئة من الشكوك ومتحررة من الخرافات وتعاملات المجتمع. فبعد ان تخلصت من حجر أمها توجهت إلى ليون أولا، فسلمت عليه وعانقته عناقاً أخوياً بريئاً. ثم شدت على أيدينا

بسرعة واعتلت القاطرة وباقة الزهور لم تبارح يدها.

كنت أعرف طبع ليون حق المعرفة. فهو قد تمسمر حيث استحق قبلة الوداع من لويزا ونشأ يحدق في النافذة التي ستطل لويزا منها، فامسكته من ذراعه وابعدته غريزيا عن القاطرة. وبعد هنيهة من الزمان بدت لويزا بطلعتها البهية السارة وأخذت ترسل لنا قبلاتها الهوائية. ثم سمع الجرس الثالث، فتحرك القطار تحركا هادئاً أشبه بسفينة سابحة في اليم. وعندها فقط، ارتد وعي ليون إليه فرفع قبعته صائحاً بالإيطالية:

- مع السلامة.. إلى اللقاء قريبا...

ركبنا العربة سويا فلم ينبس ليون بكلمة واحدة طوال الطريق. وسكت بدوري كي لا أقطع عليه حبل أفكاره. لقد بدا لي انه سعيد وشقي من قبلة لويزا، وعلى كل حال، ما دريت كنه الأفكار والخواطر التي تعتمل في قرارة نفسه، وكل ما تمكنت من تكهنه انه ليس في وضع عادي .

دعوته لغرفتي ولكنه اعتذر وغاب عن بصري صاعدا إلى الطابق الخامس. ومر أسبوع ونيف لم أره فيه، فهو لم يكن يزورني بتاتا بينما زرته مراراً دون أن أجد سوى أمه التي كانت تقول لي:

- انه يدلف الغرفة في آخر الليل عندما أكون نائمة ويغادرها مع الفجر حين أكون نائمة أيضاً. ولكنه ابن بار، فهو يترك لي خمسين كوبيكا على الطاولة كمنة علي.. فسحقا له ولحسنته ...

فصرخت في وجهها غاضباً وقد طفح كيل صبري من شكاوى الأرملة التي لا تنتهي :

- انه يمنحك مصروفك يا سيدة فماذا تريدين منه أكثر من ذلك ؟ !

ورمقتني المرأة المسكينة مصعوقة ثم ارتدت خطوة إلى وراء. يبدو إني كنت محتداً جداً أو انها لم تكن تتوقع مني

هذه الفظاظة. فندمت على فعلتي متسائلاً : « اليست هي تعسة كما تدعي »؟ ولطفت من لهجتي سائلاً :

– ألم تساليه أين يذهب كل يوم ؟

– استفسرته كثيراً ولكنه لا يحري جوابا. انه يأخذ الغيتار معه، ولكني سأعرف أين يقصد ولن ادعه يضيع مثل أبيه.

الغريب في الأمر إني لم اك القاه في أرجاء المسرح .

وتطرقت الكآبة والحزن إلى نفسي لغيابه عني ولخلو دار السنيورة ستيفانيا من الأنس والفرح والمرح. فقد غاب صوت لويزا الرخيم وضحكتها الرنانة المجلجلة في ارجاء البيت. وارجعت السنيورة ستيفانيا البيان إلى صالون الموسيقا غداة سفر لويزا كي لا تدفع اجرته الشهرية أكثر من ذلك. واقفرت الدار من العازف والمغني والمضحك والمهرج. وكانت رئيسة والطالب الروسي قد تآلفا وتحابا وهما منشغلين بالفتهما وتقاربهما، فما أن ينتهيا من الطعام حتى يسارعا إلى غرفة أحديهما .

كنت مستعداً لتبديل غرفتي من كل قلبي لولا تقديري لوضع ستيفانيا المادي، خصوصا وان معظم غرفها بات شاغراً، فازيد الطين بلة ان تركت غرفتي أيضاً .

بعد تناول الغداء ذهبت في احدى المرات إلى المنتزه العام حيث يرى الناظر أخذ أروع وأجمل مناظر مدينة أوديسا. فعلى ارتفاع أكثر من مئتين متر عن سطح البحر يتراءى لك الميناء والخليج مع الأف السفن الباخرة والراسية. ولكني اعتدت هذا المنظر الرائع فبات عاديا ومالوفا بالنسبة لي. وأصخت السمع إلى الإنغام الموسيقية المنبعثة من المنتزه وأنا جالس على أحد مقاعده فتساءلت في سري: «ترى، أين هو الآن ؟ » وظل تساؤلي دائراً في فراغ الضياع حتى سمعت صوتا مسلولا واهنا يقول لي :

– بونجور مسيو .

رفعت رأسي واذ بي أمام تشاوشينكو ومارغوليس فاستبشرت خيراً وشددت على أيديهما وأنا الحف في السؤال عن ليون :

فرفع تشاوشينكو هراوته من ثنايا معطفه مشيراً إلى الميناء ثم قال بلهجة درامية :

- إنه هناك .

فقال ايتسكو :

- تشاوشينكو .. لماذا شكلك تراجيدي في هذا اليوم ؟

- لأن مأساة الحياة تتحقق ها هناك يا صديقي العزيز. فالناس تشقى وتموت في الظلام . هيا بنا يا ايتسكو، فتشاوشينكو ليس من الشعراء الاريستوقراطيين الذين يخافون العوام . ان لم تطالع مكسيم غوركي فبادر لقراءة أفكار تشاوشينكو . لقد خبرت عالم المطابع والرصاص أكثر من ثماني سنوات والآن يجب على اختبار عوالم الميناء .

ثم التفت إلي قائلاً :

- هلم بنا يا سيدي فأنت كاتب أيضاً .. لا تخجل .

- لنذهب حيثما تريدان شرط ان ألقى ليون .

- سيقودنا ايتسكو لأنه وليد الظلام . فأمه كانت تجمع الحديد والأسمال وهو عارف بالنور والد يجور في هذا العالم المجهول كما يعرف كفه .

فرد عليه ايتسكو ضاربا الكراريس من يده وقال :

- وأنت ستنير عالم الدجنة بكراريسك هذه . كم نسخة بعت اليوم ؟ عشر نسخ ؟ هون عليك فسنبيعها كلها .. أيه.. تشيمبا ـ تشيمبا ، تشيلالا .. تشاوشينكو ، تشيلالا .

ثم رفع رجله اليسرى وحجل على اليمنى ثم هرول راكضاً.

يتصل ميناء أوديسا بالمدينة بواسطة درج حجري ضخم

ينتصب في اعلاه وفي وسط البولفار نصب مؤسس المدينة ريشيلي، وفي أسفله شيدت كنيسة صغيرة لاجل سكان الميناء. نزلنا ذلك الدرج ودخلنا شارعا عريضاً ملتويا انتهى بنا إلى الشاطىء.وعلى طول الميناء كان ينتصب جسر «القنطرة» الذي تمر فوقه قطارات الشحن التي تزعق مصفرة ليلاً ونهاراً. وفي أسفله تغدو وتروح عربات الجر والبحارة والعمال. انها منطقة صاخبة مضجة ومركز بحري وبري تعمه الضوضاء .

فدخان البواخر الكثيف المتصاعد إلى السماء كالغيوم الداكنة، وأصوات البحارة الخشنة، وضجيج الجسر الذي يرزح تحت ضربات القطارات، وهباب الفحم الحجري المتراكم في المحطات... كل ذلك يثير في النفس انطباعا سيئاً وكريها على الإنسان الغريب عن هذه المنطقة .

قادنا ايتسكو مارغوليس إلى شارع يغطيه هباء الفحم الحجري. وبعد ان قطعنا مئتي خطوة عن الكنيسة بدا على يميننا حي مليء بالخمارات ومشارب الشاي وحانات من الدرجة الدنيا، حيث يعيش معظم سكان الميناء. وكانت تتناهى إلى أسماعنا ألحان الهارمونيكا والبالالايكا البائسة والأغاني والصياح والزعيق والبعيق والشتائم والسباب. في تلك الحانات كان من يملك الوقت والمال يمضي أيامه في المأكل والمشرب، ممتعا نفسه بصداقة الحوريات الرخيصات. ومن كان لا يملك سوى ما يسد به رمقه، فقد كان يتردد على أكشاك «المونوبول» حيث يشتري قناني الشراب المختومة ثم يهرول إلى الشارع ليفرغ محتوياتها في بطنه، لأن القانون يمنع الشراب داخل أكشاك «المونوبول». وبناء عليه، فإن كان السكر عيبا في يوم من الأيام يتستر شاربوه في الخمارات والحانات فقد بات اليوم السيد الذي لا ينازع في شوارع اليوم . وها هم ضحاياه يتسكعون تحت جدران الأكشاك وعلى الأرصفة وفي وسط الشوارع معرضين أنفسهم لخطر الموت سحقاً تحت عجلات العربات والمركبات .

توقف ايتسكو أمام حانة كبيرة كتب على قارمتها «اليخت الملوكي» وقال :

- هو ذا ليون .. لقد كان يعزف في «المرساة الذهبية» في الأسبوع الفائت .

فصاح بي تشاوشينكو قائلاً :

- هه. هل تتردّد ؟ هل تخشى الدخول ؟ تشجّع ولا تخف شيئاً، فهم أناس مثلنا .

رفع تشاوشينكو هراوته ودخل مع ايتسكو الحانة بخطى مظفرة. كنت أنيقاً في ملبسي أكثر منهما فوجلت من ان يدعونني بالآغا؛ ولذلك رفعت قبة معطفي وأنزلت طرف قبعتي حتى عيني ، طمعا في اعتباري بائع تماثيل يوناني على أحسن تقدير.

كانت الحانة غاصة بالزبائن والجو مشحون بالدخان والغبار وبخار الطعام، فلم أتمكن من تمييز أي شيء لأول وهلة كما تعذر علي ان أفهم أي شي من أحاديثهم التي كانت خليطاً من الصياح والصخب، والشتائم والسباب. كان رهط من الزبائن متحلقا حول المقصف عند المدخل تماماً. وكان الحشد يتدافعنا من هنا وهناك ، وكان جسد تشاوشينكو الهزيل يتراقص تحت ضربات أكتاف البحارة مثل ريشة في مهب الريح ولكنه كان أحيانا يمد هراوته أمام تلك العوائق الجبارة ليدفعها عنه. بينما اخترق ايتسكو الزحام بمهارة الهرة، في حين عجزت أنا عن الإحتفاظ بأنفي وفمي في الهواء كي أقيها لطمات الأيدي والسواعد المتحركة بلا هدف .

عبرنا غرفتين قذرتين عاريتين جلس حول صفيها البحارة وعمال سكة الحديد. فرأتني امرأة خشماء محمرة الوجه مزرقة الالحاظ ونادت علي قائلة :

- تعال نرقص « الترياكا » معا ...

ما كدت انجو من يديها الممدودتين لاحتضاني حتى هزتشاوشينكو رأسه هزة فلسفية وقال :

- أين ريشك يا طائر ؟

فرد عليه ايتسكو ساخراً :

- لقد نتفته هرة العم سيدور .

كان العم سيدور صاحب «اليخت الملوكي» أما الهرة فهي النودكا.

وأخيراً ، خلصنا إلى حانة كبيرة أكثر أمانا بالمقارنة مع الأولى حيث بالكاد تمكنا من انقاذ ضلوعنا من القصم والهشم فرأينا عشرة من البحارة جالسين على طاولة مليئة بالأطباق الوسخة وفتات الخبز وفضلات الطعام وأعقاب السكائر والكؤوس الفارغة . وعندها أشار ايتسكو إلى طرف المائدة وقال :

- هو ذا الفنان .

كان ليون جالسا إلى الطاولة يعزف الغيتار ليرفه عن ندماء الطاولة . وكانت المرة الأولى التي أرى ليون فيها وسخاً، اذ كان دائماً ـ على الرغم من فقره ـ نظيف القميص والوجه واليدين لامع الحذاء ، بينما بات الآن شبيها بعمال المصانع .

لقد بهت لرؤيتي فارتبك واحمرت وجنتاه دون ان ينقطع عن العزف، لأن البحارة كانوا يصيخون السمع رغم انهم ثملون تماما. وكانوا يعبرون عن إعجابهم بالصراخ والهتاف ثم قام أحدهم واحتضنه مقبلا ، بينما نشأ آخر يربت على قفاه وهو يهتف :

- برافو يا ليون ، برافو .

واجلسنا تشاوشينكو إلى طاولة شاغرة بعد ان اوعز الينا بعدم عرقلة ليون والا هاج البحارة. فتذرعنا بزجاجة من الجعة ريثما ينتهي ليون من العزف. كان ليون يسرح النظر فينا ويبتسم لنا دائماً .لقد نحل عوده وذبل وجهه خلال هذه الأيام العشرة كما ولاحظت تشققا طفيفا في زوايا فمه.

نهض بحار عريض المنكبين ، طويل اللحية واقترب من ليون مترنحا راميا بيده الثقيلة على كتف ليون النحيلة وقال:

- هه.. أيها اليعسوب، هل ستعزف لي لحن «اوف يا حزني» أم لا ؟

فصاح به رفاقه قائلين :

- ارجع لمكانك يا دميم سيبريا ولا تعرقل ليون .

- لن اجلس ريثما اسمع «اوف ياحزني» .. أرجوك ياليون اعزفه لي ؟

فنوه احدهم قائلاً :

- يالك من أحمق .. فليون يعزف ما تطلبه بالضبط ، الا تسمع يا أيها الأمي ؟

- أما يكذب يا ليون ؟

وهّز ليون رأسه ايجابا وأفهمه ان ما يعزفه ليس إلا «اوف يا حزني» .

وعندئذ صرخ دميم سيبيريا قائلاً :

- يا لله ما أعظم عزفه .. إنك تمتعنا بأنغامك الساحرة.. هيا اعزف لنا لحن « حسناء الدون » .

وهنا نهض رجل عملاق واحتضن دميم سيبيريا ثم ـعه واجلسه في مقعده قائلاً :

- إليك حسناء الدون .

فزمجر دميم سيبيبيريا مهدداً :

- أيه .. أنت يا دب الفالوغا .. كيف تجاسرت ..؟ سأحطم براثنك ...

وهوى بقبضته على الطاولة محطماً الزجاجات والكؤوس فيما عم الصخب والصياح ، والهرج والمرج ، ولاحت القبضات المهددة في الفراغ . وكاد دميم سيبيريا ودب

الفالوغا ان يهشما رأسيهما لولا تدخل أحد مشائخ البحارة، الذي توسطهما وأصلح ذات البين بينهما وقد ساعده ليون في ذلك حين توقف عن العزف وهب واقفا ليقول :

- اسمحوا لي أيها السادة بالذهاب إلى «الخيرسونيين».

وللحال انفض النزاع وتحلق الجميع حول الفنان وهم يتوسلون اليه قائلين :

- كلا يا ليون .. يا حمامتنا الوديعة .. لا تفعل ذلك يا روحنا .. اعزف ما يحلو لك .

- وكيف اعزف يا سادة مادمتم تقاطعونني متعاركين «كالصعاليك» الجهلاء؟ وهل تليق فعلتكم النكراء ببحارة «الشركة الروسية» . ؟

فأجاب الشيخ قائلاً :

- طبعا لا يليق بنا .

- أم إنكم احضرتموني من عند «التيراسبوليين » لأشهد خصامكم ؟ كلا ، فأنتم لا تقدرون الموسيقى حق قدرها.

(«خيرسون» و «تيراسبول» اسمان لسفينتين يتسمى البحارة بهما) .

- نحن لسنا شذاذ آفاق .. سنقدرك وننصفك ياليون...

وصرخ دميم سيبيريا ممسكا بكيس نقوده ورماه في حضن ليون قائلاً :

هل يريد هذا اليعسوب مالا ؟ دونك كيسي ، فاخرس .

وردد الجميع مادين أيديهم إلى جيوبهم :

- ونحن سننقده أيضاً .

عندما رأى ايتسكو أكياس النقود تنهال على ليون طفق يصفق فرحاً ويقول :

- انظروا .. ان ليون سيصبح ثريا عما قريب .

فرد عليه تشاوشينكو الذي أسند مرفقيه على الطاولة وهو يرقب ما يجري :

– هيهات يا صاح !

التقط ليون الأكياس التي في حضنه ثم وضعها على الطاولة قائلاً :

– لن أخذ كوبيكا واحداً زيادة على اجرى. كل نمرة بعشرة كوبيكات دون زيادة أو نقصان. إليكم أكياسكم.. ضعوها في جيوبكم واعيروني سمعكم فها أنذا أعزف لكم...

عند ئذ صرخ تشاوشينكو صرخة حماسية جذبت إليه انتباه البحارة :

– مرحى لك يا ليون .. عافاك الله ، لقد بيضّت وجوهنا.

فهتف دميم سيبيريا قائلاً :

– ما هذه القطة ؟ أه .. انه قس . لا بل حاج .. شماس جاء يجمع الزكاة لمعبد يوكاغاما . تقدم يا صاح لندفع لك لأجل خلاص أرواحنا .

أخذ تشاوشينكو كراريسه عن الطاولة وتقدم نحو البحارة بخطى مزهوة ليقول :

– أنا لست قساولا عشارا وإنما مغنياً .

فردد بعضهم قائلاً :

– حسنا جدا ، ستغني لنا اذن . ؟

ورجاه دميم سيبيريا قائلا :

– غني لنا «أوف ياحزني» .

– وابليتاه ، أنا لست مطربا بصوتي وإنما بكلامي. فبادروا لشراء كراريسي. أراكم تعشقون الموسيقى ولا بد لكم من ان تهيموا بأختها.

فزعق دميم سيبيريا قائلاً :

- أين أختها ؟ هيا أعطني تلك الحسناء ...

وخطف أحد الكراريس فوضعه في طبق فارغ ثم سكب عليه عرقا وأشعل عود ثقابه قائلاً :

- لنر الآن كيف ستغني أختها .

لكن العرق لم يكن قوياً حتى يشتعل ، فصاح دميم سيبيريا :

- لقد نزعت مخالب القط يا عم سيدور.. خي خي خي.. فاحضر السبيرتو ...

فاهاب الشيخ به ناصحا :

- هه .. أنت يا دميم سيبيريا .. يبدو إنك ترغب في فضيحتنا اليوم . ان الكتاب قداسة وحرقه جريمة .. فهيا بنا نشتري نسخة لكل منا .

ابتاع البحارة نسخة نسخة من كتاب «ساعات الألم والشقاء» بينما أمسك دميم سيبيريا الهائج المائج قدح الفودكا وتقدم من المؤلف قائلاً :

- يبدو إنك تحب الفودكا فأشرب هذا القدح ...

لم يكن تشاوشينكو هاويا للشراب قط فدفع القدح بيده ثم قال :

- ابعد عني هذا السم الذي انتشر في الروسيا عامة...

فانقلب دميم سيبيريا على ليون قائلاً :

- اشرب، فأنت لم تتعمد بعد.. اشرب ان كنت نصرانياً...

وتوسل الآخرون من كل حدب وصوب :

- كأس واحدة فقط ياليوفا ...

ورفض ليون أيضاً متذرعا بأنه لن يتمكن من مواصلة الغناء، فدافع الشيخ عن حجته .

اظلم النهار. فاعلن «الشيخ» ان الأوان قد أن لاقلاع الباخرة. ودفع البحارة مصاريف أكلهم وشرابهم وأجرة ليون وخرجوا معربدين مزمجرين متدافعين وهم يتراشقون السباب والشتائم .

أثناء الطريق شعر تشاوشينكو بدوار في رأسه كاد يرميه أرضاً لو لم يستند إلى الجدار. لقد ثمل من رائحة الشراب والدخان ولكنه مالبث يردد قائلاً : .

– لقد سررت جداً من زيارتي ولسوف اجيء كل يوم فمادة الشاعر وشيطانه متوفران هنا.

كان ايتسكو يحجل حول ليون وما عتم ان تأبطه سائلاً:

– اتشتري لي اليوم شوكالاته أو سيجاراً ؟

– سأشتري الاثنين معا .

– لقد حصّلت اليوم أكثر من روبلين فمرحى لك، أما أنا فلم أربح شيئاً. هه أيها الشاعر، ستبتاع لي قصبة أعزف عليها.

فطمأنه تشاوشينكو :

– ولما لا ، سأبتاع لك قصبة .

– تشيمبا - تسيما - تشيلالا ، تشاوشينكو تشيلالا...

عندما افترق الرفاق تمنيت معرفة السبب الذي حدا بليون لتغيير عمله، اذ لم اك أتصور قط ان ليون سيبتعد عن المسرح، إلا لأسباب قاهرة.. فرد ليون على سؤالي بهدوء وروية:

– الحاجة تجبرني يا سنيور .

– ألم تكن معتازا فيما مضى ؟

– بلى ، ولكني أرغب في تحقيق ارادة أمي .

– ماذا تقصد ؟

– أود تأمين حياتها. وحدقت في عينيه مليا واستشفيت

إنه يراوغني حين فضح ضوء الشارع ارتباكه، فقلت له :

- أمر يتستحق الثناء والتقديز مادمت ترغب في الحفاظ على أمك. ولكني والحق يقال، لا أصدقك وأعتقد ان في نفسك غاية أخرى.

لم ينبس ليون ببنت شفة بل سارع خطاه، فسألته :

- إلى أين ؟

- إلى المسرح .

- والمسرح أيضاً ؟

- أجل يا سنيور، فمسرحية اليوم عظيمة جداً .

وانصرف سراعاً كي ينجو من تساؤلاتي ولذا حدست ان في دخيلته نوايا مبيتة .

زرت «اليخت الملوكي» مراراً فأيقنت إنهم يحبون ليون ويختطفونه من يد لأخرى، فهو يجيد عزف الرقصات والألحان الروسية. فكان يمر على زبائنه فريقا ـ فريقا جامعاً عشرة كوبيكاته وهم يرجونه احتساء قدح من العرق أو كأس من الجعة، ولكنه ما صبا وما قدر على الشراب .

وفي احدى المرات كنت حاضراً الحادثة التالية : حين وضع ليون قدح العرق على الطاولة باشمئزاز وتقزز طلبوا له شرابا حلوا. فشرب الأول والثاني ثم انتشى ..

وحزّ في قلبي تردده على هاتيك الأماكن ولكني لم أبح لنفسي حق اقناعه بالإبتعاد عنها. فأي سبيل يحقق له العيش سوى تفرغه الأول الزهيد ؟

قال لي ذات يوم مستبشراً :

- لقد وفرت ثلاثين روبلا في هذين الشهرين ولكني أرجوك ألاّ تخبر أمي بذلك .

- علام ذلك ؟

- إني بحاجة لتلك الدراهم .

فاضفت قائلاً كي أفصل الأمر :

- للذهاب إلى ايطاليا.. لا تستغرب ياليون، فأنا على علم بذلك منذ أمد بعيد .

- اوه يا سنيور، إني أرغب حقاً في رؤية ايطاليا...

- ولويزا ؟

وادار وجهه حياء، فاخبرته ان السنيورة ستيفانيا قد تسلمت رسالة جديدة من كافاللارو، أخبرها فيها ان أساتذة الغناء قد امتحنوا صوت لويزا ودهشوا لقوة تواتره. وان أحدهم قد تكفل بأمر اعدادها لاداء دور «سبرانو - درامي» في الأوبرا.

لم يكن ما قلته شيئاً غريبا عنه، إذ انه استلم في ذات اليوم رسالة من لويزا بنفس المعنى. نعم ، لقد برّت الآنسة الكريمة بوعدها التي قطعته، ولكنها كانت أول وآخر رسالة تلقاها منها.

كان الفتى يتردد على حانات الميناء طيلة الصيف والربيع وكان يزورني في غرفتي ليقدم لي جردا عن أعماله. لقد أحبه البحارة كثيراً لحد كانوا يتخاطفونه من يد لأخرى. وكان يوفر نيفا وعشرين روبلا شهريا ولم يبق إلا القليل حتى يحقق أمله في الذهاب إلى ايطاليا .

وفي الواقع كان جو الحانات قد وشمه بطابعه المميز، فحركاته تتسم بالفظاظة وكلامه متّبل بالشتائم، التي يتداركها نادما على ما تلفظ به. كما أحسست رائحة الخمر تفوح منه أكثر من مرة. وفي احدى الليالي رأيته غارقاً في سكره أمام بوابة دارنا، متابطاً غيتاره وهو يسير خطوة إلى الامام وأخرى إلى الجانب في ترنح ظاهر. فصعقت للأمر وساعدته على ارتقاء السلم. وما ان رأته أمه حتى لطمت خديها وصاحت قائلة :

- وابليتاه .. لقد فجعت بابني ...

لم يكن الوقت مناسباً للتقريع والتوبيخ فرجوت الأم

الملتاعة ان تكتم سموم قلبها .

وسقط ليون منكبا على وجهه في الفراش، تاركا رجله تتدلى على الأرض. كان منظراً صاعقاً. لقد كان ليون ملاكا بنظري وها هو يسقط من عيني تماما. انها لمرارة ما بعدها مرارة، فهو لم يكن يشعر شيئاً البتة وإنما سقط كالجثة الهامدة، يلوثها الطين من الرأس إلى أخمص القدمين. ولكنه كان أحيانا يخرج يده ليتلمس حذاءه الأيسر...

عفت هذا المشهد الكئيب متسائلاً: «هل هي النهاية؟» «وهل ان نبوءة والدته الخبيثة قد تحققت»؟. في الصباح صعدت ورأيت الماست مقطبة الجبين جالسة في احدى الزوايا، بينما كان ليون يبحث عن غيتاره عبثاً. لقد أخفته أمه عنه كي لا يذهب للعمل. وعندما رأتني المرأة المسكينة شهقت بالبكاء فلم أجد كلاما أبرر به تصرف ليون في هذه المرة .

– ألم أقل لك ان نهايته مثل أبيه الملعون؟ انها المرة الرايغة التي يؤوب فيها إلى البيت في حال تحسد الكلاب عليها.

شعرت بحاجة ماسة للحديث مع ليون على انفراد بعد أن دعوته لغرفتي. كان يتذكر فعلته الدنيئة فيطرق خفراً وحياء دون ان ينبس بكلمة، بل انه انتظرني حتى ابادره الكلام بصبر فارغ. تراني ، ماذا أقول له ؟ فالتوبيخ أمر نافل، لأن ليون ليس طفلاً ولا ابلها وسرعان ما يدخل في ربيعه العشرين. وشرحت له عواقب السكر الوخيمة فكان ينصت إلي طارقا الرأس وما ان انتهيت حتى بادرني قائلاً:-

– أعرف كل ذلك فوالدي قد توفي منه .

– أتدرك كل ذلك ولا تحجم عنه ؟

– إنهم يقسرونني عليه .

– من هم ؟

– البحارة .

- بدلّ حانتك .

- إنهم يجبرونني في كل مكان .

- اليس بمقدورك الرفض ؟

- كنت أفعل ذلك قبلا ولكنهم لا يسمحون لي الآن .

- ما معنى لا يسمحون لك ؟ كل انسان رهن مشيئته .

- أجل يا سنيور، ولكن عندما ترى قبضة تزن رطلين تحت أنفك تنسى ارادتك كليا.

- وهل يضربونك أيضاً؟

- ان قاومتهم كثيراً ضربوني.

- وأي نفع يجنونه من قسرك على الشراب؟

- السكارى يكرهون الصاحي. وحين لا أشرب يقولون لي : «إنك تسخر منا ضمنيا فأشرب حتى تتساوي معنا».

- اشرب قليلاً .

- لا اشرب كثيراً، ولكن القليل كاف لا سكارى .

- وماذا يسقونك ؟

- كانوا يسقونني مشروبات حلوة ولكنهم تذرعوا بغلاء ثمنها وشرعوا في تقديم الجعة طورا والفودكا أحياناً .

صمت لحظة ولكني أيقنت إنه يجب ان نصل إلى استنتاج ما، فقلت :

- عف هذه الحانات اللعينة وأعمل بالمسرح ثانية .

- سأتركها طبعا يا سنيور، فأنا ذاهب لايطاليا.. لقد وفرت مائة وخمسين روبلا .

- وأمك ؟

- سادعوها فيما بعد .

- بمائة وخمسين روبلا !

- وما الغرابة في ذلك ، هل هو مبلغ قليل؟ لقد استفسرت الكثيرين فاخبروني بأننا نقدر على العيش كما نحن عليه الآن بمبلغ ثلاثين روبلا في الشهر .

- ربما كان ذلك ممكنا لبضعة أشهر ، فماذا بعدئذ ؟

- ساجد عملا ما.

فسالته وقد ركزت عيني في بؤبؤيه :

- صارحني ياليون ما الذي يشدك لايطاليا .

- أود تعلم العزف على الكمان فأعود لأعزف في الاوركسترا.

فكرت مليا وأنا أقول في سري : «أنت تكذب يا صديقي وليس ما تدعيه بالسبب الحقيقي». وسرحت النظر فيه وقد امتلأ قلبي هما وغما، فهو قد ذبل كما تذبل الوردة بعد اجتثاث جذرها فرجاني ان اقنع أمه كي تعيد غيتاره وإلا اشترى غيره، وإنه ما من داع لانفاق مبلغ ضروري جداً .

لم يمض أسبوع على ما حدث حين دخلت علي الماست مساء والقلق باد عليها ، فقالت :

- المعذرة ياسنيور .. أرجوك ان تصعد إلينا محبة بالله.

وصعقت لمرأى ليون في تلك الليلة. لقد تحول الشاب الوديع إلى وحش كاسر، نزعت عنه سترته وحذاؤه وقد ارتمى أمام الباب مزمجرا كأي وحش ضار يقرض لحمم يديه. كانت عروق رقبته النحيلة قد طفرت وتضخمت فخيل لي أنها ستتمزق حالا ، كان يضرب نفسه بالأرض كمن مسه إبليس.

لقد حدث له ما يحدث يوميا في الأركان المعزولة من مدينة أوديسا، حيث داهمه اللصوص أثناء اوبته من الميناء وسرقوا سترته وغيتاره وحذاءه ثم اطلقوا سراحه. فاستغربت تصرفه هذا وأمسكته من ذراعه قائلاً :

- ألمثل هذا الأمر تقتل نفسك .. يا للعار ؟ !

- هذا ما أنصحه به يا بني. إني لا أنوي تقريعه على حادث يجري رغماً عنه. لقد حاولت اقناعه ان له في البيت جاكتة وحذاء أخرين فلم يقتنع.. يا لله، انظر كيف يضرب رأسه بالحائط أي عقاب أنزلته بنا ملكوت السماء !

لا شك ان ليون لن ينتحب ويبكي لأجل غيتار وستره بالية وحذاء فإن، ولا بد ان يكون المصاب أخطر فداحة. فرجوت الأرملة المسكينة ان تخلي لنا الغرفة فخرجت على التو. كنت قد تعودت طبع ليون وعركت عجينته تماما ولذا لم أكن استصعب الحديث إليه في مثل هذه الظروف. فهو يرغب في معاملته معاملتك لرجل بالغ عاقل، فقلت له:

- عار عليك يا ليون فأنت لست طفلاً .. هيا أعقل، إذ لا يليق بك ان تزعق هكذا.

- لا يليق بي؟ أنت تقول ذلك أيضاً يا سنيور ؟ ولكنك لا تعرف ما فقدت .. إنه حذائي الأيسر، نعم الأيسر.. أتعرف ان ايطاليا والكمان والغناء والموسيقي قد ولت أدراج الرياح ... هناك عند أسفل الدرج قابلني اثنان: احدهما فارع الطول والآخر عريض المنكبين. أمسكني الطويل ولوى يدي خلف ظهري بينما فتش الآخر جيوبي. وعندما لم يجدا إلا روبلا واحداً فارا واحتدا ، فظننت إنهما سيأخذان غيتاري ويوليان الأدبار. ولكن خاب ظني، فقد خلعا سترتي وليكن الله في عونهما لو خلعا قميصي أيضا.. ولكن حذائي الأيسر.. لقد قال لي الطويل: «اخلع حذاءك أيضاً فهو يساوي قد حين من الفودكا على أقل تقدير». وعندما انحنى عريض المنكبين لسحب حذائي امتلأت حقداً وغضباً، فرفسته على رأسه وكتفه، فما كان منه إلا ان لكمني لكمة سودت الدنيا في عيني وشرعت أتوسل واترجي ولكن هيهات لمن تنادي . فسرقا حذائي وغابا عن الأنظار..

وهنا أدركت ما هية الأمر تقريبا فلمحت إليه مختبراً:

- أنت تبكي لضياع الحذاء إذن ؟

- في حذائي الأيسر مائة وخمسون روبلا ياسنيور.. مائة وخمسون روبلا .. في الحذاء كنت ادخر ما اوفره من نقود.

وأجهش في البكاء طويلا. يا للتعاسة، لقد نهبوا ثروته التي وفرها بعد عمل متفان دام نيف وستة شهور وسلبوا له كل أمل في الذهاب لإيطاليا ورؤية لويزا. يا للمسكين، فهو لم يجد مكاناً أكثر أمانا من حذائه لاخفاء ماله، اذ كان يخشى الاحتفاظ به في البيت حيث تجده أمه ولا ترده إليه؛ لأنها كانت تفتش جيوبه عند كل صباح ولا تترك له إلا اليسيرمن النقود.

- لقد وضعت مالي في ورقة من جهة الكعب وشدت جلدا فوقها ثم سمرته. لقد نمت ليال باكملها دون ان أخلع حذائي.. آه، لقد سرقه الوغدان الحقيران ومن يدري، فلعلهما يبيعانه الآن مقابل قدح فودكا أو رطل خبز.. فما العمل يا إلهي ؟ !

لم أجد كلاما مناسبا لمؤاساة الفنان المسكين وخيل لي ان توبيخه على قلة انتباهه سيكون من القسوة بمكان. ولذا وجدت من واجبي ان اهوّن عليه وان أبث في روحه الأمل بايجاد الحذاء. لقد كان الحادث مفجعا حقا.

وضرب يده على جبينه وصرخ فجاة :

- آه .. هنالك أمل .. أمل لايجاد ...

ورددت بفرح الأطفال مطمئناً :

- نعم .. نعم ...

- بلى يا سنيور .. أظنك تعرف والد ايتسكو فهو رجل ماهر وخبير بكل زعران الشارع. انه يشتري ويبيع الألبسة والأحذية البالية. سأذهب إليه حالا، ناوليني يا أماه سترتي وحذائي فساذهب للبحث عن غيتاري ...

ارتدى لباسه وخرج من الدار رغما عن أمه .

ولم اخبر السيدة الماست بحقيقة الأمر لأني كنت

أتصور أي نحيب وعويل وأية لعنة ستحل بالابن لو درت الأم بما حدث.

قفلت راجعاً إلي بيتي وأنا أحسد الأغنياء من كل قلبي وتمنيت لو كنت ثريا.

عند انبلاج الفجر سارعت لرؤية ليون ولكنه لم يكن في البيت. واعلمتني أمه انه كان ارقا طيلة الليل فامضاه بين غدو ورواح. كان الوقت متأخراً جداً حين دخل علي ليون تعبا عرقانا مغبرا لا يقدر حتى على الكلام. فمنذ الصباح حتى الظهيرة وهو يتجول مع والد ايتسكو ثم انضم اليهم والد تشاوشينكو حتى ساعة متأخرة من الليل. لقد جالوا في كل الأسواق التي تباع فيها الحاجيات القديمة مفتشين عن الأحذية فقط دون ان يخبروا أحداً بالكنز الثمين الذي يفتشون عنه. لم يجدهم البحث نفعاً ، فنصحه والد ايتسكو ان ينسى بأنه امتلك مالا في يوم من الأيام كما وأعلم تشاوشينكو الشرطة بالحادث فسخر رئيس القسم منه قائلاً: أي ابله هذا الذي يخبيء نقوده في حذائه.؟

كان ليون يقضي جل يومه جائعاً ولذا دعوته للعشاء معي فرفض وخرج منهكا يائساً مترنحاً كالسكران تماما.

وفي الغداة قابلته في الشارع يتحدث إلى رجل نحيف، قصير القامة غارقا في بحر الوساخة. وعلمت إنه والد ايتسكو المدعو بـ « بعوضة الرنكة ». حين علم إني صديق ليون توجه إلي قائلاً :

– يشهد الله يا سنيور ان الفقير لا يحق له ان يمتلك مالا، لان الثروة فخورة جداً وتحب القصور كثيراً. أما الفقير الأبله فيخيل له ان باستطاعته الاحتفاظ بالمال في كعب الحذاء.. ها ها ها ها .. كان عليك يا بني ان تمزق صدرك وان تقول لتلك الثروة : « إليك منزلك يا سيدتي المحترمة » إنني والحق يقال أحسد ذلك السقطي الذي سيشتري حذاء من هذا النوع وأقسم بشواربي، ان سليمان الحكيم لم ينتعل حذاء ثميناً مثله .

كان ليون يبحث عن ضالته منذ شروق الشمس حتى ساعة متأخرة من الليل ولأسبوع كامل. ويئس كل من ايتسكو وتشاوشينكو فتوقفا عن التفتيش بينما ظل ليون ناشداً ضالته. لقد حرم متعة النوم وشهية الأكل، فكان يؤوب ليلاً ملقياً بنفسه في فراشه ليسلم نفسه إلى التشنج والنحيب. استبد اليأس والقنوط بأمه التي لم تعد تدري ما تفعل وأيقنت ان ابنها سيفقد عقله ان بقي على هذه الحال التي انسته كل شيء والهته حتى عن المسرح.

لا مندوحة عن الاعتراف إني لم أعد قادراً على تحمل المأساة التي تعتصر ليون. فقد كانت حسراته وتاوهاته تحزفي فؤادي حزا .. ولكنه أخذ يتردد على زيارتي أكثر مما مضى. فيجلس إلى الطاولة يشرع في الحديث عن خسارته، محتفظاً في صدره بخيط من الأمل في ايجاد حذائه. ومن يدري، فما من شيء في حكم المستحيل. ولعل الحذاء يتجول في أرجاء المدينة ثم يعود إلى صاحبه ثانية؟ ولكن ذلك الأمل الواهن ضاع وتوارى وارتد إليه وعيه شيئاً فشيئاً. كان اصدقاؤه البحارة يرجونه العودة للعزف في الحانات واعدينه بشراء غيتار جديد. وأشرت عليه ان يقبل بهذا العرض وان يعمل ويجمع المال من جديد .. وأخيراً، امتثل للأمر وذهب في أحد الأيام إلى «اليخت الملوكي» مع غيتاره الجديد. وفي المساء قص علي كيف استقبله البحارة بحفاوة وترحاب عظيمين وهم يشبعونه لثماً وتقبيلا. إلا ان رائحة الفودكا كانت تفوح من فمه، فظننت إنه شرب لينسى مأساته فلم اجروء عل عتابه.

تمكن ليون من ادخار مبلغ بسيط في شهره الأول، مما انعش أماله بزيارة ايطاليا واعترف لي صراحة ان السبب الرئيسي لها هي لويزا. ولذا لم يَكن يمر يوم دون ان يسالني متحسراً:

- ما اخبار لويزا يا سنيور ؟

لقد كان يخجل من سؤال السنيورة ستيفانيا فكنت

اخبره بكل ما يتطرق إلى مسمعي من ربة البيت. كانت لويزا ترسل سلامها إلى ليون الذي كان فرحاً وسعيداً جداً بهذه الالتفاتة الكريمة. لم أراك أتصور إنسانا ما سعيداً بالقدر الذي كان يملأ صدر الفتى العاشق لاقل نجاح تحرزه لويزا وكان يصارحني القول، بأنه يحبها أكثر من الجميع ويود لو كان أول من يصفق لها، ليس هنا في أوديسا وإنما هناك: في ايطاليا.

قال لي ذات مرة :

– ساجن ان لم اسافر إلى ايطاليا .

وسألني مرة قائلاً :

– هل تعتقد يا سنيور ان لويزا ستتكبر عندما تصبح مغنية مشهورة ؟

وفهمت ما يرمي إليه الفتى حقاً وحقيقة. لقد كان يعتبر نفسه غير كفء للويزا وقد منعه كبرياؤه من الاعتراف بذلك. كما انه كانٍ يرغب في معرفة رأيي عما إذا كان مناسبا لها، أم لا.

وأحسست بواجب عظيم لايقاظ تلك الروح المعذبة لانتشالها من جحيم تحترق وتذوب فيه مع كر الأيام فأجبته قائلاً:

– اجل ياليون، ستترفّع طبعاً فها هي تتكبر اليوم ولما تزل مغنية غمرة ...

فقاطعني ليون محتجا :

– ومن قال ذلك ؟

– تصرفها خير ما يدل على ترفعها . فهي قد نستك .

– كيف ؟ لماذا ؟ انها تقرئني السلام في كل رسالة وهذا ما افضيت به إلي انت بالذات .

– نعم يا صاحبي، إنها ترسل إليك تحياتها التي أفهم مغزاها فهما مغايراً لك. فهي قبل ان تنشهر أتقنت فن

المواربة والمخادعة. إني أعرف مطربات وممثلات افذاذ يغرين طلبة الجامعات في المدن وتلامذة المدارس في النواحي كي ينلن اعجابهم وحفاوتهم. وباستطاعتك أنت وفرقتك تنظيم تظاهرات أجمل وأعظم، الأمر الذي تعيه لويزا تماما، ولذا فهي توثق علاقاتها معك من بعيد، على الرغم من أنها مقتنة في نفس الوقت، بانك لا تقبل الرشوة اطلاقا. آه يا صاح لا تكن مغرما مثل ذلك الطالب الذي أقدم على الانتحار فداء لمطربته المفضلة في العام الماضي، فهل تذكر تلك الحادثة؟ لا يا صديقي، ان لويزا لا تحبك، فلو كانت تحبك لكتبت لك ولما انقطعت عنك .

لعلني كنت افترى على لويزا ولكني كنت أشعر ببعض الحقيقة فيما أقول. وكنت عل استعداد تام لتقديمها بألوان أكثر قتامة وسوادا في سبيل انقاذ ليون .

فرد ليون محاولا انقاذ كرامته أكثر من ان يدافع عن لويزا:

- إنها لا تملك الوقت الكافي لكتابة الرسائل .

واجبته بلهجة مؤاسية كي لا أزيده هما وغماً فقلت :

-ربما .. ليت ذلك الصحيح .

في ذلك اليوم بالذات - ان لم تخني ذاكرتي - دخلت علي السنيورة ستيفانيا وعلائم السعادة والسرور بادية على محياها أكثر من المعتاد وقالت :

- بامكانك تهنئتي يا سنيور .

- خيراً ؟

- خيراً ان شاء الله .. لقد تحقق ما كنت انتظره منذ وقت طويل: تزوجت لويزا من كافاللارو البارحة.. ها هي البرقية فإليك هي...

اخرجت البرقية من عبها وقدمتها إلي، فقلت :

- يا للمفاجاة !

هتفت بذلك رغم ان صوتا داخليا كان يتردد في أعماقي منذ زمان بعيد ينبئني بوجود الفة ومودة بين لويزا وكافاللارو .

- ما من مفاجاة يا سنيور وكل ما في الأمر إنكم جهلتم ذلك على علمي بأنهما مخطوبان منذ أمد بعيد. ولكني لم اك مهتمة بأمر الخطبة لأن الأكليل هو الأساس. فسكت على مضض ريثما يتم الأمر. والآن الحمد لله الذي وهبني السعادة والغبطة مجتمعتين، فكافاللارو هو الشاب الذي حلمت به عريساً لكريمتي: إنه مطرب محترم، مهذب ورقيق، ثم إنه ينال مرتباً مرموقا. أجل، ليس بمقدور لويزا ان تحلم بشاب حسن وأظرف منه. لقد تزوجا بالأمس وسيسافران اليوم إلى باريس حيث يبقى كافاللارو عاماً كاملاً، برفقة لويزا طبعاً...

وهنأت الأم السعيدة. إلا ان صوتا خفيا من الأعماق انهضي في صراحتي واخلاصي. ترى ، كيف سيستقبل ليون هذا الخبر الصاعق وأنا أحبه أكثر من لويزا ومن كافاللارو؟!

في تلك الليلة عدت إلى البيت متأخراً جداً كي لا أرى ليون الذي زارني في الغداة قبل موعده المعتاد. وكانت السنيورة ستيفانيا قد عرضت علي البرقية الثانية التي اعلمتها بمغادرة العروسين إلى باريس .

كانت ليلة عصيبة لا تنسى أبداً. فقد رأيت ابتسامته لأول مرة بعد ذلك الحادث المفجع، وللحال قصّ علي سبب فرحته: كان بحارة سفينة « خيرسون » قد دعوه قبل يومين كي يعزف لربان الباخرة ومساعديه. واليوم، قدم له أحد مساعدي الربان المالدولينة ورجاه ان يعزف لحناً ما فلبى ليون الرجاء. وأعجب الربان إعجابا عميقاً بلحن «شريد مدريد ». وحين علم الربان، وهو إنسان بالغ الطيب- بأمنية ليون في الذهاب لإيطاليا اقتطع وعدا بمساعدته. وبعد يومين ستقلع الباخرة « خيرسون » إلى كرونشتات ثم تقفل راجعة لتتوجه إلى البحر الأبيض المتوسط ومن هناك إلى الشرق الأقصى. وسيصطحب الربان كلا من ليون وأمه ليوصلهما

إلى الحدود الإيطالية .

- اوه يا سنيور ما أعظم سعادتي.. إنني أكاد أطير فرحاً.. سافي بديني لربان الباخرة، فأعزف له طوال الرحلة في الليل والنهار.. أيطاليا، ايطاليا، ايطاليا.. سأراك عما قريب.. وساري لويزا التي ستطير فرحاً لرؤيتي .

شق علي جدا اخفاء الحقيقة المرة عن ليون بعد هذا الكلام الصريح الذي تحول حماسا والهاما، فسألته قائلاً :

- أترغب كثيراً في رؤية لويزا ؟

- كثيراً بالطبع .

- وهل ستحزن كثيراً ان لم تراها ؟

فصاح على الفور بصوت يحدوه الأمل العارم ويشوبه الارتياب القاتم :

- ولكني سأراها يا سنيور .. سأراها في ميلانو .

- لويزا ليست في ميلانو .

- وأين هي ؟

- في باريس .

- مع من ؟

- مع كافاللارو ...

- كافاللارو ؟

- صرخ الفتى بصوت تخنقه العبرات .

فسارعت لاخباره بالحقيقة المرة ولأنجو من العذاب المعتمل في فؤادي :

- لقد تزوج كافاللارو من لويزا وسافرا البارحة إلى باريس لسنة واحدة .

ارتعش ليون واختلجت عضلات وجهه فأحمر حالاً وسرعان ماكمد وشحب لونه.

- هل اقتنعت ان لويزا لم تحبك أبداً وكل ما في الأمر إنك كنت تحلم بحبها ؟

جاهد ليون ان يكتم حقده وغيظه.. يا له من فتى قوي الإرادة والشكيمة، حازم في كتمان مشاعره الجياشة التي تشببت قبل الأوان. إلا ان الصدمة كانت أقوى من ان تحتمل، فارتمى على المقعد وانتحب قائلاً :

- يا له من خبر، يجب ان نهنىء ...

وكررت قوله وكأني أتجاهل حقيقة عواطفه العاصفة :

- نعم، يجب ان نهنىء .

فقال بصوت مهزوز وهو يقرض شفتيه :

- كافاللارو إنسان طيب وكريم ...

- إنه طيب جداً ولويزا ليست أهلاً له .

- سنيور ... !

وكررت عبارتي بحقد عارم على الإيطالية البريئة :

- نعم ، ليست أهلاً له .

- لويزا ارفع مقاما منه .. إنها ملاك ...

لم يتمالك نفسه عندئذ فوضع رأسه على الطاولة وأجهش بالبكاء مرتعشا وكأن جسده قد تقطع اربا-اربا .

وشعرت بكراهية طاغية نحو لويزا وخيل لي إنها قد اهانتني حتى الصميم فطفقت العن واشتم مخلوقة بريئة لا تستحق إلا الاحترام والتقدي، ووصفت له زلاتها مجسمة انف مرة واختلقت الكثير منها كي يخيل للسامع انه ما من فتاة في الوجود أكثرحماقة وبلاهة أو أشد قباحة واستهجانا من لويزا. لقد افتعلت كل ذلك كي أبعد ليون عن ذلك الحب الجارف، علماً بأنني كنت أحطم وثن لويزا وارميه تحت قدميه لأحطم الإيمان المشعش في ثنايا فؤاده، ويقينا مني بأن ذلك الوثن بريء أمام هذا الناسك المتعبد. فلعلها لم يدر

بخلدها يوما ان سلوكها الأخوي البريء سيخلق شعوراً حاراً واحساسا عارما في قلب هذا الفتى الأغر؟

ليون كان أعظم شهامة ورجولة مما تصورته. فقد كانت حشرجات صدره الملتاع تردد على الدوام :

- ما من عيب في لويزا .. إنها ملاك طاهر .

هنالك بعض الضالين الذين يُصلّون بنار جهنم ولكنهم يصلون للرب الذي حكَمَ عليهم باسمه. هكذا كان ليون بالضبط. فمع انه يحترق في بوتقة الالام التي لا تطاق ولكنه مازال زاهداً متعبداً لوثنه الذي يرى فيه الهه الأوحد.

وأخيراً تمالك نفسه فمسح عبراته وهب واقفاً ليقول:

- حقاً يجب ان اهنيء السنيورة ستيفانيا إلا ان الوقت متأخرجداً ، فليكن غدا.. عفوك يا سنيور، انا لم ابك لأجل لويزا.. كل ما في الأمر إني تعب جداً.. أتعلم.. أتعلم ان لويزا تخطيء في ذهابها إلى باريس مع زوجها؟ فكافاللارو يود الذهاب لهناك كي يزيد صقل صوته.. أما لويزا فتضحي بمستقبلها فداء له.. ولكن ذلك لا يعنيني.. ما شأني-..؟

واستبد به شعور الكرامة المكلومة لدقائق معدودة، فاربكه ضعفه فبكى واشاح وجهه عني كي يحيل بيني وبين انهياره. وأمسك بالماندولينة مرات عديدة ولكن من غير هدف فاعادها إلى مكانها ونشأ يفتش عن قبعته وهي في يده ثم تكلف ابتسامة مزيفة. وأخيراً، أمسك بشعره الأشعث ووقف إلى الطاولة رانيا إلى نورالمصابيح بعينيه الحمراويتين. ما دريت السبب الذي يجعل عينيه تتوقان إلى النور دائماً، فقد كان يسرح نظره أبداً في شعاع الشمس وضوء المصابيح وحتى في نار الموقد .. ذلك ما يحدث غالبا حين تكون أفكاره مضطربة وروحه ثائرة مزمجرة ...

وكنت اتمرمر من وهني وضعفي في مواساة العذاب والشقاء المتجسد أمامي.. طال الصمت، فكنت اذرع الغرفة جيئة وذهابا بينما تسمر هو في مكانه لا يبارحه قط.

وفجأة.. عضّ على شفتيه ضاربا قبعته بيده ثم استدار خارجا بخطى سريعة دون ان يودعني ...

ظلت الماندولينة الكئيبة مرمية على طاولتي لقد نسيها ليون.. ألم يأت خصيصا لاصطحابها معه وللعزف عليها غدا على ظهر الباخرة ...؟

استبدبي شعور من الندم طاغ. ترى، لماذا تسرعت في اطلاعه على حقيقة الأمر؟ ترى أين ذهب وأين توجه؟ فسارعت إلى غرفته مرتين متواليتين استمعت خلالها إلى صوته ثم قفلت مطمئناً. وشرعت أمني النفس باني قد اديت واجبي نحو صديق عزيز ففتحت عينيه على الحقيقة. وفكرت ان ليونا ما فتيء شابا في ربيعه الثامن عشر ولن يمر وقت طويل حتى ينبذ هذا الكربة النفسانية التي حزت في ثنايا فؤاده. وجل ما في الأمر، إنه سيبكي وينتحب وبعدها يهدأ ويستكين. هذه هي الأفكار التي اعتملت في داخلي ولكني كنت أشعر في ذات الوقت بفداحة الخطأ الذي ارتكبته.

• استيقظت صباحا وقد هرب قلبي إلى اخمصي. سارعت لتناول قدح شاي ثم انطلقت إلى أعلى. فاخبرتني الماست ان ليون قد أعطاها خمسين روبلا وقبلها قبل ان تلج فراشها وإنه ظل طوال الليل ملتصقاً بطاولته يكتب ويشطب ويمزق ما كتب. وإنه قبلها في الصباح مرة أخرى وغادر الغرفة تاركا غيتاره الذي اعتاد على صحبته يومياً، فسألتها قائلاً :

- هل كان مغتما ؟

- بين بين كعادته عموما .

كان غيتاره في بيته وماندولينته في غرفتي ومعنى ذلك إنه لم يذهب إلى الحانة أو السفينة. ترى، أين هو الآن؟ واستبدت بي رغبة طاغية لرؤيته حالاً إذ اعترتني رعشة من الرهبة. فانطلقت باحثاً عنه حوالي المسرح مروراً بشارع دير يباس حيث يحلو له التجوال ولكن عبثاً. كان اليوم أحداً، أتراه في كنيسة الأرمن، حيث كان يختلف لسماع القداس

في الآحاد؟ لا، لم يكن هناك أيضاً.

وبعد تجوال دام أكثر من ساعتين قفلت إلى البيت منهكا قلقاً. وخطر لي إني فقدت شيئاً عزيزاً وثميناً على قلبي.

قابلت عند البوابة صديقه تشاوشينكو الذي جاء لرؤيته لشأن ما. فاخبرني إنه فتّش عنه في الحانات وفي الباخرة «خيرسون» حيث أخبره البحارة بأمر تغيب ليون عنهم.

وحكيت له ما جرى معنا. فصرخ الشاعر بحماسه المعتاد:

- يالله .. لقد قلت دائماً ان حب المرأة علة للروح. لكم حدثني ليون عن حبه العارم لتلك الفتاة فتاؤه وتوجع مراراً.. يجب علينا استدراكه حالاً.. فدمه فوار جداً ...

ورجوته انتظاري بضعة دقائق في الخارج بينما ذهبت لاستفسار السنيورة ستيفانيا عنه، لعلمي بأنه سيزورها بقصد التهنئة. كانت ستيفانيا في منتهى السعادة: ترقص وتغني مع رئيسة في اللحظة التي ولجت فيها غرفة الطعام. واخبرتني بأنها قد دعت بعض الأصدقاء والأرقارب للابتهاج والفرح، فقالت:

- اوه يا سنيور.. ما أعظم سعادتي وغبطتي وصبوتي لضم وتقبيل كل إنسان .

اعترتني رهبة قاصمة عندما فكرت اعتباطاً «ربما صبت لضمي أيضاً» فخشيت يديها القويتين الخشنتين الشبيهتين بالأعمدة الجبارة .

واعلمتني ان ليون قد زارها صباحا مهنئاً ومقبلاً يدها:

- إنه فتى مهذب وفنان حقاً. أما والده فقد كان جنتلمانا وليس حلاقاً. ولكنه، ويالسخرية ،لم يصدق نبأ زواج لويزا، فابرزت له البرقيات التي طالعها بنفسه ثم هنأني ثانية وحدق في عيني بنظرة حاسرة حائرة وكأنه يراني للمرة الأولى . ثم أوجز كلامه في العبارة التالية:

«أحبي أمي يا سبنيورة ستيفانيا فهي امرأة مسكينة». لقد كان غريباً جداً في الحقيقة ... !

كان هذا كافيا لاثارة الرعب والخوف في داخلي وسرعان ما اخبرت تشاوشينكو بمخاوفي وشكوكي. فاقترح الأخير الذهاب إلى نواحي المسرح حيث نشاهد ايتسكو الذي ربما يكون قد قابل ليونا. واجهنا ايتسكو مع يوناني من اقرانه وهما في جدال حامي الوطيس يتبادلان الشتائم.

هدد تشاوشينكو اليوناني بتحطيم رأسه بهراوته التي في يده فاضطر الأخير إلى السكوت. واتضح لنا ان الخصام كان بسبب ليون. فاليوناني خصم عنيد له وهو يحط من قدر الممثل الذي يصفق له ليون. كما إنه تجاسر على شتم ليون، فانبرى ايتسكو للذود عن صديقه الغائب.

روى تشاوشينكو ما سمعه مني عن ليون فشرع ايتسكو يرتجف كالورقة صائحاً :

- يا للمسكين .. مسكين ليون ...

وحكى لنا بدوره بعض التفاصيل التي انتهت إليه عن أحلام ليون الوردية تجاه لويزا وعن ان ليون الحزين كان يتردد على «منتزه الإسكندر» حيث يجلس على أحد المقاعد المواجهة للبحر، واضعا غيتاره على ركبته ومشنفا الآذان لسماع صفارات البواخرالباحرة من الميناء. لقد رآه ايتسكو على هذا الوضع مرات كثيرة فكان يقول له: «عندما ارنو إلى البواخر العابرة يخيل لي إني أسافر مع الآخرين إلى البلاد النائية».

فاقترحت عليهما قائلاً :

- هيا بنا إلى منتزه الإسكندر.

بلغنا المنتزه في أقل من عشر دقائق وقطعناه عرضاً وطولاً دون ان نعثر له على أثر. عدت إلى البيت وقد هدّ جسدي النصب وقضّ من روحي التعب، تاركا رفيقيه باحثين عن صديقهما الضائع.

دفعتني هواجسي الخفية للاعتذارعن الحفلة السارة التي اقامتها السنيورة ستيفانيايومئذ فاستلقيت على سريري دون ان أخلع ثيابي، مفكراً في ليون وليون فقط. وذكرت عينيه الحزينتين اليائستين اللتين قرأت فيهما عظمة الروح وعزة النفس لبطل صغير - كبير. وتخيلته شبيها بأبيه البائس، سكرانا قذرا يتسكع أمام أبواب المسرح متعرضا لسخرية واستخفاف المارة ...

نظرت إلى ماندولينته اليتيمة فامتلأ قلبي هما وغماً. وخيل لي ان الآلة الصماء قد نطقت ناعية صاحبها، فرفعتها عن الطاولة وأخفيتها في مكان لا تقع عيناي عليه...

واتفق ان التطمت يدي باوتارها مرات ومرات فذكرتني أصواتها الخافتة بذلك الصباح الذي عزف فيه لحن «شريد مدريد» وسألت نفسي: «أين أنت الآن يا أيها الشريد البائس؟».

عندما كان المدعوون في الغرفة المجاورة يأكلون ويشربون ويفرحون تناهت إلى أذاني أصوات رئيسة وضحكة السنيورة ستيفانيا الرنانة تتدفق تدفقا هائلاً من نحرها السليم المعافى. وسرعان ما ارتخت أعصابي فاستسلمت للنوم الذي عجزت عنه طيلة الليلة الفائتة... وأنا بين الصحوة والغفوة أحسست بضجة هائلة، فقفزت من سريري على الفور، لأرى ماندولينة ليون منزلقة عن الحائط ومرتطمت بالأرضية. فاعدتها إلى مكانها وما هي إلا هنيهة حتى تناهت إلي جلبة الشارع. فاسرعت إلى الدهليزحيث رأيت السنيورة ستيفانيا وضيوفها وقد تملكهم الاستغراب والخوف وهم يتساءلون :

- ما هذا ؟ ماذا جرى ؟

كانت الأرملة الماست واقفة أمام بوابة دارنا متراخية اليدين، مولولة معولة كمن يحترق في الناربينما حمل شرطيان مع بوابنا ليونا وهم يصعدون السلم ومن خلفهما تشاوشينكو وايتسكو.

سرحت النظر في ثياب ليون المبللة ومحياه الكامد ففهمت كل شي. وقص علي تشاوشينكو وايتسكو ما حدث بكلمات معدودة :

لقد اخرج البحارة جثة ليون من تحت الباخرة « خيرسون » التي كانت ستنقله إلى ايطاليا بعد أسبوعين ...

* * *

ألينـــا

الكسندر شيرفانزداه

كان صديقي القوقازي الحميم الدكتور تيفران أخوريان عازما على الحديث أكثر من عادته. كان المقهى الذي جلسنا فيه غاصا بالزوار، إلا إنه كان لنا فيه ركن منعزل عن الضوضاء والصخب. وكنا قد اعتدنا والفنا حياة باريس العاصفة، فعزفنا عن بهارجها ومثيراتها التي تسلب لب كل وافد جديد إليها، خصوصا ان كان من غير الأوروبيين. كما خبرنا أيضاً حقيقة حواري باريس وقد تزين وتخضبن وتضمخن سائحات في الحي اللاتيني وهن يطلقن قهقهاتهن الرنانة وايماءاتهن الرقيقة الجذابة، فكنا نؤخذ ونعجب بهن.

قال الدكتور بعد ان أبعد كوب الجعة الفارغ إلى زاوية الطاولة:

- اود اليوم ان ادفيء رأسي بقليل من الخمرة فهل تنادمني يا الكسندر ؟

فاجبته موافقا، لأني كنت تواقا بدوري للترويح عن كربه نفسي. فامرنا الندل بأحضار الشراب والنقل .

- حبا بالله .. اخبرني عن مفهومك للحب ؟

بادرني بالسؤال وهويضع مرفقيه القويتين على الطاولة محدقا في بؤبؤ عيني بعينيه الذكيتين النافذتين. أقول بأنه فاجأني بالسؤال الذي ما كنت اتوقعه منه. فهو لم يتحدث قط عن الحب طوال عشرين عاما من صداقتنا، فضلاً عن ان حياته غنية بالمغامرات والمخاطرات، بل كان يلتزم جانب الصمت دائماً خلال الأحاديث التي تتطرق إلى النساء ومشاكلهن. فيترك الآخرين يثرثرون ويهذرون لاعتقاده بأنهم أولى بالاستماع إليه والافادة منه في كثير من الأمور والقضايا. يبدو إنه إنسان حنكته الأيام والتجارب فاقنعته بأن من يكثر الحديث عن النساء هو أقلّ من نال ودهن وكسب عطفهن وحنانهن.

لا أذكر الآن بماذا اجبت الدكتور على سؤاله وكل ما يحضرني ابتسامة الرضي التي شعّت فوق شفتيه حينما أخلد إلى الصمت وفكر ملياً ثم استطرد يقول :

- اعرني سمعك يا صديقي، إذ أود اليوم ان أقّص عليك حدثا واقعياً جرى معي ولا أظنّ ان نظيراً له قد وقع مع أي إنسان أذكى والمع مني ولو إلى حد قليل، فهل ترغب في ذلك؟

- بكل سرور .

أجبته ايجابا لعلمي ان حكاية الدكتور اخوريان لا بد وان تكون شيقة ومثيرة لما عرف عنه من طلاوة الكلام وجاذبية احاديثه ازاء مستمعيه .

طيّب الدكتور شرابه بالسكر ومزجه بالماء وشرب عدة جرعات ثم شرع في حديثه قائلاً :

- وقعت الحادثة منذ عهد بعيد يوم كنت في ربيعي التاسع عشر، أي بعد تخرجي من الجمنازيوم واستعدادي للتوجه إلى جامعة العاصمة. كنت فتى قرويا صحيح الجسم، قوي البنية، دمث الأخلاق، وديعاً كالحمل، رغم ان أترابي

الذين فجروا باكراً، وصخب تفليس كانوا كافين لافسادي قبل الآوان. ولكن عجباً للمرأة التي لم تخطر ببالي قط ولم تكن لدى أية فكرة عن الحب والغرام على العموم .!

وجب علي ان أزور أهلي في القرية لاودعهم قبل ان أبارح القوقاز. إلا ان الأقدار أرجأت زيارتي إلى اواخر شهر آب كي تحفظ في حياتي ذكرى ما ساحدثك به. وشاءت ذات الأقدار ان تملي علي قراراً بتبديل محل اقامتي، ففتشت ووجدت في نفس اليوم غرفة كبيرة نسبياً، نظيفة ومشرقة على أحد الشوارع القريبة من مركز المدينة. كانت ربة البيت أرملة روسية الأصل، طيبة وديعة. كما كان زوجها موظفاً عاديا في احدى مؤسسات الدولة انتقل إلى الملأ الأعلى تاركا لها طفلين يتيمين.

في اليوم التالي لا نتقالي لفت انتباهي امر ما. كان ازاءنا منزل متوسط المساحة مؤلفا من ثلاثة ادوار، مغلق الأبواب والنوافذ دائماً ، يترك في النفس انطباعا كئيباً قاتماً. فهو على الرغم من إنه غير متداع أو قديم كالبيوت المحيقة به، إلا ان طبقة كثيفة من الغبار كانت تغطي مصاريع أبوابه ونوافذه .

دلني هذا الواقع على ان البيت قد قفر منذ عهد بعيد. كان اعلان الايجار الملصق على أحد أبوابه قديماً فعلت فيه أمطار الشتاء وأشعة الصيف المحرقة فعلها. كانت أبواب المنزل مفصولة عن الشارع بسلم حجري مكون من خمس أو ست درجات، يرتقيه يومياً أكثر من عدة أشخاص بغية الاطلاع على الاعلان ثم يبتعدون وقد ارتسمت على سيمائهم علائم الحيرة وامائر الدهشة ازاء صاحب البيت الذي لا يكلف نفسه عناء الصاق اعلان جديد. وفي ذات الوقت كنت الاحظ الاسكاف الذي يجاور محرفه تلك الدار، يقترب من الذين حاولوا قراءة الاعلان فيهمس في آذانهم كلاماً بدا لي إنه سر من الأسرار الخفية، إذ كنت أرى سامعيه يسرحون النظر فيما حولهم وقد اعترتهم رعشة من الرهبة والدهشة فيهزون رؤوسهم وينصرفون سراعا.

كان الاسكاف رجلاً نحيلاً ، ربع القامة، وخط الشعر متناثراللحية، أصفر الشارب من كثرة التدخين. لم أكن أدري هل كان كسولاً متوانيا أم ان عمله كان قليلاً ؟ فكنت اراه جالساً أمام محرفه عامة يومه وهو يرشق المارة بنظراته المتفحصة وكأنه جاسوس متطوع تهمه حيوات الآخرين وتشغله عن أطفاله الثلاثة الذين يرتدون الاسمال ويكتسون بالأوساخ وهم يصيحون ويبكون ويضحكون ويقذفون المارة بحجارتهم طيلة اليوم .

توجهت ذات مرة إلى ربة بيتي بالسؤال التالي :

– من هو صاحب البيت المواجه لنا يا سيدة بولينا نيكولاييفنا ؟

امتعضت الأرملة وردت متحسرة :

– لا أعرفه، إذ ما رأيته قط .. ولكن يقال إنه أمير غني عريق المحتد.

– ولما هو خلاء ؟

– ما من أحد يجرؤ على استئجاره.

– وما السبب ؟

– لقد حلّت عليه اللعنة .

– اللعنة ؟ !

– أجل يا سيدي، لقد مرت أعوام ستة والبيت خلاء لا يتجاسر أحد على دخول عتبته .

وهنا روت لي ربة البيت الحكاية التالية :

«عاش في ذلك البيت تاجر وعائلته قبل ثماني سنوات. وفي أحد أيام الشتاء مرض اثنان من ابنائه بالتهاب الحلق ثم توفيا. فانتقل التاجر وزوجته مع ولديه إلى بيت اخر كي يتخلصوا من ذكرى الفاجعة التي حلت بهم. وسكنته عائلة أخرى، ساعاتي وقرينته مع صغيريهما. وفي نهاية الشتاء ذاته اعتل الطفلان وقضيا. كما توفي، في نفس الوقت، ولد

وسيم في التاسعة من عمره وهو ابن الفاكهاني الذي احتل الطابق الأول من المنزل.. وهجر البيت كل من الساعاتي والفاكهاني. وأخيراً، استأجره كاهن جيورجي متمركزا في الطابق العلوي. كان ذلك حين مجيئنا لهذا البيت وكان زوجي لايزال على قيد الحياة. لم يكن الكاهن هرما ولكنه نحيل واهن لدرجة تظنه سيقع أرضاً بمجرد نفخة من فيك. وكان له ثلاثة أطفال، يكبر واحدهم الآخر بسنة لا أكثر. وفي الشتاء التالي، ويا لسوء الطالع، مرض الأطفال تباعا وماتوا بأسبوع واحد. إني لن أنسى ما حييت ذلك اليوم المقيت الذي خيل لنا فيه ان الكاهن وزوجه سيد لهان حزنا وفرقا على مصابهما الجلل، ولكنهما ماد لها وما هلكا. وان نسيت فلن أنسى أبداً يوم رحيلهم عن البيت. كنت واقفة انئذ عند تلك النافذة أرقب الناس المتدفقين إلى الشارع. وبعد ان حملوا آثاث البيت على العربة أطل الكاهن وزوجته وقد اتقدت عيناهما كالجمر حزنا وغضبا. ثم نزل الكاهن درجات السلم بخطى مرتجفة ليتوقف في وسط الشارع، مديراً وجهه ناحية البيت ورافعا يده اليمنى إلى السماء وهتف بصوت عال:

- «لعنة الله عليك يا ملجأ الأرواح الشريرة . لتحل اللعنة على بانيك وصاحبك. أتوسل إليك يا إلهي ان لا تدع في رحابه أي نوع من البشر وان تفجع مالكه كما فجعت أنا وعائلتي» .

وتابعت سيدة البيت متأوهة فقالت :

- يقال ان زوجة الأمير واثنين من أطفاله قد قضوا نحبهم في ذلك الشتاء بالذات. ومنذ ذلك اليوم يا سيدي والبيت قفر خلاء لا يرغب أحد في استئجاره ابدا. وكل من يتوق لاستئجاره، دون علمه انه بيت ملعون، يسارع ذلك الاسكاف لتحذيره وتذكيره بكل ماحدث فيه من مآس وفواجع. فضلاً عن إنه يقنع الآخرين بأن أصواتا غريبة تتناهى إلى أسماعه من حنايا ذلك البيت ومن ان أرواحا شريرة قد لجأت وسكنت فيه. فمن يدري يا سيدي؟ !

حينما ابتعدت ربة البيت عني شعرت بقتامة نفسية غريبة وتساءلت في قرارة نفسي : «هكذا اذن ، لقد عمت اللعنة هذا البيت، ولكن لماذا ؟ لعل السبب بسيط جداً ؟ وهو ان البيت لم يطهر من جرثومة المرض التي أودت بأبناء التاجرأثر التهاب الحلق. فأصاب هذا الداء أبناءالساعاتي واودي بهم». وهنا تأثرت وعطفت على البيت المسكين وكأنه إنسان حي يحرك في مشاعرالهم والغم كلما وقع بصري عليه. كانت نوافذه الموصدة دائماً تذكرني بأجفان إنسان ميت رقد في نعش الأبدية .

بعد أطراقة قصيرة جرع الدكتورآخوريان بقية كأسه ثم قال بصوت متهدج من الانفعال :

– وذات يوم انفتحت تلك العيون المغلقة وها أنذا أقص عليك ما رأيته بالتمام: «كنت جالسا أمام نافذتي أقرا رواية روسية جديدة. فرفعت رأسي لحظة لأرى رجلاً فارع الطول يحاول قراءة الأعلان دون ان يجد لذلك سبيلاً، فعاد أدراجه وهو يجر أذيال الخيبة. كان محياه ممتقعا جامداً يثير الذهول والاستغراب. كان رجلاً فارعا، ذا أنف حاد طويل، وشارب وخط منتوف بعناية فائقة، ولحية حليقة. كما كان منظره على العموم يوحي بأنه أوروبي فيميزه عن النماذج المحلية ويدل على إنه اجنبي وصل لتوه من خارج البلاد .

حدق الغريب فيما حوله بفضول كبير وحيرة ملموسة كمن يبحث عن شخص يوفيه ببعض المعلومات عن البيت. فما كان من الاسكاف إلا ان تقدم منه واعلمه بما كان يخبر به الآخرين من البيت للايجار ولكنه ملعون إلى أبد الأبدين .

وفكرت بالطبع ان الغريب سيلوذ بالفرار حتما. ولكن العكس قد حدث، فبدا لي إنه مهتم بكلام الاسكاف مستزيدا إياه التفاصيل ثم ابدى حركة تصميمية وأوصى الاسكاف أمراً ما. فابتعد الأخير متبرما وجما. وبعد مرورثوان معدودات جاء الحارس المهتم بأمرحراسة البيت اللعين واقتاد الغريب عبر السلم الحجري وهو يخرج مفتاحا من جيبه ليفتح باب

الطابق العلوي وليد خلاه سويا. وبعد دقائق، خرج الاثنان معاً ثم شاهدت بأم عيني كيف انقد الرجل الطويل الحارس حفنة من الأوراق المالية، موكلا إليه القيام بكافة الاجراءات والترتيبات اللازمة ثم انصرف بخطى وئيدة .

واتضح ان الغريب قد اكترى الدارة حينما شاهدت الحارس وشخصا أخرا ينظفان الغرف والنوافذ والأبواب. وحينما أقبل المساء وقفت أمام البيت اللعين عربتان محملتان بالأثاث الذي بدا إنه قد اشترى حديثاً. وبعد افراغ العربتين جاءت مركبة أنيقة نزل منها الرجل الطويل أولا ثم تبعته امرأة حشيمة اللباس. ووقف الاثنان باسطين ذراعهما لاستقبال امرأة غطت وجهها بخمار كثيف، هرولت مسرعة على السلم الحجري ثم ولجت البيت .

لقد تم كل ذلك في ظروف من الصمت المطبق والغموض المبهم، مما أثار اهتمامي بهم أكثر فاكثر. وفي الغداة انفتحت النوافذ لمدة ساعتين من الزمن ثم اغلقت كما كانت عليه سابقا. فشرعت اواسي البيت.المسكين الذي بدا لي كميت يفتح عينيه لحظة فيتلفت حواليه ثم يتحسر ويتوجع فيعود إلى كفنه مجددا .

(ب)

تأوه الدكتور آخوريان وأمر الخادم باحضار المزيد من الشراب بينما جرّ دخان لفافته ونفثه في الهواء بتؤدة ليتابع حديثه قائلاً :

– وفي المساء دخلت علي ربة البيت بادية الاستغراب وقالت:

– هل علمت بأمر تأجير الطابق الأعلى من البيت اللعين ؟

– علمت بذلك ، ولكن من هم هؤلاء القوم ؟

– لا أدري. وكل ما عرفته من زوجة الاسكاف بأن زوجها حين أعلم الغريب باللعنة التي حلت بالدار قد ردّ عليه بكل برود قائلاً : « هذا ما اتمناه » وبعدئذ أستاجره دون أية مساومة.

فسألتها باستغراب :

- اليس في الأمر غرابة ؟

- نعم، الأمر في منتهى الغرابة !

- هل بمقدورك معرفة هوية ذلك الرجل الطويل؟

- يبدو ان زوجة الاسكاف مهتمة بالأمر جدا وستخبرني بما يطرأ عليه .

وجاء الخادم بالشراب فامضى الدكتور دقائقاً في اعداده ثم شرب قليلاً وأردف يقول :

- الآن تبدأ حكايتي ولكني أخشى ان تكون يائساً من مقدمتي الطويلة ؟

- على العكس، فأنا مستعد لسماعك حتى منتصف الليل.

أجبته بكل صدق وحماس إذ كانت قصته شيقة ومثيرة جداً.

- ليس من السهولة بمكان التحدث عن كل ذلك ولكني ساحاول الاختصار قدر استطاعتي كي انهي حكايتي التي بدأت بها. وهكذا يا عزيزي، فإن المنزل الراقد قد استمات ثانية بعد ان فتح مقلتيه أنا من الزمن. كنت أرقب النوافذ لأسبوع كامل علّ احداها تكون مشرعة ولكن عبثاً حاولت، فما من بادرة تنم عن الحركة أو الاشارة. وخيل لي ان الرجل الفارع والسيدة ذات السلاب واولئك الخدم وختاما العربات والآثاث ليسوا إلا أشباحا تراءات لي آنا ثم اختفت إلى الأبد. وفكرت في قرارة نفسي: «ترى، هل اودت بهم لعنة الكاهن إلى الهاوية؟» .

وفي أحد الأيام وبينما كنت ارتدي ملابسي واتهيأ للخروج في العاشرة صباحا وإذا بالباب يفتح فيخرج منه الرجل الفارع إلى الشارع مسرحا النظر إلى النوافذ المغلقة ومبديا ارتياحه بأن ألقى نظرة سريعة إلى اليمين واليسار ثم مشى بخطى رزينة وقورة إلى المجهول .

انها المرة الأولى التي يخرج فيها من البيت أو لعلها المرة الأولى التي لمحته فيها. وفي اللحظة التي عزمت فيها على الخروج انفتحت درف النافذة وظهرت أمامها امرأة تلبس الحداد وقد زينت صدرها وردة صفراء كبيرة. فاسندت يدها على درفة النافذة وسرحت بنظرها إلى الشارع فيما هي واقفة بلا حراك. وارتعشت لرؤية تلك المرأة وتسمرت في مكاني لا ارادياً. كانت امرأة متوسطة العمر، رشيقة القد، ارخت خصلات شعرها الفاحم الكث على كتفيها العاريتين وقد ربطت ما فوق جبينها بشريط بنفسجي رقيق، وطوقت جيدها الناصع البياض بشريط أسود. كانت جامدة الملامح تنظربعينيها النجلاوتين الساجيتين النافذتين إلى اللامحدود من تحت حاجبين رقيقين ظريفين. غريب هو بريق تينك العينين !يبدو ان منظراً مرعباً ومخيفاً قد أشرق في بؤبؤيها فانطبع فيه إلى الأبد كانطباع الضوءعلى زجاج كاميرة التصوير. ويا لروعة تلك الصورة التي اطرتها النافذة فغدت شبيهة باحدى اللوحات الرائعة التي ابدعتها عبقرية موريللو ! كنت سعيداً جداً لأن المرأة لم تكن تراني فيما كنت حراً طليقاً في تمتيع ناظري بذلك الجمال الفتان كمن يذوب في النظر إلى ابداع فني فريد وأصيل. ولكن ياللأسف.. لم يدم المشهد طويلاً، إذ ابتعدت المرأة عن النافذة بخطى وقورة بينما أغلقت يد نسائية أخرى النافذة، وكأن البيت الذي كان سيتبارك لحظتئذ قد انبهر ثانية .

تكرر هذا المشهد للمرة الرابعة في نفس الوقت دائماً، أي بعد خروج الرجل الطويل من البيت. إلا ان تلك المرأة لم تلتفت نحوي قط فقد كانت نظراتها الواسعة كالبحر رانية إلى اللانهاية. وكان يخيل إلي ان أفكارها وخواطرها بعيدة وقصية جدا أكثر من محيطنا، لا بل إلى ما وراء الدنيا.

منذ هاتيك اللحظة فقدت كل احساس بالراحة والنوم والشهية. فاضعت شبابي المرح، ونسيت كتبي وجامعتي وسلوت رفاقي وحتى أهلي وكل شيء في الوجود. وأصبحت تلك المخلوقة الغامضة مادة حية لافكاري وأحلامي. فما ان

انهض من فراشي حتى أطير إلى نافذتي لأتسمر أمامها ولأرسل بصري إلى نوافذ ذلك البيت الملعون - استغفر الله فهو لم يعد لعينا بالنسبة لي على الأقل، لأنني شرعت اوجه اللوم واللعنة عل كل إنسان ينال من قدره .

انصرمت أيام عديدة لم تفتح نوافذ البيت فكنت أتعذب وأشقى. ولكن علام هذا الشعور ؟ وأي حق لي في ذلك؟ هذا ما لم أفكر به قط ، لأنني كنت كمن أصابه مس من الجنون. وكنت موقنا في دخيلتي ان ما أفعله لا يعدو ان يكون عملاً صبيانيا مائعاً لا يستأهل سوى الهزء والسخرية من انسان وله بفتة بمخلوقة لم يستحق ولو نظرة عابرة من لحظيها ولم يشنف أذانه بسماع نغمة من صوتها. لقد كنت شبيها بذلك الناسك المتعبد الذي انفتحت الستارة أمام ناظريه عن فردوس عجيب ثم اسدلت ثانية، فإذا بالكرب يعصر فؤاده والغم يعصر روحه دون أن يساءل نفسه عما إذا كان خلوقا بتلك الجنة أم لا .

باتت تلك الصورة البديعة أشبه بشبح لا مرد ولا محيد عنه. شبح يعذبني في يقظتي نهاراً ويقض من مضجعي ليلاً. وخيل لي إني بت أسيراً شدت حول عنقه حلقة ذهبية طفقت تتحكم به يوماً بعد آخر وساعة بعد أخرى.

وكرع الطبيب آخر جرعة في كأسه الثاني ثم واصل حكايته قائلاً :

- ان تنبواءات الإنسان تصدق أحياناً لدرجة تجبرك على الأيمان بتلك القوة الخفية التي تتحكم في مصائرنا وأقدارنا. فذات صباح، وبعد ان اغتسلت وشرعت أمسح وجهي، توهمت ان تلك المرأة واقفة أمامي، تماما كما تظهر الصورة على شاشة السينما. وأحسست في دخيلتي بأنها ستظهر على نافذتها حالاً وستنظرني في هذه المرة. فبادرت لارتداء ملابسي ثم جلست قرب نافذتي ممسكاً كعادتي بكتاب ما. لم أكن قد شاهدت خروج الرجل الطويل يومئذ ولكني كنت واثقاً بأن تلك المخلوقة الساحرة ستظهر توا. وفعلاً

برزت بنفس اللباس ذي الوردة الصفراء على صدرها. فأخذت كرسيا وجلست عليه، واضعة مرفقها الأيمن على قاعدة النافذة ثم اسندت رأسها على راحتها ورنت ببصرها إلى الافاق البعيدة .. ترى، ماذا افتقدت أو وجدت هناك؟ لعلها وجدت أشيا ء كثيرة أو لا شيء على الاطلاق؟ يالله .. كم كانت نظرتها باردة وعميقة في ذات الوقت ؟ !

لم أكن اتصيّد نظراتها ليقيني بأنها ستلتفت إلي حتما. إني لست من اولئك المزهوين الذين يتباهون ويفتخرون بأنفسهم كثيراً فيصرحون بأنه ما من امرأة تمر بهم دون ان تعيرهم التفاتها الكريمة. ولكني لم أكن وضيعا لحد اعتبر نفسي ضئيلاً وتافها. فأنا لم أكن طامعا في كسب ودها وعطفها، لأنها بعيدة المنال في نظري وقصية عني مثل نجم يسطع نوره من الفضاء الذي لا يحد. كنت أحدق في جمالها الخلاب مذهولا ومباركا في سري عبقرية الطبيعة التي أبدعت معجزة خارقة لتكون مسرحا لنزواتي الرعناء واهوائي الحمقاء .!

ترى، لمن هذه المخلوقة؟ من الذي يتمتع بهذا الجمال الإلهي؟ هل إنه ذلك الرجل الطويل ذو الهيأة الشريرة؟ ان كان الأمر كذلك، فتباً لهذه الحياة التي ارتكبت إثماً منكراً ورجساً فاحشاً حين جمعت بينهما في قران الزوجية .

يا للعجب.. لقد نظرت إلي.. يا لها من لحظة سعيدة ورهيبة! لقد ندت عن فمها ابتسامة.. يا للغرابة.. إنها بسمة ملأى بالألغاز والأحاجي فاعرتني رعشة من الرهبة والرغبة. كانت ابتسامتها لطيفة وكريمة لكنها مشوبة بالغموض، لأن بريق عينيها الزرقاوين كان بارداً كحبات الفيروز. وتملكني شعور من الرهبة حين بدا لي ان نظرتها الثقيلة الثاقبة قد اخترقت كياني وكأنها تيار حار وصاقع هبّ في داخلي، فبت لا أدري هل أرد علي الابتسامة بمثيلتها، أم لا ؟ ولكني طأطأت رأسي وتظاهرت بقراءة الكتاب الموضوع أمامي بينما كان فؤادي يرتقص في داخلي والرهبة تستبد بي مثل طفل قبض

عليه متلبس بالجريمة. فخارت قواي عن النظر إليها. وحينما التفت ثانية، كانت النافذة لا تزال مشرعة أما المرأة فقد غابت عن الأبصار...

كان خيالي الصبياني البريء قد سما إلى اجواء تلك المخلوقة الغامضة. وكانت جل أفكاري ومشاعري تحلق في رحابها، فلم أعد أشعر بما يدور حوالي من أفراح وأتراح الناس، وبت أرى الدنيا والكون ممثلين فيها وحدها، إذ كنت أحيا بحياتها وأتنفس من أنفاسها. وغدوت زاهدا في مقابلة معارفي وأصدقائي، وأصابني ما يصيب إنسان جشع وقع على كنز دفين فاستبد به القلق والاضطراب، إذ لا طاقة له على اخراج الكنز بمفرده ولا بمستطاعه اعلام أحد بمكانه، خوفا من ان يسرقه أو ينهبه. كما كنت اعتبر الحديث عنها جريمة منكرة وبلاهة ما بعدها بلاهة. فهو جريمة لأن الناس عموما، ورفاقي الاعزاء خصوصا كانوا سيجرحون مشاعري ويدنسوا قدسيتها. وهو بلاهة، لأنني قد أكون موضعا للهزء والسخرية ازاء ولعي بامرأة لا أعرف حتى من هي ولم ابادلها كلمة واحدة على الأقل.

وهكذا كنت أتعذب وأشقى صامتا مستكينا مذعنا .

وفي احدى المرات سالتني ربة بيتي الوديعة قائلة :

- مالي أراك لا تبارح غرفتك اطلاقا؟

فكذبت عليها دون ان اتضرج خجلاً ومن غير ان أفكر بدراستي عامة، فقلت لها :

- اني منشغل بتحضيردروسي اذ ستفتح الجامعة عما قريب.

كنت اجيب رفاقي وزملائي بنفس الجواب عندما كنت اراهم في طريقي لقضاء بعض حاجياتي الضرورية .

(ج)

كانت تظهر يوميا أمام نافذتها، مرتدية ثوبها الأسود المطرز بوردة صفراء كبيرة عل صدرها.

وعجزت عن تمالك زمام نفسي ذات مرة، فسلمت عليها بايماءة خفيفة من رأسي أثناء التقاء نظراتنا. ولكني عبثاً حاولت ان اتصيد جوابها أو ما ينم عن رضى ذلك الوجه العاجي و تينك العينين الساجيتين الصافيتين كالسماء الزرقاء. لقد كانت ترمقني بنظرة باردة وكأنها لا تراني اطلاقا.

فندمت على جسارتي وشرعت الوم نفسي غب ابتعادها عن النافذة. وشعرت في ذات الوقت ان كرامتي قد اهينت كأي شاب في عمري لا يلقى عطف وعناية المرأة التي يعشقها حتى العبادة.

كنت جالسا إلى طاولتي محاولاً اشغال نفسي بأمر ما، كالكتابة والقراءة، لا نسى ولو لبرهة من الزمن مشاعري الحمقاء وأحاسيسي البلهاء. ولكني عبثاً حاولت ، فقد كانت ريشتي أعجز عن ان تتحرك للكتابة كما كانت الحروف تتراقص أمام عيني كنمل يعبث في الأرض.

وفجاة تناهى إلى مسامعي صوت البيان فالتفت إلى نوافذهم دون ان أرى أحداً. ولكني تيقنت أنها هي العازفة للمرة الأولى خلال الأسابيع الثلاثة. وعجزت عن تفهم اللحن الذي عزفته، فهو عبارة عن ثلاث نوطات لا تتغير ولا تتبدل، وإنما تتكرر مرة بنغم عال وأخرى منخفض. كانت ألحانا سقيمة تثير الأعصاب، تتردد عدة مرات في اليوم ولذا فهي ما فتئت ترن في آذاني حتى هذه اللحظة وسأظل أذكرها ما حييت أبداً. وعلى حين غرة تملكني شعور خبيث من الريبة والشك قلب حياتي رأساً على عقب. وهو ان الناس المعافين الأصحاء لا يعزفون بهذا الشكل، أساتذة كانوا أم تلاميذاً في العزف. وتيقنت ان النوطات الثلاث كانت مكبوتة بروح يشوبها الحزن واليأس، والابهام والغموض.

وضعت سيدة البيت الغلاية على طاولتي وتوقفت لترسم علامة الصليب على صدرها، بينما كانت ترمقني بنظرة أموية تقريعية، فسألتها ضاحكاً :

- علام تحدقين في هكذا يابولينا نيكولا ييفنا ؟ هل إني متبدل كثيراً؟

- أجل يا بني، لقد تبدلت لدرجة تكاد لا تعرف فيها وهذا مالاحظه أبنائي وجيراني أيضاً.

- ولكني معافى تماماً يا سيدتي وبمقدوري ان أرفعك بيد واحدة.

حقاً، إنني كنت قادراً على احتضانها ورفعها فهي سيدة كريمة وأم رؤوفة جداً ، فردت متحسرة.

- أرجو الله ان أكون مخطئة وان يرعاك لأهلك ويحفظك لذويك .

ثم سألتها محاولاً تغيير دفة الحديث :

- أما من معلومات جديدة عن جيراننا ؟

- الخبر الجديد هو ان زوجة الاسكاف قد علمت من البواب هوية جيراننا الجدد .

هذا ما كنت أصبو إليه ولكني تظاهرت باللامبالاة وسألتها :

- حقاً ؟

- نعم

- من هم . ؟

- رجل وامرأة : زوجان .

- أهذا صحيح ؟

صرخت وقد عجزت عن كبت فضولي ومرارتي معاً .

- بلى، ولكن لا أطفال لهما .

- وماذا بعد ؟

- إنهما ليسا محليين . لقد قدما من القرم .

- ما هي كنيتهما ؟

- دعني أتذكر .. أزو .. فسكي .. نعم ، أزوفسكي ...

- هل هما روسيان ؟

- كلا ، إنهما أرمنيان. لقد أخبرني الحارس إنه رأى جواز سفرهما وقد كتب فيه: الجنسية: أرمني غريغوري.

- هل حضرا إلى تفليس حديثا ؟

- لا بل منذ أشهر عديدة. لقد نزلا في الفندق أولاً ثم أستاجرا بيتاً واشتريا الأثاث حديثاً.

- وماذا تعرفين أيضاً ؟

سألتها متكلفا السخرية وكان معلومات الأرملة لا تثير فضولي اطلاقا.

- لا شيء الآن. ولكن حذار من صحتك يا سيدي فقلبي ينفطر ألماً على أهلك المساكين.

- أشكرك من كل قلبي يا بولينا نيكولا ييفنا ولكن لا تقلقي بسبب فصحتي كالحديد تماماً .

كنت في واقع الأمر معافى البدن مريض الروح والنفس.

وابتعدت الأرملة هازة رأسها من فرط الانفعال .

وتيقنت إنها كامرأة عاقلة قد تمكنت من سبر اغوار حالتي النفسانية وإنها باتت عليمة بسبب مكوثي في البيت وما هي العلة في تبدلي وتغيري. وبدا لي إنها شددت عمدا على ان المرأة ذات الثوب الأسود متزوجة.

لن أصف لكم الانطباع الذي تركه في نفسي ذلك الخبر المقيت فاكتفي بالقول إنه كان ضربة قاصمة وقاضية، لم تردني إلى وعيي وإدراكي، بل اججت النار في أعماقي. وطفقت أكره الرجل الفارع وأحقد عليه من أعماق روحي الشابة. ترى، لماذا ؟ وبأي حق ؟ ومن أنا ؟ تلك اسئلة لم أفكر بها قط. هب ان ذلك الرجل خير الأتقياء وأبر الأخيار ولكني اعتبرته عدوي اللدود الذي أسعى للقضاء عليه دون أي مبرر

لذلك سوى إنه بعل تلك المرأة الجميلة. وقد اعتبرته طبعاً، إنساناً عاتيا ظالما أسر ملكة الجميلات ليكبلها بالاغلال والأصفاد وليفرغ عليها قوته وبأسه. انه إنسان أعمته الأنانية الآسيوية المتوحشة فشرع يعذبها ويمرمرها فداء لنزواته العمياء الكامنة في ذاته الموحشة. وإلا فما معنى النوافذ الموصدة أبداً والتي لا تفتح سوى مرة واحدة في اليوم ولساعات محدودة ، أي أثناء غياب الوحش الكاسرفقط:؟ وما معنى انطواء تلك المرأة على نفسها وعزلتها في ذلك البيت، مما يزيد في شحوبها وانتقاعها وتوسع بؤبؤ عينيها النجلاوتين وازدياد الزرقة في لحظيها من يوم لآخر؟ وكيف يمكننا ايضاح تلك النوطات الثلاث التي تتكرر يومياً تكراراً روتينيا يثير الانفعال والاضطراب؟ رباه ! انقذني من خطر الجنون ونجني من هذه الانغام النشاز التي تعتمل في تلك الروح المعذبة فتفطر فؤادي دماً وتسحن روحي سحناً. اواه، هل تدري تلك المرأة ان انغامها وحدها كافية لتعذيبي؟ وهل تدري يا ترى بإني على أهبة الاستعداد لاخراج رأسي من النافذة كي أهتف بأعلى صوتي: «كفى. كفى أيتها العاتية فأنا لم أعد أطيق تلك الألحان المجنونة».؟ !

توقف الطبيب مجددا فشدّ شعره الأشيب القصير بحركة عصبية وصرّ على شفتيه بأسنانه كي يخفف من انفعاله وانقباضه. كان غارقاً في لجة من ذكريات الماضي حين أشعل لفافة جديدة واستطرد حديثه بشي من الوجوم :

– كنت جالساً ذات صباح إلى طاولتي أكتب رسالة لأهلي المساكين الذين نسيتهم منذ زمن بعيد. كنت أكتب وكل تفكيري واهتمامي مشدودان إلى ذلك البيت الملعون، مترقبا خروج ذلك الرجل الطويل في العاشرة صباحا ليعود إليه في الثالثة من بعد الظهربدقة تفوق الكرونومتر. ففي تلك الفترة بالذات كانت تنفتح النافذة لتطل منها المرأة اللابسة السواد .

خرج الرجل في موعده المحدد بالضبط ومرّت ساعة كاملة وانتصف النهار دون ان تظهر المرأة. فبدأت أقلق وأثور فأسأل نفسي: «لعلها مريضة؟ أو لعل الطاغية قد حرمها من حريتها البسيطة هذه؟ ترى، هل اني لن أراها بعد اليوم؟». ولكن ذلك أمر محال يودي بي إلى أسوء حال. وفي الواقع، لو رآني أحد ما وأنا أزرع الغرفة جيئة وذهابا مثل نمر هائج في القفص، لأيقن ان بي مسا من الجنون. لقد بت أتخيلها ملكي الخاص، فأثور وأرغي وأزبد لحرماني منها.

وأخيراً، أحسست بجدران الغرفة تنقض على روحي فتسحنها سحناً. فقررت الخروج وقد عزمت الأمر على ارسال الرسالة لأهلي. ولكني ماكدت أخرج إلى الشارع حتى انفتحت النافذة الحبيبة وأطلت المرأة منها وقد أمسكت بمظروف في يدها. فسلّمت عليها بحركة آلية دون وعي مني لصلاحياتي. ولكنها حركّت رأسها قليلاً.. عجبا.. ها هي تشير إلي بالظرف.. فارتعدت وارتبكت دون ان أبدي حراكا. فما كان منها إلا ان القت الظرف إلى الشارع متوارية عن الأنظار.

التفت يمنة ويسرة وسارعت لالتقاط المظروف. وكان من حسن حظي ان أحداً لم يرني. وعرفت فيما بعد ان الظرف موجه لي شخصياً ولكني لم ألمح اسمي عليه. فهرولت إلى غرفتي وبادرت لفتحه وقلبي يخفق خفقاناً شديداً ويداي ترتعشان فرحاً وهلعاً، انتظاراً وترقبا.

كانت رسالة مكتوبة باللغة الروسية على صفحة واحدة فقط. رسالة غير معنونة لا لي ولا لأي شخص آخر، فقرأت ما كان مكتوبا دون ان أفهم شيئا.. فهي ذات خط غريب أولا، والحروف مبهمة والسطور مضطربة تتروا ح كلماتها بين صغيرة لاتكاد ترى بالعين المجردة وكلمات مكتوبة بأحرف كبيرة جداً، ثانياً.

وفي المستقبل أي عندما أصبحت طبيبا يتدرب في إحدى المستشفيات شاهدت بأم عيني خطوطاً تماثل ذلك الخط

وقد كتبها اناس مثقفون إلى حد ما وهم تحت تأثير الأمراض النفسانية.

كانت الرسالة غامضة لم أفهم منها سوى اسطر ثلاثة لازلت أذكرها عن ظهر قلب: «لقد أحب فولتيمير ألينا التي اجابته بالرفض ورآه الوحش الذي ثار عليه وقتله... قتله...قتله.

ما مغزى تلك السطور ؟ ذلك ما لم أفهمه يومئذ وكل ما استنتجته ان تلك المرأة المجهولة مصابة بمس من الجنون، فانّبت نفسي لتأخري في تشخيص مرضها. نعم، ان نظرات تينك العينين البلوريتين، والابتسامات الحائرة المبهمة والنوافذ الموصدة ابداً والنوطات الثلاث المتكررة. تكراراً روتينياً رتيباً، وكآبة وسوداوية الرجل الفارغ، كل هذا وذاك ليس سوى أكثر من دليل قاطع يؤكد ما أقوله.

اخفيت الرسالة في درج طاولتي بينما كنت اقرأها يومياً ولازلت احتفظ بها ذكرى لأهواسي المجنونة، وليالي الارقة، ودموعي التي انسكبت شآبيباً عجزت عن وقفها. لا، ان تلك الرسالة بمثابة قدس الاقداس لحب ناري لن يتكررفي حياتي أبداً. طبعاً، لو كنت يومئذ ذا بصيرة نافذة وفكر متوقد قادر على التبصر في عواقب الأمورلكنت -بعد قرائتي للرسالة - ارتعوت ولما مضيت في أوهامي وخيالاتي ولعملت على اخماد جذوة النارالتي توقدت في حنايا فؤادي مع مرور الأيام. أليس انتحاراً حقاً ان تحلم بامرأة لا يتعدى وجودها حدود الخيال؟ امرأة خطفتها يد الطبيعة القاسية من الأرض لتسلمها ولتحرقها في اتون الأوهام. واعجباه! لقد تضاعف حبي لتلك المرأة منذ ذلك اليوم. ترى، هل هوعطف روح مراهقة ازاء مسكينة تستوجب الحنان وتستحق الرحمة؟ لست أدري على كل حال.

دخلت علي ربة بيتي في الغداة لترتب غرفتي كعادتها. كنت تعباً جداً لدرجة رجوتها فيها ان تتركني وشأني. فرمقتني بنظرة حانية حزينة ثم قالت :

- أعرف انك متوعك ولكن لدى خبر يهمك .

- ما الخبر ؟ .

-المرأة الساكنة قصادنا مصروعة . !

وتظاهرت باللامبالاة قائلاً :

-احقاً ما تقولين؟

-بلى يا سيدي. هل تود سماع حكاية صرعها كما نقلتها إلي زوجة الاسكاف عن خادمة آل ازوفسكي حرفياً ؟ .

- قصيّ علي ذلك حباً بالله.

جلست ربة البيت إلى طاولتي منزلة أكمام ثوبها كي تغطي ساعديها اللذين احرقتهماالسنة اللهب وخشنتهما صروف الدهر ثم حكت لي ما يلي:

(د)

انصرمت أعوام ثمانية على زواج آل آزوفسكي. كان اسم الزوج سرابيون والزوجة: ألينا. كان الزوج اقطاعياً ثرياً عريق المحتد ورث عن أبيه الاف الدونمات من الأراضي الخصبة في ولاية بيسارابيا، وهو ما فتىء ضابطاً في الجيش. أما ألينا فهي فتاة ذات ثقافية عالية وابنة مقدم فقير في قوات المؤخرة. لقد تزوج سرابيون بها مأخوذاً بجمالها الساحر الفتان. كما وافقت ألينا على الزواج منه نزولاً عند مشيئة أهلها الذين حلموا بعريس غني من كل ولا بد، يحدوهم أمل لا يُحد في ان تعيش كريمتهم الوحيدة رغيدة سعيدة، خصوصاً وانهم كانوا يصابحون الحاجة ويماسونها.إلا ان ظنهم قد اضمحل وتلاشى حينما لم تشعر ألينا بالحب ازاء زوجها سرابيون ولم يستطع أحد ما ان يترك أثراً في حياتها حتى موعد قرانها.

وعاش آل أزوفسكي حياة هادئة ورتيبة مدة تزيد على الأربع سنوات. فاعتادت ألينا على جماع بعلها الذي لاتكن له ذرة من الحب، تماماً كما تعتاد عليه غالبية النسوة في الدنيا.

وخيل للناس الذين يحكمون على حياة الآخرين من مظاهرهم بانهما أسعد زوجين في العالم. ولذا حسدت النسوة ألينا وغار الكثيرون من الرجال على سرابيون. وفي العام الأول لزواجهما انجبا طفلهما البكرالذي توفي في الثانية والنصف من عمره أثر التهاب في الدماغ. فزادت هذه الفاجعة من مرارة وقسوة الرابطة الزوجية، فكان الاحتقار الذي شعرت به ازاءه حينما عرفته أول مرة، هو ما كانت تشعر به الآن، رغم ان سرابيون قد ازداد ولعاً وحباً لزوجه على كر الأيام والأعوام. يبدو ان وفاة الطفل قد دفعت ألينا إلى اليأس والسأم من الحياة بينما كان الزوج العاشق يبذل قصارى مساعيه للترويح عن عقيلته التي يعشقها حتى العبادة. إلا ان مساعيه قد ذهبت أدراج الرياح، فألينا تشتد كربتها النفسانية يوماً بعد آخر، خصوصا بعد ان مات والداها تباعا في فترة لا تزيد عن الشهرين من الزمن.

في أحد أيام الخريف من ذلك العهد نزل عليهم في بطرسبورغ ضيفا من القرم كان ابناً لأحد أقارب سرابيون الأعزاءعليه جداً. كان شابا في الخامسة والعشرين من عمره، أشقرالشعر أشعثه، وسيم الوجه طلق المحيا، تبدو عليه امائر النجابة والألمعية. وبعد ان تعرف على ألينا وتنزه معها لمرات عديدة ولع بها ولعاً شديداً. ولكن ما هو موقف ألينا؟ هل أخذت به أيضاً؟ ذلك أمر مجهول إلى الآن. وكل ما كان ملحوظاً، إنها قد تبدلت كثيراً، فقد شعرت بانفراج في كربتها وانقشع القنوط واليأس عن حياتها، فأخذت تتقرب من الناس وتوادهم .

لاحظ سرابيون هذا التبدل المفاجيء وانشرح صدره لانقشاع الغيوم الدكناء عن روح زوجته وفرح لأوبة النشاط والمرح والفرح إليها. ولكنه شرع يرتاب للأمروبغارعلى ألينا. وفي أحد الأيام، فقد زمام أعصابه واساء استقبال ابن صديقه. فعارضته ألينا، متوسلة بأنها تمجّ العنف وتكره الفظاظة كرها مقيتا، مما زاد نارالغيرة اشتعالاً وتوقداً، فقال لها:

- نعم، لقد لاحظت اهتمامك بهذا الشاب من أمد بعيد.

فردت عليه بجرأة وتفان:

- لا أخفي عليك ان سبيريد ونوف يروقني، ولكني لن أنسى أبداً أني زوجتك .

آمن سرابيون بكلامها لحظة وتأهب لطلب المغفرة منها، ولكن ما ان انتهت اللحظة حتى استبدت به الريب والشكوك ففقد توازنه واضاع رجاحة عقله .

وأخيراً، وقع ما لا مندوحة عنه حينما آب سرابيون إلى بيته ليشاهد زوجته تعزف على البيان وسبيريد ونوف يغني. كانا غارقين في بحر من النشوة والمتعة حتى إنهما لم يلحظا ولوجه إلى البهو. فاحتد واشتد ولكنه تمالك زمام أعصابه ودخل غرفته الخاصة دون ان يقرىءضيفه السلام.

واستمرت ألينا في غنائها محاولة اخفاء غيرة زوجها أمام الشاب، وكلها أمل في أن تثبت لزوجها ان ما تفعله ليس بالشيء المنكر، وإنما متعة بريئة لشابين يعشقان الموسيقا والغناء.

واساء الزوج فهم مشاعر ألينا. فخيل له إنه امتهان حقير لشيخوخته النسبية أو ازدراء بشع من زوج في ربيعها الثالث والعشرين لزوج في الثانية والأربعين من عمره أو إنه استخفاف بقدره أمام شخص ثالث وبحضور شاب ربما كان الدافع الأعظم لكل ما جرى من مصائب.

فخرج من غرفته الخاصة ثائراً ممتقعا وقد فقد زمام سيطرته على أعصابه ليهتف بصوت آمر:

- كفى يا ألينا .

وافتر ثغر ألينا عن ابتسامة رقيقة وعزفت قليلاً، وأغلقت غطاء البيان بهدوء وروية. كان الشاب قد أطلق ابتسامة ندية حلوة ارتسمت على وجهه الأمرد نفذت كالسهم لتمزق قلب سرابيون الهائج المائج ، الذي امتلأ حقداً وغيرة فقال بصوت متهدج من الانفعال :

- إني مسرور ومكروب لكونك ابن صديقي .

- لماذا ؟

- هكذا ، وبكل بساطة .

- إني أفهمك تماما.. حسناً.. سانفذ الرغبة التي تعشعش في حنايا فؤادك.

ثم التفت إلى ألينا وأردف قائلاً :

- أرجو المعذرة يا سيدتي، إذ ليس بمقدوري ازعاج زوجك بعد اليوم.

وانقطع سبيريد ونوف عن زيارة آل زوفسكي منذ ذلك اليوم.

كانت خادمة آل أزوفسكي تسمع وترى كل ما جرى وها هي ربة بيتي تنقل لي بأمانة ما سمعته عن لسانها .

إلا ان ألينا لم تقطع صلتها بسبيريدونوف واستمرت في لقائه خارج البيت. وكان سرابيون قد أعياه الأمر فلم يحتج على ذلك، لاعترافه بأنه كان فظاً جداً مع ابن صديقه. وكانت ألينا تقول له.

- كان من الواجب عليك ألا تتزوج طالما إنك تعرف غيرتك العمياء.

- ولكني أعبدك .

- أنا لا اؤمن بحب جوهره الشك وفحواه الريبة .

- دعينا نتصالح .

- صالح أولا ابن صديقك وأطلب مغفرته وبعدها تعود المياه إلى مجاريها .

- هذا مستحيل .

- وانا لا أقدر على حرمان نفسي من حريتي في سبيل شكوك التي لا محل لها اطلاقا .

وفي أحد الأيام شاهد سرابيون زوجته جالسة مع سبيريد ونوف تحت ظل شجيرة في إحدى حدائق المدينة. فعجز عن اخفاء فورانه واهان الشاب أثناء الحديث. وفي الغداة أرسل سبيريد ونوف ضابطين لدعوة سرابيون إلى البراز، في الوقت الذي أعد فيه باقة ورد صفراء ورسالة موجهة إلى ألينا جاء فيها :

«يقال يا سيدتي ان الورود الصفراء دليل الكراهية والبغض. ولكني أصارحك بأنني احببت دائماً هذا اللون دون غيره. ان مصيري سيتضح اليوم فقد أغادر هذه الدنيا لملاقاة وجه ربي، فأرجو ان تتقبلي هذه الورود الصفراء رمزاً حياً لحبنا البريء. الوداع» .

احضر خادم أنيق الملبس الرسالة وباقة الورود وسلمهما إلى ألينا خفية .

وعند المساء قفل سرابيون عائداً إلى البيت غارقا في بحر من الحزن والهموم. فتنبأت ألينا بالمأساة التي وقعت من ملامح وجهه وران عليها صمت مطبق بينما كانت تحدق في وجه زوجها ثم دلفت إلى مخدعها ولم تبارحه طوال الليل. وكانت خادمتها تتسلل إلى غرفتها بذرائع شتى كي تتفقد حال سيدتها، التي كانت ساهرة تسرح النظرفي باقة الورود الصفراء دون ان تبدي حراكا.

في تلك الأيام كانت ألينا تستشعر وحدة دائمة ولديها احساس بالتبرم من الحياة التي تحياها. وقد اعترفت خادمتها بأن ألينا كانت تردد على مسامع زوجها الكلمات التالية:

- لقد قتلت بريئاً.. قتلت إنساناً لا حق لك في ان ترفع يدك بوجهه، فبأي عذر ستلاقي وجه ربك ؟

وكان زوجها يجيبها ببرود الأموات :

- إنني مرتاح الضمير جداً، إذ ليس بامكان الزوج الشريف ان يتصرف تصرفا مغايراً لما أقدمت عليه .

– كلا، أبداً.. ان ضميرك سيعذبك دائماً طالما إني بريئة مما تتهمني به. فدم ذلك الشاب البريء لا يزال يتراقص أمام عيني ليل نهار وسينزل الله عقابه بي وحدي لانني السبب في كل ما حدث.

وفقدت ألينا طعم الكرى ولذة الراحة فباتت تحقد على الآخرين من خلال كرهها لزوجها وتلوم نفسها أشد اللائمة. كما كانت خادمتها تجفل من الصراخ الحاد الذي كان ينتابها أثناء الهستيريا وهي تقول :

– ابتعد عني ... لا تدنو مني .. إني أرى دماً بريئاً على يديك السفاحتين ...

لم تجد الوسائل والسبل نفعاً في علاجها فضلاً عن عناية الأطباء وتوسلات الزوج واعرابه عن ذلته وتوبته. كان سرابيون آسفا حقاً بدافع من الأيمان العميق ببراءة ألينا. وذهبت كل المساعي والجهود سدى، فألينا تذوب وتتلاشى يوماً بعد آخر.

تنتشر الأخبار في المدن الصغيرة انتشار النار في الهشيم. فالأنباء التي لم تثبت صحتها بعد، تروى وكأنها حقائق منزلة مطلقة. كانت القرية التي تعتبر الرفيق الأنيس لكل الحسناوات تقض من مضجع ألينا فيما قبل المبارزة، وها ان الوقت قد حان لأن تفلت الألسنة الشريرة من عقالها. ولكن ألينا انطوت على نفسها وانعزلت عن العالم بحيث لايتناهى إليها القيل والقال. كانت الورود الصفراء قد ذبلت منذ زمن بعيد ولكنها لا تزال تزيّن بيان ألينا في زهرية جميلة. تقترب منها يومياً أكثر من مائة مرة، فتلامسها بأصابعها الرشيقة وتناجيها. ومع كر الأيام تساقطت الأوراق واحدة تلو الأخرى ولم يبق من الورود الشذية إلا سيقانها الذاوية. ومنذئذ وخادمة إلينا الوفية، التي تحبها حب الأخت لأختها، وهي تشتري لها وردة صفراء، وهنا يكمن سر الوردة الصفراء التي تزين صدر ألينا على الدوام.

وقرر سرابيون ان يصحب زوجه إلى بلاد غريبة. فسلم

داره إلى طاهيه واستصحب الخادمة بناء على رغبة ألينا. فذهبا إلى موسكو أولا ومن ثم إلى أوروبا. ولكن لم يطرأ أي تبدل أو تغير في حالة ألينا وكربتها النفسانية التي لازمتها ولم تبق على وجهها أثراً لابتسامة، فاجمع الأطباء قائلين:

– ان زوجتك بحاجة ماسة إلى الهدوء والسكينة بحيث لا يتناهى إلى مسامعها أدنى صوت وأقل ضجة.

وأشار إليه بعض الأطباء بادخال ألينا في مصحة للأمراض العقلية ريثما تبلى من مرضها. لكنه أصر على ان لا يفارق زوجته أبداً .

وعادا من الخارج فبذل سرابيون قصارى مساعيه ليؤمن لها المزيد من الهدوء والسكينة. ولذا قرران يرحل إلى تفليس التي يعدم فيها أي قريب أو صاحب، أملا في ان تشفى ألينا في بيتها الخاص...

روت لي صاحبة البيت كل ذلك خاشعة واجمة وكأنها احدى قريبات ألينا. وأحسست بالحقد يعتمل في صدري ازاء الرجل الفارع واستبد بي شعور آثم كالذي يتملك الأب القاتل لبنيه. وأصبح سرابيون في نظري شبحاً قاتماً وعدواً لدوداً ناصبته العداء واعتبرت القضاء عليه أمراً لا يعدو الأنصاف والعدل، لأنه استخلق من ألينا الجميلة عذابا مجّسداً وشقاء مكثفا.

واحببت ألينا حباً عاصفاً وشعرت ان روحي قد تعلقت، إلى الأبد، بتلك الروح العليلة التي لا تحيل بيني وبينها أية قوة في العالم مهما عظمت دون ان تسحن روحي وتفطرفؤادي. وشعرت، بالرغم من وضعي المأسوي، اني في حالة تثير الهزء والسخرية، اذ كنت أحب مخلوقة لا وجود لها بالفعل في هذه الدنيا، وإنها لا تعدو ان تكون شبحاً أو كابوساً رهيباً. كان وضعي مأساويا بالنسبة لي وموضع سخرية من الآخرين. كنت أشقى وأتعذب في سبيل انسانة أعجزعن ان تعي وتشعر، لأنها لا تعدو كونها عذاباً مجسّداً.

وصمت الطبيب كرة أخرى .

وخيم علينا سكون المقابر. فالمقهي قد فرغ من زواره الذين بارحوه إلى المطعم. ان باريس تسكت ضجيج معدتها في الوقت الذي تسكت فيه ضجيج وصخب الناس إلى حد ما.

ونظر الطبيب إلى ساعته قائلاً :

- اوه .. الوقت متأخر جداً. يخيل لي إني اطلت عليك كثيراً.

- إني اشتاق لسماع المزيد والمزيد .

- لقد شارفت على النهاية .

قال ذلك ريثما أشعل لفافة أخرى ثم أردف يقول :

(هـ)

وهكذا يا عزيزي، لقد احببتهاحباً عاصفاً قاصفاً أشعرني بأني بت قاب قوسين أو أدنى من الجنون. رحماك يارب العالمين.. أكرم علي برؤيتها وسماع صوتها ولو لمرة واحدة، فلربما صحوت من سكرتي وافقت من غفلتي وسأمت فعلتي، أو لربما اكتشفت خيطاً من الأمل في شفاء روحها العليلة فاداعبه بشغاف قلبي العاشق الولهان. ومن يدري ، لعل هناك سبيلاً لانقاذها. ترى، باي حق يحول ذلك الطاغية دون الوصول إليها؟ وهل من المعقول ألا يدرك ان منظره الشرس يزيد حالة ألينا سوءاً عل سوء؟ ألا يدرك ان الجرح المكلوم يتألم لرؤية الخنجر؟ ربما شعرت بشيء من الانفراج في كربتها النفسانية من جراء حدث سعيد يرد إليها وعيها على حين بغتة؟ إني لواثق من ذلك، إذ إني سمعت الكثيرعن حوادث مشابهة وقرأت عنها في بطون كتب الطب وعلم النفس.

ذلكم هو المحور الوحيد الذي استقطبت حوله أفكاري ومشاعري في يقظتي ومنامي، لكن القدر لم يمكني من رؤيتها والتكلم إليها عن كثب.

وذات يوم خرج الرجل الفارع من البيت ولكن النافذة ما انفتحت وظلت مغلقة في اليوم التالي أيضاً. وفي اليوم

الثالث انفتحت كل النوافذ، فشاهدت حركة غير مألوفة في ذلك البيت الملعون لم أر مثيلاً لها خلال الأشهر الأربعة التي انصرمت. فالخادمة تسارع من غرفة لأخرى وسرابيون يظهر بين الفينة والأخرى ممتقع الوجه، جامد القسمات عند هذه النافذة أو تلك، ولم تظهر ألينا اطلاقاً.

توقفت مركبة ما ونزل منها غريب يسابق خطاه إلى بيت آل أزوفسكي. ولكنني لم ألمح ألينا البتة وهي التي عودتني على التمتع برؤيتها والتفنن بجمالها الأخاذ، فاستبد بي الارتباك والخوف مما يجري.

كانت ربة بيتي على بينة من امري، فاحسست بالخجل يعتريني ان كذبت عليها ثانية، ولذا بادرتها بالسؤال حين ولجت غرفتي:

- بولينا نيكولا ييفنا، اخبريني بما يجري في بيت آل أزوفسكي؟

- ألينا مريضة يا سيدي .

فارتعبت وصحت قائلاً :

- مريضة !

- إنه اليوم الثالث.. ألم ترى مقدم الطبيب؟ لقد اخبرتني خادمتهم بأن اليوم هو يوم الاستشارة.

هكذا إذن، ألينا مريضة. ألينا يا مادة أحلامي ومرتع أمالي، كيف لا أقدرعلى رؤيتك متى طاب لي ذلك.؟ ولن تعلم ألينا طبعا، ان هناك من يفديها بربيعه التاسع عشر دون أي تردد أو تلكوء، تماما كما لا يتوانى المؤمن عن تقبل المحرقة فداء لافكاره وايمانه .

فسألت سيدتي بادى الانفعال :

- هل تحبينني ؟

- يشهد الله على ذلك .

- أعرف إنك أدرى بما يعتمل في صدري ، أليس كذلك يا بولينا نيكولا ييفنا ؟

- بلى يا ولدي .

قالت الأرملة والحشرجة تملأ صوتها .

- أظنك تعرفين علة شقائي وعذابي ؟

- لكم استرقت السمع من خلف هذا الجدار فتناهى إلي بكاؤك المرير ونحيبك الكثير، وانفطر قلبي ألما وتوجعاً لمرآك وأنت تذبل وتذوي .

- لأباس، دعك من هذا الآن. فالمسألة تتعلق بألينا التي هي أغلى من حياتي. ان لي طلبا أرجو ألاّ ترفضيه يابولينا نيكولا ييفنا .

- مرني بما تريد .

- اذهبي إلى ألينا في الحال .

- ولماذا ؟

- لاحضار خبر ما. أود معرفة مدى خطورة مرضها، فأرجوك ان تساعديني.

- ولكني لا أعرفهم البتة وقد يطردونني من بيتهم الذي لم تطأه قدم غريبة قط .

- لا تهتمي للأمر وتذرعي بإنك جارتهم ومن إنك ترغبين في السؤال عن أحوالهم .

- لا أدري ما أقول .. سأجرب .

وجمت المسكينة وخرجت على التو .

وبعد هنيهة توقفت أمام البيت اللعين خمس مركبات أنيقة نزل منها الأطباء، احدهم هرم والآخرون شبان. كنت يومئذ اؤمن بالطب ايماناً أعمى، فاعتبر الطبيب ساحراً كلي القدرة فاخلدت للطمأنينة حينما تفرست في وجوههم الهادئة السكينة وأيقنت بأنهم سيشفون ألينا مهما كانت خطورة المرض عظيمة، لا بل وربما تمكنوا من ابلاء روحها المكروبة، وبعدئذ سأرى محبوبتي بجمالها الساحر وقد تعافت جسدياً ونفسياً.

استغرقت العيادة الطبية وقتاً طويلاً حسبته دهراً. كنت أترقب خروج الأطباء فاقداً الصبر أملا التنبوء بحالها من مجرد النظر إلى قسمات وجوههم. ولذا قررت ألاّ أبارح نافذتي ولو لبرهة من الزمن .

وأخيراً، خرج الجميع دفعة واحدة .

كانت وجوههم طافحة بالبشر والسرور وعلى الأخص وجه الطبيب الشيخ. كانوا يتحدثون بصوت عال وهم يقهقهون ويضحكون. فاستبشرت خيراً وأيقنت ان حياة ألينا أبعد ما تكون عن الخطر، وإلا لما ضحكوا وفرحوا هكذا. ولكن ما ان أصبحت طبيباً حتى أدركت ان مهنتنا لا تختلف في أي شيء عن مهنة الكاهن، فكلاهما تخشنا القلوب وتجعلنا غير مبالين بالموت. فكم مرة ومرة ابتعدت عن أسرة مرضاي والبسمة لا تفارق محياي ومزاجي على أحسن ما يكون، بينما كنت اشتم رائحة الموت النتنة.

وعلى حين غرة ظهرسرابيون أمام احدى النوافذ وكأنه قدّ من صوان، إذ ما من تبدل في ملامح وجهه اطلاقاً. وشاهدت الخادمة دون ان الحظ عليها أي وجوم أو غموم. فازددت ارتياحاً وطمأنينة وما ان وقفت ربة البيت أمامي حتى سارعت إلى القول:

- إنه لغو فارغ، فألينا ليست خطيرة أبداً. هه، هل رأيتيها؟

- ذهبت إليهم ولكني ما تمكنت من رؤيتها.

- لماذا؟

- استحييت الدخول واستعلمت من خادمتهم...

وتوقفت عن الحديث وقد لفها الأسى والحزن، فسألتها مستفسراً:

- ماذا قرر الأطباء ؟

- الخادمة لا تدري أي شيء عما قالوه، ولكنها اخبرتني بأنهم حقنوها دواء ما. فهي واهنة جداً ويصيبها الغماء من أن لآخر. وكانت الدموع تتفجرمن عيني الخادمة شآبيا وهي تردد على مسامعي قائلةً : «أنت لا تعرفين كم كانت سيدة طيبة وديعة قبل المأساة. إني لم أحب أحداً في هذه الدنيا كما أحببتها وأحبها الآن».

وتبخرت آمالي ووهنت تفاؤلاتي وأحسست إنها في حالة خطيرة حقاً. فسقطت واهنا على أحد الكراسي وقد خنقتني العبرات فعجزت عن حصرها وكبح جماحها فأطلقت لها العنان واسترسلت بالنحيب والعويل .

دنت ربة البيت الأنيسة المرهفة الحس وشرعت تواسينني وتعزيني فكنت اسمع من خلال بكائي كلماتها المعزية :

- حسنا يابني فألينا لم تمت.. ماخطبك يا ولدي؟ لا تكن مغروراً، فما علاقتك بتلك المرأة؟ دع عنك ميوعتك الصبيانية.. ان هذا لمشين منك يا بني، فماذا سيقول الناس عنك؟ رباه ما العمل..؟ يا لك من فتى غريب الأطوار...!

ثم احتضنتني ضامة رأسي إلى صدرها الحنون وشرعت تداعبني كالطفل. رباه ما ألطف تلك الأيادي الرؤوفة التي عستها الأيام ولكم كنت أتمنى لو أنهاربتت على رأسي إلى الأبد. كما كنت أشعر بمدى حماقتي وحالتي التي يرثى لها دون أي احراج من تلك المرأة الغريبة عني.

هل أصف لكم كيف أمضيت تلك الأمسية واليوم التالي والليل الثاني والأربعة عشريوماً الأخيرة؟ يا لها من أيام لا تنسى على مدى الزمن! أيام طويلة لم أذق فيها طعماً للكرى، كنت خلالها اطفيء مصباح غرفتي كي لا أزعج ربة بيتي. كنت خلال الأربع عشرة ليلة اخرج إلى الشارع لاطالع وأتحرى عالمها، فأقف تحت نافذتها محبوس الأنفاس، صائخ السمع لما يجري في بيت آل آزوفسكي، ليقيني بأن الموت

يزور الناس ليلاً في غالب الأحيان، ولا بد من أن أسمع صراخ خادمتها المخلصة ان وقع مكروه ما. ولكني ما كنت أتوقع من زوجها أي صراخ أو بكاء.

وانصرمت أربع عشرة ليلة دون ان أسمع أي صوت أو حتى همس. وكانت صاحبة بيتي تردد على مسامعي قائلةً:

- ما من أي تبدل في حال ألينا .

كنت قلقاً ومنفعلاً جداً في الليلة الأخيرة، ولذا قررت ان أقضيها في الشارع. كانت السماء صافية ساجية لا قمر فيها، بينما كانت نجوم الليل تشع فرحاً، باعثة المسرة في نفس الإنسان، ولكن هذه المشاعر التي تعتريني قد حولتها إلى شعور بالانقباض والكآبة. وهل تساوي كل النجوم المتلألئة في الفضاء الرحب ساعة من عمر ألينا أو نفساً واحداً من أنفاسها الحبيبة. أواه.. سحقاً للفضاء بأكمله فداء لحياة ألينا. كانت شفاهي الملتهبة المحروقة تردد في جنح الظلام والسكون المطبق:

- ألينا .. ألينا ... ألينا ...

وأخيراً، قارب الفجر على الانشقاق فخانتني قواي وتهالكت مرتمياً على سريري مستسلماً لملكة النوم. لقد كنت يقظاً طيلة أربع عشرة ليلة ولكني نمت في الساعة التي يجب ان أظل فيها يقظاً حذراً .

- أأنت نائم ؟

تناهى إلى اذاني صوت ربة البيت فاستيقظت فوراً لا شاهدها واقفة فوق رأسي وقد صلبت يديها على صدرها، فانتصبت هلعاً لأسالها:

- ماذا جرى ؟

- لقد ماتت ألينا .

لم انبس ببنت شفة وإنما صعدت من صدري زفرة لا ارادية ثم جلست على سريري خائر القوم واهن العزيمة، حاني

الرأس.

وأردفت ربة البيت قائلة :

- لقد تحققت لعنة الكاهن .

وظهرت في البيت وجوه غريبة بعد ساعة من الزمن، بينما كانت كل النوافذ مشرعة حيث كان الطاهي والخادمة يرتبان أثاث البيت. وخرج من الدار كاهن هرم وسار بخطى حازمة بعد ان صلى على روح ألينا. كانت الخادمة تولول وتصرخ باكية. وكان زوجها قد ظهر مرة في أحدى النوافذ وهويرقب الشارع لعدة ثوان ثم اختفى. رباه.. ما هذه القسوة الطاغية، فما من بادرة تنم عن أي تبدل في ملامحه الجامدة ونظرته الباردة التي كان يطلقها كالسهم من تحت جبهته البارزة العظام.

وأمسك الطبيب عن الكلام مجدداً في حين انتظرت بفارغ الصبر خاتمة القصة. ولكنه كان واجما وقد سرح نظره إلى الأبعاد اللامتناهية، فسألته محاولا قطع حبل سكوته:

- هل ذهبت إلى جنازها ؟

- ألينا لم تدفن .

- وكيف ذلك ؟.

- لقد حنّطها ذلك الرجل واستصحب جثتها إلى مسقط رأسه في القرم كيلا يبارحها إلى الأبد. ولكني ذهبت إلى قداسها الذي لم يحضره سوى بعض الكهنة وأنا والطاهي والخادمة والاسكاف وزوجته وربة بيتي، إذ من كان يعرف ألينا؟ وأتيحت لي فرصة رؤيتها عن كثب فكانت المقابلة الأولى والأخيرة لحبي الوحيد. واقتربت من نعشها ووضعت عليه باقة من الورود الصفراء التي تجانست تماما مع لون ألينا الآفلة. كانوا قد البسوها ثوبها الدائم السواد بعد ان انتزعوا عنه الوردة الصفراء، وشعرت ان زوجها هو الذي أقدم على ذلك لأنه ارتبك كثيراً ورمقني بنظرة شذراء وابدي حركة ما لانتزاعها عن النعش ولكنه ارتد محولا نظره

عني. أما ألينا فقد ابتسمت لي ابتسامة جامدة من تحت زجاج النعش. تلك الابتسامة التي رأيتها لأول مرة على شفتيها والتي لا تزال أعز واوفى صديق لي، فهي اتبع إلي من ظلي وستظل تلاحقني حتى مثواي الأخير. أتصدقون يا ترى، انني عشت وفكرت وأحسست كثيراً خلال هذه الأعوام الثلاثين، فعشقت وعشقت، وعرفت الكثيرات من النساء ولكني مقتنع تماما بأنني ما احببت سوى مرة واحدة في حياتي.

ليس حباً يا صاح ما اعتاد الناس على تسميته بالحب المادي الملموس.

ليس حباً يا صديقي تلك المرأة التي نكلمها ونجادلها، ونشاكسها ونصالحها في سبيل المشاكسة والمصالحة من جديد.

ليس حباً تلك المرأة التي نحتضنها ونضمها ونقبلها ونعبدها كي نتمتع ونتسلى بها فنفسدها ونخل بنظامها.

كلا، ليس ذلك حباً .

الحب حلم ويجب ان نبقيه حلماً .

الحب خالد خلود الأزال والآباد ان لم نتذوقه .

الحب شعاع لا يخمد ولا يصطاد كالعصفور .

الحب عقيدة لا تتقادم ولا يستخدم سبيلاً للشهوة المادية.

الحب فكرة لا تبلى ولكنها تستوعب .

الحب مطاليبه كثيرة ولكنها سارة وشيقة

الحب لاحد لأطاييبه ولا حد لسمومه .

الحب قتال دون نصر وشوق دون وصل .

الحب ليس مأساة ذات عقدة ومجرى ونهاية، بل مأساة من غيرانقطاع وانفصام ؛

الحب له بداية وليس له نهاية .

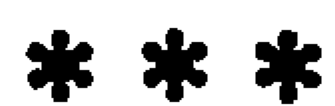
الحب له ولادة وليس له منية .

لأن تحيا بحب يقتات بغيراللحم والدم، فلا يموت بموت اللحم والدم، لخير ألف مرة من أن تفنى في حب يفنيه اللحم والدم .

ذلكم هوالحب الحقيقي: إنه حب ألينا.

قالها الطبيب آخوريان وانتصب واقفا ليردف قائلاً :

- لقد انتهت حكايتي.



ڤرتانيس بابازيان

(١٨٦٤ - ١٩٢٢٠)

بابازيان روائي، قاص، مسرحي، ناقد، مؤرخ، محرر، مربي، مترجم وشخصية اجتماعية وسياسية أرمنية بارزة. ولد في وان بأرمينية الغربية. تخرج في جامعة جنيف كلية الآداب والعلوم الاجتماعية عام ١٨٨٤. بدأ العمل ولما يزل في الخامسة عشرة مصوراً ومبرقاً وعاملاً. درّس سنوات طويلة في المدارس الأرمنية المختلفة في مدن وان وقارص وتفليس وطهران وبوخارست وغيرها.

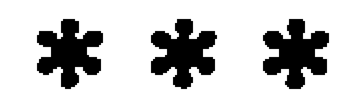
مؤلف الكثير من الروايات والقصص التي استقى مواضيعها من حكايات الشعوب الأخرى كالروس والعرب والترك والكرد والجورجيين وغيرهم الأمر، الذي ساعده على نشر الروح الأممية والمفاهيم الإنسانية النبيلة في الأدب الأرمني. شكلت قضايا الإنسان محوركتاباته وإبداعاته الأدبية والفنية.

كان من أوسع رجال عصره ثقافة إذ أتقن «١٤» لغة. ترجم إلى الأرمنية روائع من الأدب العالمي. وكتب في تاريخ الحضارة العالمية والفن والاتجاهات والمدارس الأدبية والمنطق وتاريخ الشعب الأرمني واللغة.. اخرج العديد من مسرحياته، ووضع موسيقاها بنفسه. كان أول من وضع مؤلفاً شاملاً في «تاريخ الأدب الأرمني» (١٩١٠).

تعرض مراراً لملاحقات الحكومة الروسية القيصرية، والحكومة التركية التي أصدرت بحقه قراراً بالإعدام بسبب أفكاره التحررية الثورية.

صدرت مؤلفاته المختارة في خمسة مجلدات.

فيمايلي ترجمة للقصتين التاليتين: «القفل الكبير» و«نهاية المتمردة».



القفــل الكبيــر

ڤرتانيس بابازيان

كان الرسام ماني قد فكرفي رسم شيء عظيم قبل فراقه هذه الدنيا.

استبدت به هذه الفكرة، فأخذ يطوف الدنيا باحثاً عن موضوع مناسب للوحته. كان ما يريده شيئاً غريباً عجيباً ومثيراً.

نزل الأودية والوهاد العميقة باحثاً في كل الزوايا الصماء، وتسلق الجبال الشاهقة مفتشا عن ضالته المنشودة، فوقعت عيناه على مناظرجميلة ساحرة. شاهد الكثيرالكثير واستشف كنه أسرارالطبيعة، لكنه لم يعثرعلى مادة جديدة تثير انتباهه، وتلبي رغباته طلعاته لرسم لوحة فريدة.

اشتد عليه الهم والغم. فلا روح الغابة، ولا نيران الجبال، ولا حوريات البحر استطعن ان يمددن الرسام بوحي جديد ومادة جديدة. فقد ذهبت رحلاته حول العالم ادراج الرياح، فما من وجود لأي جديد يشد إليه اهتمامه وانتباهه.

فكان الحزن يفطرفؤاده، واليأس يعصر روحه.

وذات يوم كان يتجول بائساً يائساً في سهول وجبال شيراز، ولما وصل إلى إحدى المقابردخلها وتوقف فجأة أمام ضريح لفت انتباه.

كان الضريح كبيراً عالي الجدران. غيران القفل الكبير جداً الموجود على باب الضريح، هو الذي أثار انتباه الرسام. ذلك الباب المكتوب على واجهته بالخط العربي ما يلي: «ادخل وستجد ما تبحث عنه».

اشتعل الرسام غضباً وصرخ بأعلى صوته قائلاً:

– ترى أي معتوه كتب هذه العبارة ؟ أمن المعقول الاّ يجد الإنسان ما يبحث عنه إلا في المقابر؟ !

ثم ابتسم ابتسامة ساخرة وأضاف يقول:

– لعله كلام المتوفي، الذي كان عاجزاً عن التمتع بالحياة، ولذا فضّل الموت عليها.

قال ذلك وأدار ظهره قصد الذهاب، بيد ان الكلمات المكتوبة لم تبارح ذهنه.

وبعد ان فكربضع دقائق خطا عدة خطوات باتجاه القفل الكبير. حدق فيه مليا ثم قال متسائلا:

– واعجباه..! لماذا قفلوا باب الضريح؟ ما هو الداعي لوضع هذا القفل الكبير الذي يوضع عادة على أبواب الخزائن أو السجون؟ !

رنا مجدداً إلى الباب وقرأ «ادخل وستجد ما تبحث عنه». وفكر في سره قائلاً:

– لأدخل هذا الضريح علّي أجد حقاً ما أبحث عنه وراء هذا المغلاق الكبير. ربما كان هناك فقر وبؤس، علم وحكمة، ثروة وجاه.

حاول تحريك القفل فوجده ثقيلاً جداً. أمسك حجراً كبيراً صلداً، وشرع يضرب به المغلاق. أخذ الفضول يستبد

بالرسام شيئاً فشيئاً وسرت في اوصاله ثمة رعشة ورهبة موحشة.

تعذب كثيراً دون جدوى. فالقفل الكبيرظل يقاوم صامداً حتى أفول الشمس ، وعندها فقط انكسرالقفل الكبير، واستدارباب الضريح منفتحاً. ألقى الرسام الحجر وتقدم خطوة ثم ولج بناءالضريح وأطلق صيحة استغراب وإعجاب!

فالجدارالمقابل مفتوح تماما، وعلى الأرجح لم يكن الجدارالخلفي مبينيا على الاطلاق ... والمنظرالداخلي للضريح يدل على ان الرسام لم يكن الإنسان الوحيد الذي وطأت اقدامه أرضية المدفن.

كيف ذلك؟ ولماذا كل هذا؟ وما هو الداعي لهذا العمل الشنيع؟ لمَ شُيد هذا البناء بجدران ثلاثة فقط، وتُرك الجدار الخلفي مفتوحاً، ومع ذلك وضع القفل الكبيرهذا على باب المدفن؟ !

حكّ الفنان جبهته وقال :

- لقد تعرضت للسخرية المرة حقاً، ولكن العبارة المكتوبة على الباب لم تتحقق ، إذ لم أجد ما كنت أبحث عنه.

ما ان نطق بهذا الكلام حتى وقع بصره على ثلاثة أبيات من الشعرمنقوشة على الجدار، فقرأها:

كل شيء في هذه الدنيا نراه جديداً قديماً

من طلب العلى سهر الليالي جِداً واجتهاداً

وكل ماندركه للمرة الأولى يصبح بعدها جُدّ مألوفاً

غاص الفنان ماني في بحرمن التأمل والتفكيرفقد أثرت هذه الأبيات تأثيراً عميقاً في نفسه.

لقد وجد الرسام مبتغاه ولم يجده. فلو قدرله العثور على ضالته المنشودة ستتحول سريعاً إلى أمرجد مألوفاً، أي لن تظل ذلك الشيء الجديد الذي بحث عنه طويلاً.

وإذن، كان الرسام يفتش عن شي ما يجب إلاّ يعثر عليه.

وأدرك الرسام حقيقة العبارة المكتوبة .

خرج من المدفن متوجها إلى البيت، حيث تناول الفرشاة وجلس أمام اللوحة.

رسم ماني الضريح بجدرانه الثلاثة مع الابقاءعلى الفتحة الخلفية.

ثم رسم الباب واضعاً عليه قفلاً كبيراً من الحديد.

وبدلا من ان يكتب العبارة المنقوشة على جدار الضريح كتب ما يلي:

«المادة المطلوبة أشبه بهذا الضريح

على بابه قفل كبير ولكنه مفتوح»

١٨٩٥

* * *

نهاية المتمردة

ڤرتانيس بابازيان

كانت الغابة قلقة ومضطربة جداً .

فقد استبدت بها موجة عظيمة من الرهبة الصماء. كانت أشجار السنديان العملاقة تتمايل بقوة وهي تنحني فوق أشجار الزيزفون والدردار المرتعشة هلعاً وخوفاً. كانت الغابة في حالة اضطراب غير عادي أبداً. فقد وقع أمر غريب لم تشهد الغابة مثيلاً له. فالشجيرات النامية في المستنقعات اعتادت على النماء والفناء، والعفونة والرطوبة، فضلاً عن ان اللبلاب كان يعيق حركتها ويخنق حريتها، ومع ذلك كانت قانعة خانعة عبر العصور والدهور.

وفي أحد الأيام تمردت بعض الشجيرات وحطمت قيود النباتات الطفيلية لتندفع من أوحال المستنقع. وبدلا من ان تمد جذورها إلى الأسفل - كعادتها عبر القرون - أخذت جذورها تنمو إلى الأعلى باتجاه الجبل. وهذا أمر شاذ وغريب في عرف الغاب، الذي يحق له الاضطراب حقاً.

كيف يحدث هذا ؟ هل من المعقول تجاهل تقاليد وعادات السلف؟

كيف يمكن التخلي عن المستنقع والوادي والسعي للتحرر من اغلال الطفيليات، والأخطر من كل هذا الصعود إلى الأعالي؟! يا للأمر العجيب الغريب!

بيد ان الشجيرات الوليدة كانت مصممة ومندفعة بحماس لا نظيرله، وكأنهّا لم تكن تشعر اطلاقا بالاضطراب القائم. لقد تحررت من الرطوبة والعفونة، وتخطت الحدود المرسومة صاعدة إلى العلياء، فتسلقت الصخور الصلدة الصماء، متحدية كل الحواجز والعوائق. والأعظم من كل هذا ان شجيرة شقت صدر الأرض، انتصبت قوية جامحة وشرعت ترنو بسمو وكبرياء إلى الشمس، وتحدق باحتقار وازدراء في الغابة القديمة، وفي الشجيرات النامية وسط أوحال المستنقع الآسن النتن.

- ارجعن يا أيتها المجنونات - صاحت الأشجار القديمة .

- لقد جن جنونهن - صرخت السنديانة .

- ستموتن - نادت الشجيرات .

لكن الشجيرة تابعت مسيرتها إلى الأعلى بحماس منقطع النظير وهي تسخر من الضجة المفتعلة. وهنا سألتها سنديانة معمرة ضخمة:

- أين تذهبين يا أيتها التائهة؟ مالك وتلك الأعالي، حيث يسود البرد والصقيع، وتعصف الرياح الهوجاء، حيث لاتجدين قطرة ماء، الصخور صماء، والطريق جرداء وكلها عناء وشقاء؟!

أجابتها الشجرة الوليدة في خفر وخيلاء :

- إني صاعدة .

صعقت السنديانة العملاقة لهذا الرد الشجاع، فقالت :

- أين تصعدين يا أيتها الهوساء؟ هل هناك في الأعالي

ســوى الفناء؟ أليس من الأفـضل لك النزول نحـو الوادي وضـفـاف الأنـهـار، حـيـث الظلال الوارفـة، والمياه الوافـرة، والتربة الخصبة، وحيث الرياح واهنة والبروق عاجزة...

- إنـي صاعـدة (أصـرّت الشـجـرة دون ان تتـردد لحظة واحدة).

(نادت الأشجار).

- ولكنك ستموتين ...

- ففي الأعالي ...

- ستذهبين طعماً لنار الصواعق ...

- هناك على منحدر الجبل ...

- ستظلين سغبى عطشى ...

- ولكني سأكون في القمة .

وظلت تسمو باسقة .

ساد الغابة صمت مطبق كصمت القبور. كانت كل أشجار الغابة ترنو قلقة مرتاعة إلى الشجرة المتسلقة ، تتابع حركتها بنظرات شذراء شامتة ويتملكها السرور والحبور لكل محاولة فاشلة، وتهزء ساخرة حين كانت الشجرة تتسلق صخرة كبيرة، وكانت تقذفها بوابل من الكلمات القاذعة النابية حين كانت تتوقف لحظة لاسترداد أنفاسها وتجميع قواها، أو عندما كانت الريح الهوجاء تتقاذفها هنا وهناك فتطرحها أرضا أوتعبث بأوراقها وأغصانها.

كانت الريح مهرهرة، والشمس حارقة، الأمطار والأنواء تصفع الشجرة والصواعق تقصفها من صخرة لأخرى بالسنة من لهب... ومع ذلك ظلت الشجرة صامدة سامقة نحو الأعالي.. نحو الذروة.

وبعد طول عناء فقدت الشجرة بعض أوراقها وتكسرت أغصانها. بيد إنها وصلت إلى القمة منهوكة القوى بعد ان انهكها التعب وهدها النصب وقصفتها الصواعق والبروق

وبللتها الأنواء. وهاهي الآن في القمة وقد خلفت رفيقاتها من الأشجار في المستنقعات وتحت الضباب. وها هي الآن تنشر أجنحتها تحت الشمس، ولكنها كانت وحيدة فريدة من غير أصدقاء، بعيدة عن الأنهار والوديان والوهاد.

ومع هذا لم تندم على فعلتها. فهناك، على القمة، كانت تمتع ناظريها برؤية الآفاق البعيدة وقمم الجبال المغطاة بشعاع الشمس. كان المطر يبللها بالماء فيروي غليلها، وأرض الجبل تهبها نسغ الحياة. كانت تحلم باستنبات جيل جديد من الشجر الباسق السامي يكون قريبا من ضوء ودفء الشمس بعيداً عن رطوبة السحاب، يتحرر إلى الأبد من عبودية المستنقعات.

كانت الغابة الدنيئة لا تزال تراقبها باشمئزاز وحسد، تنظر إلى الشجرة الوحيدة المتمردة وهي ترغي وتزبد بسبب الصدمة التي لحقتها، فتصيح بأعلى صوتها:

- ستموت حتما.. سيقصفها الرعد.. ستدمر العواصف هذه العاصية...

وهبت رياح هوجاء حطمت فروع الشجرة وبعثرت أوراقها. وهطلت الأمطار الشديدة فعرت أغصانها، وخنقت السيول جذورها الواهنة. وهدر الرعد مدويا فزلزل الصخور هنا وأحرق الشجيرات هناك ثم هدد الشجرة نفسها، فقال :

- لمَ جئت إلي يا أيتها الشجرة العاصية، سأحرقك، سادمرك.

- هيا احرقني.. ساحترق هنا.. المهم ان احترق في الأعالي...

وهكذا كان.

ذات مساء مشؤوم حطمت الرياح ما تبقى من فروع الشجرة، واجتث السيل جذورها، وهدرت الصواعق الحارقة فقصفتها ومزقت صدرها.

اشتعلت النار في الشجرة التي أخذت تحترق، فقهقهت أشجار الغابة الدنيئة:

- ها هي تحترق ...

- هذه نهايتها ...

ونادتها السنديانة الضخمة سارة .

- أرايت ما حل بك يا أيتها الثائرة ؟ إنك تحترقين، إنك تموتين الآن ...

وتمتمت الشجرة بصوت لا يكاد يسمع .

- في الأعالي ...

وفي الليلة الدهماء كان نورها يشع من بعيد كنجم ساطع في قبة السماء. طقطقت الشجرة المحترقة قاذفة بحممها ودخانها، ناشرة بخورها وهي تذيع على الملأ خبر نهايتها.. إنه الموت الأكبر، الموت في العلياء، حيث انشقت الأرض لاستقبالها بفخر وكبرياء، لكونها سمت إلى الأعالي وماتت على الذروة الشماء.

١٩٠١

* * *

يروخـــان

يروخـان (يروانت ارماكيشخانليان) أديب أرمني مشهور مولود في استانبول (١٨٧٠-١٩١٥). تلقى تعليمه الأبتدائي في مدرسة نيرسيسيان المحلية، وتابع دراسته في دار المعلمين المركزية. كتب في شبابه القصة والمقالة في جريدتي «الشرق» و«الجريدة الشرقية». هاجر ابان المذابح الحميدية إلى الخارج واشتغل في التدريس ببلغاريا (١٨٩٦). كتب هناك أولى رواياته بعنوان «الحب المنبوذ» ونشرها مسلسلة في الصحافة.

في سنة ١٩٠٤ غادر بلغاريا إلى مصر، حيث تابع نشاطه التربوي ومارس العمل الصحافي. من أشهر أعماله الأدبية في المرحلة المصرية رواية «الأبن البار» (١٩٠٥).

بعد اعلان الدستور العثماني. عاد كغيره من الأدباء الأرمن المهاجرين إلى استانبول، حيث اشتغل محرراً في جريدة «الشرق». وهنا أعاد صياغة رواية «الحب المنبوذ» ناشراً إياها بعنوان «الأميرة».

اشتهر في الأدب الأرمني بابداعه في فن القصة الحديثة التي نشر بعضاً منها في استنبول ضمن مجموعة قصصية تحت عنوان «في الحياة» (١٩١١)، ونُشر القسم الأعظم منها في باريس «قصص من حياة الناس» (١٩٤٢).

أعيد نشر قصصه المختارة في يريفان عام ١٩٤٦، ورواية «الأميرة» عام ١٩٤٩.

دار للإيجار

يروخان

- ستسر جداً يا مكرديتش لواخبرتك بالفكرة التي روادتني...

- هل يتعلق الأمر بالنقود ؟

- بالطبع ، وإلا لما فكرّت بها .

- هيا اخبرني بها يا عزيزي سيروب .

كان سيروب هذا شابا أسمر الوجه في الخامسة والعشرين، ذا وجه ينم عن المكر والخداع ، وعينين سوداويين خبيثتين، يرتدي بنطالاً باليا دون ان يعتمر الطربوش. هب واقفاً في حركة سريعة ثم عاود الجلوس على العشب بجوار أخيه المستلقي تحت ظلال شجرة وارفة. اتخذ مظهراً جدياً وقال:

- أفكر في تأجير دارنا واقتسام الإيجار مناصفة، فما رأيك؟

مكرديتش هو الأخ الأصغر بحوالي ثلاث سنين. شاب صحيح البدن، ضخم الجثة، كريم الطباع. كان يرتدي قميصاً

وسخاً ملتصقاً بجسده، يبدو من خلال ثناياه صدره القوي.
وقف هذا وهو يحدق بوجه أخيه، دون ان يجيب على السؤال قبل ان يمعن النظر. وبعد لحظة اطراق وتفكيرقال:

- هذا أمر حسن يا أخي، ولكن كيف نتصرف مع جدتنا؟ إنها امرأة مسكينة متعلقة بالبيت تعلقها بروحها، وهي لن تفارقه أبداً.

- ومن الذي يحسب لها حساب.. هل يعقل ان نتخلى بسببها عن إيجار قدره ستون قرشا في الشهرالواحد؟ وإذا رفضت الأمر لعلنا ننقلها إلى دار العجزة حيث تجد الراحة هناك...

- وماذا سيحل بنا ؟

- سنمضي الوقت هنا وهناك.. وربما استأجرنا غرفة بعشرين قرشا، فما رأيك؟

استلقى مكرديتش مجدداً وقد أثارت فيه فكرة أخيه، حول تأجيرالدار، بعض القلق. فماذا سيحل بالجدة التي لم يبق لها أي بارقة أمل سوى هذه الدارالمؤلفة من ثلاث غرف صغيرة، التي بناها زوجها بشق النفس. كانت الجدة قد ربت أولادها وأحفادها في هذه الدار. بيد ان أولادها وزوجها لاقوا حتفهم ولم تعد تملك في هذه الدنيا سوى هذين الحفيدين اللذين كانت تبثهما كل عطفها وحنانها، وهذا ما يميزجميع الجدات. أجل كان البيت ثروتها الوحيدة وعزاءها الفريد فيما تبقي لها من عمر، وجزءاً لا يتجزأ من حياتها. لم يكن ظهرها قد تقوس بعد حين بنيت الدار. ولكن كر الأعوام أحنى ظهرالعجوز وهد كتفيها ولم يرحم الدار أيضاً، إذ كان البناء قد مال إلى جانب، واسودت وسوست أخشابه وتشققت جدرانه. لقد شاخ البيت حقاً، ولكن العجوزلم تكن تلاحظ ذلك لأن خراب الدار تزامن تدريجياً مع ولوجها مرحلة الشيخوخة. لذا كان يخيل لها ان الدار لاتزال جديدة منيعة، كما كانت عليه يوم تشييدها. ومن المفارقات الغريبة ان العجوزلم تكن تغادر الداراطلاقاً خشيتها من ان أحداً ما قد

يستولي عليها ابان غيابهاعن بيتها العزيزعلى قلبها. وكانت تعتني جداً بنظافته بشكل يثيرالإعجاب والتقدير.

وها هما حفيداها، المستلقيان تحت شجرة وارفة الظلال يستنشقان الهواء العليل، يفكران بطرد الجدة من دارها بهدف تأجيرها. وهما يدركان إدراكاً عميقاً العواقب الوخيمة التي قد تترتب عن مثل هذا القرارالمشين والمجحف بحق الجدة الكريمة التي قد تتعرض للحسرة والألم، لا بل وقد تفارق الحياة، وبعدها يظلان بلا معين ونصير. وما ذلك إلا نتيجة لاعتقادهما بأن خسارة حنان الجدة ورعايتها لم يعد خسارة كبيرة بالنسبة لهما. أما خسارة الجدة العفيفة الطاهرة التي تربيا بين أحضانها، والتي منعت الزاد والقوت عن نفسها لتغذي حفيديها، فقد أصبح أمراً مسوغاً لكون الجدة عتية السن ولم تعد حياتها إلا عذاب وشقاء، ومماتها ليس إلاخلاص وثواب.

وقف الاخوان وتصافحا صامتين دون ان يلتفت أي منهما إلى الآخ. كان كل منهما يتصور الجدة المسكينة جثة هامدة مكورة أمام ناظريه. سار الاثنان مطاطيء الرأس وأحذيتهما البالية تغوص في غبار الطريق .

كان سيروب يغمغم بين الحين والآخرمحاولا طرد الأفكار الشيطانية ممنيا نفسه:

- ثلاثون قرشا في الشهرستكون حصتي وحدي، انه مبلغ عظيم!

أما مكرديتش فقد كانت تطارده صورة جدته المعذبة فيأسف لحالها ولسان حاله يردد قائلاً:

- ياللجدة المسكينة...!

توقف الشابان فجأة أمام دارمؤلفة من طابقين محاطة بأرض قفراء. وللحال نظرا إلى بعضهما البعض مثل مجرمين آثمين، ولكن سيروب تجرأ قائلاً :

- سنؤجر البيت.

- ماذا؟ !

سمعت الجدة وقع خطى حفيديها فسارعت لفتح الباب. دخل الأخوان. كان الظلام قد بدأ بنشر خطوطه الأولى حين جلست العجوز في ركن من فناء الدارعلى ضوء الفانوس. كانت العجوز مكشرة عما تبقى لها من أسنان في فمها وهي تلف خيوط الحرير بيديها النحيلتين الواهنتين على مغزلها الخشبي. بدا وجه الجدة شاحباً تماماً فكان شبيها بنواس العنكبوت.

- مساء الخير، يا ناني - قالها الاثنان بصوت مهزوز.

- مساءالنور، يا أبنائي. الحمد لله على عودتكما بخير وسلام.

اتجه الشابان نحوها وجلسا صامتين بقربها.

كيف يفاتحان العجوز بالأمر؟ فربما أصيبت بالسكتة القلبية من لوعة المفاجأة.

وقرر مكرديتش ان أمر المفاتحة ليس من شأنه أبداً، وطفق يلعن في قرارة نفسه أخاه سيروب، الذي استسلم تماما لشهوة المال التي لا تقاوم. وكان سيروب هو البادىء في الكلام، فقال:

- أنت أدرى بحالنا يا جدتي... فلا عمل نقوم به، ونحن لا نكاد نحصل على لقمة العيش، بينما الآخرون أمثالنا يتلاعبون بالمال.. فماذا تفعلين لو كنت في مكاننا، يا جدتي؟ لا بد إنك ستفكرين بأمر ما.. وها نحن ذا قد أعملنا دولاب فكرنا ووجدنا حلاً نرجو ان يلاقي رضاك...

كانت الجدة قد شنفت أذنيها لسماع هذه المقدمة الطريفة ثم رفعت رأسها قائلة:

- إني مستعدة لقبول كل ما تقترحانه يا أبنائي... اخبراني بالله عليكما بما توصلتما إليه من قرار...

وتردد سيروب لحظة.. نظر في وجه أخيه.. ثم سعل وتمتم شيئاً ما وقال:

- إنه أمر بسيط جداً، ياناني.. لا أظن إنك ستعارضينه.. لقد فكرنا بأن الدار واسعة جداً بالنسبة لنا، ولذا... ارتأينا تأجيرها مقابل مبلغ من المال نسد به رمقنا.

كانت الجدة قد وضعت وجهها بين يديها وهي تنصت باهتمام بالغ.. وللحال تبدلت ملامح وجهها، وقدحت عيناها شرراً، فصاحت بأعلى صوتها غاضبة:

- والله لو اجتمعت الدنيا كلها لما فارقت بيتي لحظة واحدة.. هيا اذهبا وشأنكما...

احتقن سيروب غضباً ليقينه بأن هذه العجوزستكون سبباً لشقائهما فقال:

- ان لم تتخلي عن الدارطواعية فاننا سنؤجره عنوة...ونحن لا نقدر على العيش بسببك جائعين- ظمآنين.. في حور وبور...

أصرّ الاخوان على قرارهما وخرجا من الدار.

وبقيت الجدة وحيدة أمام المغزل وبين أكوام الحرير وقد جمدت يداها وارتسمت موجة من الحزن والأسى على محياها الباهت.. كانت كلمات حفيديها المروعة لا تزال ترّن في أذنها: «سنؤجر الدار عنوة».. واتخذت قراراً هي الأخرى، «لن تخرج من الدار أبداً حتى ولو تحولت عتبة الدار إلى مثواها الأخير الذي ترتاح فيه إلى أبد الآبدين». وهنا فكرت في سرها قائلة: «لعلهما يمزحان ويهزئان مني وسيعودان إلى جادة الصواب». اطمأنت الجدة كثيراً لهذه الفكرة وارتاح قلبها الملتاع.

واصلت الجدة لف خيوط الحرير وهي تردد باكية:

- اواه يابيتي العزيز، اواه يا داري الحبيبة...

ظلت العجوز كئيبة حزينة رغم المبررات والمسوغات التي اختلقتها لنفسها. فالحفيدان لم يرجعا إلى البيت منذ الليل الفائت، وهذا ما لم تكن تجد تفسيراً له. فما السبب يا ترى؟!

حوالي الواحدة ظهراً دخل الدار فجأة سيروب ومكرديتش وشخصان غريبان.

إنهما المستأجران القادمان لمشاهدة الدار. لم ينظر أي منهم إلى الجدة. أطالع الحفيدان المستأجرين على الدار وبالغا في كيل المديح وابراز محاسنها ومزاياها، واقنعا الرجلين باستئجار الدار مقابل سبعين قرشاً في الشهر. وهكذا، انتهت المساومة بين الطرفين ولم يبق سوى تنظيف الدار واخلائها. وأصر الأخوان قائلين :

– نريد أجرة الشهر الأول سلفاً .

– حسن جداً .

يا للشيطان الرجيم.. ان المستأجرين يقبلان بكل الشروط وكأنهما يتعمدان تأصيل الأحن والعداوة بين الجدة وحفيديها. وهنا سأل سيروب قائلاً :

– هل تأتيان غداً ؟

– كلا.. من الأفضل ان تخرجا الآثاث والعجوز من الدار غداً كي نأتي بعد الغد .

«اخراج العجوز».. تناهت هذه العبارة إلى مسامع الجدة الجالسة أسفل درج البيت، حيث كانت ترقب بعيون واسعة كل حركاتهم وسكناتهم، وتسترق السمع إلى مزايداتهم ومساوماتهم المشينة .

وأخيراً، خرج المستأجران ومعهما مكرديتش ، وسيروب الذي قال لجدته ابان خروجه من الدار:

– حضري نفسك غداً سنأخذك إلى دار العجزة.

لم تحر الجدة جوابا، بل ارتسمت ابتسامة مرّة على شفتيها.

– كان الليل قد انتصف والظلام يلف جميع الأرجاء، ولا قمر في قبة السماء. وكانت الريح تصفر مدوية في الشوارع والأزقة.

شبت النار في بيت الجدة بهدوء وصمت عجيبين. وحين سارع أهل الحي لانقاذ دار الجدة المسكينة كان الآوان قد فات. وصرخ الجميع صرخة رجل واحد :

- الجدة .. الجدة ...

انتشر خبرالحريق انتشار النار في الهشيم. فكان الناس يتراكضون من الأحياء والشوارع المجاورة، ومن بينهم سيروب ومكرديتش وقد خيم الطير على رأسيهما، حين شاهدا منظر الدار المحترقة .

الدارالتي اجراها بالأمس تحترق اليوم. ولكن... ماذا حل بالجدة ؟ ! يجب عليهما انقاذ الجدة على الأقل، غيران التسلل إلى الداخل بات أمراً محالاً.

- ناني.. ناني...

ورداً على النداء، اخرجت الجدة رأسها من احدى النوافذ التي لم تصلها بعد السنة اللهب، فبدا شعرها المنفوش أشد لمعاناً وبريقاً من وهج النار المتوقدة. وما ان رآها الحفيدان حتى شرعا في الصراخ :

- ناني .. ناني ...

ورأتهما الجدة التي شرعت تتوعدهما بأصبعها وتهدد حفيديها الناكرين للجميل اللذين شاءا اخراجها من بيتها الحبيب.

- غفرانك يا أيتها الجدة العزيزة، فلن نؤجر البيت بعد اليوم.. واأسفاه ياجدتنا العزيزة، هيا اقفزي يا ناني...

وامتدت السنة اللهب إلى النافذة التي تقف فيها الجدة وأحرقت النارعينيها الرانيتين إلى حفيديها.. وظلت العجوز تشيرباصابع الاتهام إلى حفيديها وتهددهما حتى الرمق الأخير...

* * *

عوضا عن السمك

يروخان

كان هامبيك صبياً رشيقاً في ربيعه السابع أو الثامن عشر. تفتحت عيناه في الشارع وهو تجسيد حي لعاشق المستقبل، أو لذلك الصبي الراكض وراء السقاء في الشوارع حاملاً خيزرانه، أو لذلك الرجل القوي الذي سيبيع السمك في الساحات منادياً عليه بصوته الجهوري الأجش. كانت أمه غسّالة تقوم بغسل ثياب الحمالين العاملين على رصيف الميناء، وكانت المغسلة مهده الذي تربى فيه حتى عامه الثاني، حيث كانت أمه تناوله كسرة خبز يابسة يقضمها من الصباح حتى المساء زاعقاً باكيباً طوال اليوم. توفت والدته ذات يوم مختنقه بثاني أكسيد الكربون، بينما غرق والده الصياد في عرض البحر. وهكذا تيتم هامبيك في السادسة من عمره. فطفق يتسكع في الأزقة والشوارع وهو لا يكاد يجد مكاناً يأوى إليه ليلاً، ولا كسرة خبزيسكت بها قرقرة معدته نهاراً. بيد ان شظف العيش لم يقض عليه، بل أمده الله بجسد قوي وروح صامدة .

وطالما إنه لم يمتلك أي تصوروعن الحياة الرغيدة والسعادة الحقة، كان يخيل له ان الحياة التي يعيشها هي الاكثرسعادة وحبوراً. فكان يجول الأزقة والشوارع من شروق الشمس إلى غروبها، يقدم للناس خدماته المتنوعة كأن ينقل الماء إلى البيوت أو يحمل الأثقال هنا وهناك. كان يصرف قسماً مما يحصله على حاجاته اليومية، ويوفرالقسم المتبقي ليستفيد منه مستقبلاً في عمل أكثر ربحاً. مختصرالقول: كان هامبيك النشيط الحيوي والجريء يحظى باحترام الجميع. وعندما لم يكن يجد عملاً يناسبه، كان يسارع إلى رصيف الميناء حيث ينقل متاع المسافرين الخارجين من الباخرة.

كان قد وفق في اختيارمكان ملائم في حارة أثرياء الناس. وفي أوقات فراغه كان بوصفه شريداً متسكعاً، يسلي أبناءالحي بفكاهاته ونوادره ومحاكاته لاصوات الطير والحيوان. فكانت تلميذات المدارس يتحلقن حوله كل مساء راجيات:

- قلدّ لنا أصوات القطط، يا هامبيك .

ويبدأ هامبيك الشريد بتقليد أصوات القطط المتصارعة، وينهي القتال الدائرعائدة بهزيمة الهر أمام الهرة، أي بهزيمته هو أمام الفتيات. فكانت صأصأة البنات تثيرالارتياح والنشوة في نفس الصبي اللعوب، الذي لم يكن يدرك أي معنى للأهل والأقارب، والاخوة والاخوات، ولذا كان يقاسم الناس أفراحهم وأتراحهم، ويثور ويغضب لما يلحق بهم من أذى وضرر. كان هامبيك يشعر في لا وعيه بحب عميق ازاء هؤلاء الفتيات الصغيرات، تلك المخلوقات البريئة الوادعة. لا بل إنه كان في مسيس الحاجة إليهن، يستمع إلى ثرثرتهن ودلالهن، فلم يكن يتردد لحظة في تلبية رغباتهن وطلباتهن المغناجة .

نزل هامبيك ذات مساء إلى الرصيف بهدف نقل بعض الأحمال كعادته. ولما اقترب من الباخرة شاهد لفيفا من

الشبـان يتـربصـون خـروج المسافـريـن مـثل الذئاب الجائعة فـينقضـون عليـه لاختـطاف أغراضـه من بـين يديـه. وقـد امـتـاز هامـبيك ببـراعـة نادرة فـي هذا المجال، إذ كـان ينجـح دومـاً في اصطياد «زبون مدهن» وفي ذلك المساء، عندما كانت الباخرة دانية من الرصيف، والحمالون ينتظرونها بصبرنافذ، ظهرت بين المسافرين القادمين آنسة أنيقة الهندام حاملة بيديها رزمتين كبيرتين سلمتهما فوراً إلى هامبيك الذي اختطفهما حالاً، ملقيا نظرة سريعة على الفتاة لاستفسارها عن المكان الذي سينقل إليه المتاع. فقالت له الصبية بصوت رنان، ونبرة آمرة:

- اتبعني ...

تأبط هامبيك الرزمتين وسار خلف الصبية مذعنا، وقد تملكه نوع من الغضب ازاء مظهرها المتكبر، سيما وان الروائح العطرة التي كانت تفوح منها قد تثير الاشمئزاز عند الكثيرين. لم يشعر قبل ذلك بمثل هذه الأحاسيس: خشخشة الثياب الجديدة، خفق الحذاء القوي على حجارة الرصيف، والحركة الأنيقة ليدها التي تحمل مظلة مزركشة بالدانتيلا الصفراء، وجيدها الناصع البياض البارز من ياقتها المثلثة الشكل - كل ذلك أسكر الشاب شريد الشوارع. كانت النشوة قد استبدت به كلية فتمنى ان تطول الطريق إلى مالا نهاية؛ كي يتمتع إلى الأبد بهذه اللحظات السعيدة. كانت الأحلام الوردية الغريبة عليه حتئذ ، تتسابق داخل مخيلته مطلقة العنان لمشاعره وأحاسيسه المكبوتة فيلحق بتلك المخلوقة الخيالية، كان يسير وراءها تلقائياً وهو يستنشق أريج الهواء الذكي المطيّب بعطرها الفواح.

وفجأة، توقفت الفتاة الغانية أمام أحد الأبواب وقالت لهامبيك دون ان تعيره أدنى التفاتة:

- أترك الأغراض هنا واذهب، يا ولد ...

وانقدت الشريد أربعينية من قطع النقود .

لم يعاين هامبيك قطعة النقود، لكنه تسمرّ في مكانه

من جـراء الصـدمـة التي اصـابتـه. اسـتـجـمـع قـواه، ثـم سـار الهوينا وهو يتمتم قائلاً :

- يا للعجب، فأنا لم أر في حياتي فتاة كهذه.. ما أروع عنقها!

ولأول مـرة لم يذهب ذلك المساء إلى الشار ع المعتـاد، ولـم يجمع حوله الفتيات الصغيرات اللواتي استغربن جداً غيابه وتساءلن حائرات .

- أين هامبيك ؟ ! لم يأت اليوم وهو الذي وعدنا بتقليد نباح الكلب هذا المساء.

واكتئبت الفتيات جداً تلك الأمسية

نام هامبيك تلك الليلة دون عشاء وكله أمل في الانتقال إلى دنيـا الأحلام وهذا مـا يحـدث عـادة في حيـاة الإنسان حين ينتظر الشعـور الكامن في لا وعي الإنسان فـرصـة سـانحـة للتـعـبـيـر عن نفسـه. وهامـبـيك لـم يشـعـر قـبل ذلك اليـوم باحساس شهواني جامح كهذا حقاً ان الامتحان كان عسيراً جداً بالنسبة له في تلك الليلة .

كان مستلقياً في فراشه وهو يتمتم باستمرار

- يالجمال جيدها الناصع

أستـيقظ هامـبـيك صـباحاً وابـتـسامـة الرضى تـشـع في عينيـه وترتسم فوق شفتيه، فقال في سره

- سأترك هذه الحارة وانتقل إلى هنـاك، فـعسى ان يكون الربح أكثر، ولعل .

وقطع حبل أفكاره، إذ شعت عيناه بريقاً وضرب جبهته بيده قائلاً

- يا لله ما أروع جيدها البض الأبيض !

وفعل كما قال ففي ذلك اليوم بالذات انتقل إلى الشار ع الذي تسكن فـيـه تلك الآنسـة. . بحث طويلاً حـتى تمكن من ايجـاد ركن في أحـد البـسـاتـين أشـبـه بالزريبـة، نقل إليـهـا فراشه المصنوع من التبن وبعض ما يسمى بالآثاث.

وبعد ذلك قام بجولة في الشارع عارضاً وجهه البشوش على المارة، مبديا حركات تكسبه ود واحترام الناس. وهنا أيضاً استمر في تقديم خدماته بنشاط وحيوية قلّ نظيرهما. كان لايفوت فرصة في المرور من أمام تلك الدار التي تسكنها قرة العين. كان يراها بين الحين والآخر جالسة خلف النافذة، فيسترق النظر إليها، ولا سيما إلى جيدها الأبيض الذي تناثرت فوقه خصلات شعرها الأسود الفاحم. تلك النظرات السريعة العابرة كانت بمثابة سعادة كاملة بالنسبة إليه احالت فراغ حياته غنى وامتلاء، فكان لسان حاله يردد قول الشاعر:

فسحر الهوى هو هذا الغموض، وسحر الهوى هو هذا الخفاء

ففي الحب قوة خلق تحيل نفوس المحبين كيف تشاء

بيد ان لغة الشفاه والعيون كانت تصليه ناراً مستعرة في وحدته، ولا سيما حين يكون مستلقياً في فراشه الذي أخذ يقض من مضجعه. وفي كل مرة كان يمد قدميه المتعبتين ليريحهما من تعب النهار، كان يردد جملته اللاذبة :

- يا لله ما أعظم وأجمل جيدها ...!

وبفضل جسارته واقدامه تمكن أخيراً من الولوج إلى الدار التي تسكنها الآنسة التي لم يعد طيفها الحبيب يبارح مخيلته لحظة واحدة. كانت تسكن الدار أسرة ثرية مؤلفة من الوالدين والآنسة سيرانوش وصبي واحد. وسيرانوش في نظره تجسيد حي للانوثة والجمال وعنوان الكمال، ولذا أصبحت قبلة الكثيرين من الشباب الذين أخذوا يحومون حولها إما طمعا في مالها، وإما ولها بجمالها. غيران سيرانوش كانت متكبرة متعالية، ولم تعر انتباها للعروض التي تقدم بها الشبان الهائمون في غرامها -كما يقولون. كانت فتاة مثقفة لا تفكر في الزواج إلا بمن تعتبره فارس أحلامها الذي بدا لها بعيداً جداً -على حد تعبيرها.

غيران تصوراتها عن اقتراب موعد وقوعها في الغرام

كانت خاطئة تماما. ففي إحدى الأمسيات (وكيف سيكون حال الشبان والشابات بدون هذه الأمسيات؟) قابلت شابا وسيما يتمتع بالأوصاف والمزايا التي كانت تحلم بها، فأعجبت به أيما اعجاب. ومن نافل القول ان الشاب بادلها الإعجاب وبالغ في مجاملتها واطرائها، ساكبا في أذنها سيلاً من الكلمات العاطفية التي حفظها ليرددها على مسامع الفتيات في مثل هاتيك الأمسيات.

خلال سويعات قليلة تحول الإعجاب إلى حب وهيام... ولكن الوقت لم يمهلما فرصة التعبير عن خوالج النفس، وتصرمت الأمسية سريعاً مثل سحابة صيف تسوقها الرياح. وبما ان اللقاء بالحبيبة لم يكن من الأمور الميسورة، فإن الشاب الجسور أقدم على بث لواعج نفسه من خلال رسالة وردية بعثها إلى الحبيبة. فتحت سيرانوش الرسالة بيد مرتجفة، وقد تورد خداها حياء وخجلا، فقرأت عبارات الحب النارية التي يختتمها الحبيب متمنياً ان ترد عليه. غير ان الفتاة التي كانت تنقصها الخبرة في مسائل الحب، راودتها أفكارحرمتها طعم النوم ومذاق الراحة. فالشاب الذي اكتوى بنارحبها يتعذب كثيراً وهذا ما يحز في نفسها ويعصر فؤادها. قررت أخيراً الرد عليه، ولكن كيف توصل الرسالة إليه؟ ان أقل شبهة حول اسمها يسيء إلى سمعتها وطهارتها. اعملت فكرها طويلاً حتى اهتدت إلى السبيل.

ذات يوم جلست الآنسة إلى النافذة، ولم يكن في الدار أحد غيرها. وحدث ان مرهامبيك أمامها راشقاً إياها بسهام لحظيه. توقف فجأة وتساءل هل يصدق ما يرى؟ نعم. وألف نعم.. إنها تناديه... حدق مليا حتى تبددت جميع شكوكه، فالآنسة تناديه حقا.. ترى هل هذا حلم أم حقيقة...؟!

- وأعجباه ..! وافرحتاه ... !

قال ذلك بسرورعظيم ودخل من باب الدار المفتوح .

وقف هامبيك وجها لوجه أمام سيرانوش التي نظرت إليه قائلة:

- لو طلبت منك شيئاً فهل تلبيه، يا هامبيك ؟

- اطلبي ألف طلب إلبيها جميعاً .

قال الشاب هذا الكلام بنبرة تنم عن استعداده الكامل للتضحية بنفسه، إذا اقتضى الأمرذلك ، وهذا ما أدخل البهجة والسرورعلى قلب الآنسة التي رجته قائلة :

- عاهدني ألاّ تخبر أحداً بما ستفعله لأجلي .

اخرجت الآنسة الرسالة من صدريتها المزخرفة بضفائر الزهور. نظرت إليها مترددة، ثم مالت برأسها نحوه بشكل لامست فيه أنفاسها العبقة خديه، واسرت إليه بشيء ما. فاغتنم الشريد هذا الوضع الملائم ليسترق نظرة سريعة، وليطلق زفرة طويلة.

وفي لمح البصرخرج هامبيك حاملاً الرسالة لايصالها إلى من يهمه الأمر، وهو يدمدم قائلاً :

- يجب عليّ ايصال هذه الرسالة إلى السيد أرمين. هذا أمرحسن، ولكن لماذا تراسله، ياللعجب؟ ترى ماذا كتبت له.. آه، لقد فهمت.. أجل، لقد اعدوا الطبخة... هل آخذ الرسالة أم لا؟ الأفضل ان أوصلها كي ترسلني مرة اخرى.. والخمسة قروش لأباس بها أيضاً... آه لو... من جيدها بدلاً من النقود...

ولم يجرؤ على البوح بما دار في رأسه من خيالات وأفكار شهوانية.

المهم الآن، ان هامبيك أصبح يمر أمام النافذة فينظر إلى سيرانوش بكل حرية ويبتسم لها، فكانت سيرانوش تعتقد ان ابتسامته ليست إلا تعبيرعن عرفانه وامتنانه لقطعة الخمسة قروش.

لم يكن ما فكربه الشريد المتجول ضربا من العبث. فبعد أيام قليلة، وبينما كان هامبيك ماراً من تحت النافذة، كانت سيرانوش في انتظاره لتسليمه رسالة اخرى، وهي تقول له:

- خذها إليه، يا هامبيك.

وضع الصبي القروش في جيبه، وأوصل الرسالة إلى صاحبها.

وبعد أربعة أيام آخر، سلمت سيرانوش رسالة أخرى إلى هامبيك الذي سيأخذها إلى العنوان ذاته.

وفي كل مرة كأن الشريد يحصل على خمسة قروش.

ولكن حين اسلمته الفتاة البريئة رسالتها الخامسة، وقدمت له القروش الخمسة، دفع هابيك يدها وقال :

- لا أريد نقوداً .

- ماذا تريد إذاً ؟

اقترب هامبيك من سيرانوش بعيون متوسلة، فأمسك يدها برقة ومال برأسه إلى أسفل أذنها، ثم قال بصوت متهدج:

- أريد قبلة من جيدك .

ابتعدت الفتاة مذعورة وبريق الغضب يلمع في عينيها وارتجفت شفاهها الكرزية الرقيقة لتقول له بلهجة حازمة وتقريعية.

- اغرب عني أيها الكلب الطريد، سحقاً لك أيها الشريد...

ارتعد هامبيك قليلاً من منظرالآنسة المخيف. وضع الرسالة في جيبه وهز رأسه متوعدا، وقال :

- لا تنسي ما تفوهت به اليوم.

بعد ذلك توارى هامبيك عن الأنظار، فكان أهل الحي يستغربون غيابه المفاجىء. سأل عنه كل من عرفه وأحبه، ولا سيما تلميذات المدرسة اللواتي تأثرن وحزن جداً لغيابه وهن يرددن قائلات:

- مسكين هامبيك .. لعله مات جوعاً...

كرت الأيام والأعوام .

وأصبحت الآنسة سيرانوش امرأة سعيدة بزواجها من ذلك الشاب الذي أحبته جداً، ورأت فيه الشاب المثالي والزوج الوفي المخلص. انقضى شهر العسل حلوالمذاق، وكأنه لحظة في عمر الزمان. بيد ان المرأة الوفية التي أحبت زوجها حباً صادقاً، كان مقدراً لها العيش في ظروف من الحزن والقنوط. كانت تحلم دوما في عيشة زوجية رغيدة هانئة، ولكن حياتها الزوجية لم تكن سوى اضغاث أحلام وكوابيس مريعة. فزوجها الشاب الماجن استبد به البطر والغرور، وعافت نفسه قيود الحياة الزوجية فأسلمها إلى الدنيا البائحة التي تغدق كثيراً في تبذير الملذات والشهوات الجامحة.

في البداية كانت سيرانوش تخادع نفسها بشأن المسلك غيرالقانوني الذي اتخذه زوجها. وسرعان ماتبددت جميع أوهامها وغدا الزوج لامباليا تماما تجاهها، سيما وان الزوجة المخلصة كانت تخشى الافصاح عن ذلك لأهلها وذويها الذين عارضوا أصلاً زواجهما، فلم يكن بمقدورها طلب مساعدتهم. ولذا اضطرت للبحث عن وسائل أخرى. حاولت أولا الكشف عن الأسباب التي أدت بزوجها لابداء البرودة نحوها. وأدركت بفراسة المرأة الذكية ان هناك امرأة أخرى تعدّت على حقوقها الزوجية لتستمتع بحب زوجها.

فكرت طويلاً فيما تنوي عمله واتخذت قراراً حاسماً بذلك.

كان قد تناهى إلى مسامعها ان منجمة بارعة تعرف حظوظ ومصائر الناس، وتعد بلسماً شافياً للقلوب المكلومة، يعجز حتى الطب عن تحضيرها.

كفكفت سيرانوش الدموع في مآقيها، وخنقت حسرات قلبها الملتاع، وتوجهت إلى المرأة التي ترجم بالغيب. كانت امرأة بدينة في الستين من عمرها، جلست على الأريكة بارتياح ظاهر، وهي تعبث بحبات مسباحها. استقبلت الزبونة الغرة المضطربة استقبال الأم الرؤوم، بعد ان عاينت قامتها وهندامها لحظة الدخول، فقالت :

- تعالي إلي يابنتي، ماخطبك ؟

وخنقت الغصة حنجرة سيرانوش التي تحمر خداها خجلاً واغرورقت عيناها بالدموع. فخاطبتها المنجمة قائلة:

- أخبريني بأمرك كي أخلصك من مصيبتك.

لامس الصوت الحنون الدافىء شغاف قلب سيرانوش التي بدت وكأنها نسيت أحزانها وعذاباتها. هدأت من روعها قليلاً، وحكت للمرأة قصة حبها الأول والمصائب التي اعترضتها فيما بعد. وتوسلت إليها ان تجد لها دواء يشفي قلبها المريض ويعيد رجلها إلى عش الزوجية كي ينعما معاً بالسعادة والهناء.

وهنا ردت المرأة على سيرانوش بحنان وعطف بالغين:

- لاتقلقي يابنيتي، ليت كل هموم الناس مثل همك. لن يمضي شهرحتى يعود إليك زوجك عاشقاً ولهاناً.

وللحال بدلت المنجمة ملامح وجهها، فاغمضت عينيها اغماضة شبه كاملة، وشرعت تمتم بكلمات مبهمة وهي تقلب بأصبعها خرزات السبحة السوداء. استغرقت العملية زهاء ربع ساعة وبعدها تفوهت قائلة:

- سأخبرك يابنتي بأمر يجب عليك ان تقومي به مباشرة. أنصتي إلي جيداً. حقاً إنه ليس بالأمرالهين، ولكن ما باليد حيلة بعد أن وصلت إلى هذه الحالة. والصعوبة كامنة في إنك لن تجدين سمك البلخ في سوقي «بيوغلي» و«غلاطية»، وأنا أشك في العثورعليه، لأن وقته قد فات. ولعلك تجدين سمكاً يحتفظ به ليبيعه بثمن غال جداً. إذن، حاولي بذل المستحيل للحصول على سمك البلغ، وبمجرد عثورك عليه سارعي إليّ فوراً كي نستل معاً حسكه، واتلو عليه بعض التمائم، ثم تأخذينه إلى البيت حيث تجففيه وتدقيه حتى يتحول مسحوقاً تضعين بعضاً منه فيما يأكله ويشربه زوجك ، وترشين بعضه في فراش الزوجية. وإذا انقضى الشهر ولم يعد إليك بعلك، فأنا لست الفالجية مريم.

هيا قومي يا ابنتي ونفذي ما قلته لك حرفيا داخل بيتك ودون أن يعلم به أحد غيرك.

خرجت سيرانوش منكسة الرأس، مرتاحة النفس مصممة على البحث عن السمك البلخي في تلك الليلة بالذات، فلعلها تجد سمكة واحدة تشتريها مهما كان الثمن غالياً.

كانت المصابيح موقدة في شوارع حي «البيرة»، حيث هدأت حركة الناس بعد ان أمطرت السماء مطرا خفيفا. دخلت المرأة ذلك الشارع مغطاة بوشاح أسود كالليل، حيث كان بائعو السمك الأرمن يعرضون أنواعاً متباينة ينادون عليها بأعلى أصواتهم، وهم يعددون مزاياها وفوائدها. اقتربت المرأة بخطى وجلة من أول بائع، وسألته هامسة عما إذا كان لديه سمك البلخ. نظر الرجل إليها باستغراب ثم حك رأسه قائلاً:

– يا ريت.. لا وجود للبلخ في هذه الأوقات.. اسألي غيري يا أختي...

انطلقت سيرانوش انّة خفيفة وابتعدت. وجهت السؤال نفسه إلى بائع آخر أجابها قائلاً :

– ما عندي، يا أختي.. وأظن أن هامبيك عنده، فابن الكلبة هذا تجدين عنده كل ما يحلو لك. هل ترين ذاك الحانوت في الطرف المقابل..؟ ادخليه واسألي عن هامبيك عساك تجدين طلبك عنده ...

سارت المرأة إلى الحانوت المشار إليه ودخلت من بابه.

كان السماك رجلاً فارع الطول منشغلاً بتعبئة الأسماك في الأكياس. ولما سمع وقع الخطى التفت إلى الوراء فوجد نفسه وجها لوجه أمام امرأة تسأله :

– هل أنت هامبيك ؟

تناهى الصوت الأليف إلى مسامع هامبيك الذي تملكته قشعريرة مفاجئة فأجاب :

– أجل، أنا هو .

- هل عندك سمك البلغ ؟ سأدفع لك ما تريده .

كان البائع على خطوة من الزبونة، التي شرع يحدق في وجهها على ضوء الفانوس. ارتسمت ابتسامة مرة حزينة على شفاه الصياد، الذي أجاب بصوت مغصوص:

- عندي .

وانحنى على احدى الجرار فأخرج منها سمكة ووضعها على الطاولة وهو يقول :

- ها هي ...

- كم أدفع لك ؟

- سأقول لك ...

دسّ الصياد يده في عبه وأخرج ورقة صغيرة ثم وضعها على السمكة مفتوحة وسأل سيرانوش بأسى ومرارة قائلاً :

- هل تعرفين هذه الورقة؟

وانحنت المرأة لتشاهد الورقة التي اصفرت مع كر الأعوام، فقرأت العبارة التالية: «إلى معبودي أرمين». فارتدت وقد عراها الإرتباك، ثم همست مستفسرة :

- هامبيك ؟ !

- نعم، أنا هو هامبيك... أريد قبلة من جيدك عوضاً عن السمكة.

وتشابكت نظراتهما برهة من الزمن، وتحاكت عيونهما دون كلام.

حسرت سيرانوش الوشاح عن وجهها، وأحنت رأسها خاشعة مثل شاة تتهيء للذبح، ثم رفعت خصلات شعرها ودنت من الصياد وهي تقول له:

- خذها .

راقب هامبيك المرأة الملتاعة المنحنية أمامه، فاغرورقت عيناه بالدموع وبدلاً من أن ينحني لتقبيل جيدها، ارتد خطوة إلى الوراء، وقال بصوت كسير حزين:

- لا داعي لذلك ... خذي السمكة واذهبي .

اوديــك اسحاقيان

شاعر، ناثر، ناقد وشخصية اجتماعية أرمنية بارزة، ورائد كبير في الأدب الأرمني الحديث. أكاديمي منذ عام ١٩٤٣، حائز على جائزة الدولة في الاتحاد السوفييتي (سابقاً) (١٩٤٦)، وعضو اتحاد الكتاب السوفييت (١٩٣٦).

– ولد في مدينة الكسندرابول (حالياً كومايري – لينيناكان سابقاً).

– قضى طفولته في الكسندرابول وقرية غازارآباد، حيث كان لوالده طاحونة مائية.

– تلقى تعليمه الابتدائي في مسقط رأسه. ومن ثم في مدرسة كيفوركيان اللاهوتية باتشمياتزين خلال سني ١٨٨٩ – ١٨٩٢.

– نشر باكورة أشعاره في مجلة «الطراز» بعنوان «برعم وردة» (١٨٩٢).

– سافر إلى أوروبا عام ١٨٩٣ لتلقي التعليم العالي. اشتغل في واحد من متاحف فيينا.

– انتقل إلى ألمانيا، حيث تردد على سماع المحاضرات في جامعة ليبزيغ.

– عاد إلى الوطن عام ١٨٩٨ للمشاركة في النضال الوطني التحرري. اعتقل عام ١٨٩٦ فأمضى سنة كاملة في سجن مدينة يريفان.

– نفته السلطات القيصرية إلى اوديسا عام ١٨٩٨، حيث مكث هناك حتى ١٨٩٩.

– هاجر إلى أوروبا مجدداً مستقراً في جنيف وزويرخ. وعاد الى الوطن سنة ١٩٠١ وبقي حتى العام ١٩٠٤ حين غادره

إلى موسكو ومن ثم إلى بطرسبورغ.

- اعتقل عام ١٩٠٨ وسجن في قلعة مدينة تفليس.

- تزوج عام ١٩٠٩.

- غادر والبلاد فاراً من وجه العدالة عام ١٩١١ إلى الأستانة ومنها إلى فيينا فجنيف عام ١٩١٢. تنقل في العديد من المدن والعواصم الأوروبية حتى سنة ١٩٢٦ عندما ترك عائلته في باريس وقفل هو عائداً إلى الوطن ليعيش فيه حتى عام ١٩٣٠.

- ومع اشتداد القمع الستاليني غادر اسحاقيان الوطن المعذب إلى باريس.

- ترأس اتحاد الكتاب الأرمن في سنوات ١٩٤٦-٩٥٧.

- توفي في ٢٧ تشرين الاول ١٩٥٧.

أقرت الدولة جائزة اسحاقيان لأفضل الأعمال الشعرية.

• أهم أعماله الابداعية: «ألحان وجراح» (١٨٩٧)، «ابو العلاء المعري» (١٩١١ له طبعات عديدة وترجمات كثيرة منها العربية)، «أزهار الخريف» (١٩٢٢)، «ليليث» (١٩٢٧)، «أمثال» (١٩٤٦)، «من ذكرياتي» (١٩٤٦)، «مالك الحزين» (١٩٤٨)، «قصص واساطير» (١٩٦٢)، «الوصية» (١٩٧٣)، «فارس الصمت» (١٩٧٣) «قلب الشاعر» (١٩٧٥)، «ذكريات» (١٩٧٧)، «الفارس الهمام» (١٩٨٠).

نشرت أعماله الأدبية الكاملة مرات عدة. له ترجمات مختارة من الأدب الأوروبي، فضلاً عن الكثير من المقالات الأدبية والنقدية في الدوريات الأرمنية.

القصص القصيرة «الريح العاشقة» و«الخليفة المنتصر» و«معنى السعادة»، وأسطورة «ليليث» تعكس حنين الشاعر الأرمني الكبير إلى الشرق وحبه العظيم الذي يكنه له وللإنسان الشرقي.

ليليث
اسطورة عبرية

بعد ان خلق الباري السماء والأرض وجميع المخلوقات والكائنات بقوله كن فيكون، تناول حفنة من تراب مرغته العجماوات وخلق الانسان الأول: آدم.

خلق الإنسان ليبتهج بابداعاته السامية وليمجد اسم الرب.

ابدع الإنسان واهباً إياه جنة عدن مأوى له.

لقد انبهر آدم المخلوق لتوه من عجائب الرب حين رأى مختلف أنواع الحيوان والطيور والنباتات فسبّح وبارك اسم الرحمن عز وجل .

وسرعان ماأحس آدم الملل والأم والوحدة القاتلة.

ولما شعرالرب بالكآبة والحزن المخيمين على آدم، فكّر في نفسه قائلا:

- « لنخلق لآدم رفيقاً جميلاً يتمتع واياه بأطاييب الفردوس ».

وللحال أمسك الخالق بالشرر المتطاير من النار وأبدع منه المرأة البكر: ليليث. ثم نظر بإعجاب إلى مخلوقه الجديد وقال: «طيبة لأنها جميلة».

ونادى على آدم ثم وضع يد ليليث في يده وقال: «اليك ياآدم ليليث الرقيقة الصبيحة. لينظر كل منكما في عين الآخر فيرى ذاته. أحبا بعضكما البعض من قلبيكما، وانسلوا وتكاثروا. اتبع ياآدم ليليث كل حياتك، وأنت ياليليث يكون اشتياقك إلى رجلك وهو يسود عليك».

نظرت ليليث آدم فأحست فجأة رائحة التراب وهبطت نظراته عليها ثقيلة كالتراب، التي أخذ منها، فسارعت لسحب كفها من راحته.

حدّق آدم في ليليث فتجسد أمامه جمال أخّاذ ملك عليه لبه، وطار بروحه إلى أعماق الهاوية ليحطمها أيما تحطيم.

وأطبق آدم عينيه خوفاً وهلعاً.

وما كاد يفتح ناظريه حتى تمتم قائلاً :

- سبحانك الله، لقد خلقت الأجمل والأكمل من كل الكائنات. لقد أبدعت تاج الكون العجائبي ، فالحمد لك في الآزال والآباد.

لما سمعت ليليث هذه الكلمات الرقيقة مالت برأسها إلى الكتف الأيمن دلالا واغراء، وشعت ابتسامة الرضى الأولى فوق محياها الوضاء.

وتملك آدم شعور غريب يدفعه دفعاً للامساك بيد ليليث ثانية، لكنها اختفت كالشرر.

وشعر آدم بقلبه معلقاً في أكعاب ليليث المنورة بوثاق لا تنفصم عراه. فسار وراءها حتى وصلت شاطىء البحيرة الذهبية، حيث تستجم البجع الريانة الناصعة البياض.

كانت ليليث ترقب البجع مشدوهة بسحر أعناقها الظريفة المرنة.

ونادت على الفور احداها فاقتربت منها. وركعت ليليث لمداعبتها بصوتها الرخيم. وفجأة رأت صورتها على صفحة الماء الراكدة، فأيقنت انه ظلها وسادها احساس بروعتها وفتنتها. ثم ضفّرت شعرها الاثيث المرسل على صدرها، وأطلقت ضفائرها في الهواء لتتراقص على كتفيها ومنكبيها. ونظرت مجدداً إلى صورتها الجميلة مأخوذة بجمالها الساحر.

كانت صفحة الماء تعكس السموات الزرقاء والشمس الحمراء وبعضا من الجنة الغناء. فاقتنعت ليليث أن نار الشمس أقل بهاء من عينيها الناريتين، وان أعماق السماء لاتضاهي قرارة عينيها. أجل، انها الأكمل في هذا الفردوس، وهي لاغيرها تشع بنور وجهها الوضاء على البحيرة والجنة بكاملها .

أنذاك وقفت فراشتان الماسيتا الجناح على شعرها الفوّاح، فنظرتهما قائلة: رباه ماأجملهما، ليتهما يزينان شعري هكذا الى الأبد.

وللحال قطفت بعض الأزاهير العطرة الملونة بآلاف الألوان وزينت بها شعرها.

كان آدم يقف نائيا وهو يراقب رفيقة حياته بدهشة واستغراب، دون ان يتجاسرحتى على الاقتراب منها. وماكاد يجمع قواه ويدنو منها حتى اختلط ظله بصورتها، فهبت واقفة ثم رمته نظرة شذراء فقال متلعثماً :

- ما أروع هذه الزهور يا ملاكي ؟!

فقاطعته بازدراء :

- أنت لاتدري ماهذا. انها من العجائب !

- لا ياعزيزتي، اني أعرف كل شيء. فأنا أعرف أمكنة في هذا الفردوس لم تطأها حتى اقدام الباري عز وجل. هناك أزهار عبقة فريدة الألوان، وأشجار ذات أوراق منيرة مزدانة بأحلى الثمر فهلاّ ترغبين في الذهاب معي إلى تلك الأماكن؟

قال آدم ذلك بصوت حسير كسير رقّ له قلب ليليث بعض الشيء.

حسناً سنذهب يوماً ما.

- أجل، ياحبيبتي متى شئت ذلك، فأنا طوع بنانك. ولكن، هاهو المساء يفرش جناحيه علينا، فهيا بنا إلى جناحي الذي بنيته خصيصا لك قرب أعشاش العنادل البديعة، وزينته بأبهى الأزاهير العطرة. هيا بنا، تنامين أنت مرتاحة وأقوم أنا بحراسة أحلامك .

- كلا، كلا، اياك عني، اني تعبة جداً .

قالت ذلك وسارت الهوينا إلى أعماق الجنائن. ولاذ آدم بالصمت وتبعها منكس الرأس مكسور الخاطر.

- دعني لوحدي، أرجوك ...

- أمرك ياعزيزتي، ولكن متى أراك ؟!

- غداً .

قاطعته بلهجة آمرة واختفت بين الأشجار في لمحة بصر.

* * *

كانت ليليث جالسة قرب النبع الرقراق مصيخة السمع لكركرته العذبة، محدقة في القبة الزرقاء المرصعة بالنجوم الساطعة. فدبت نشوة خفية في اوصالها وغالبها النعاس فنامت حتى الصباح فوق الأزاهير ولم تستيقظ إلا على عندلة الطيور السجية.

وطلع فجر انتشر نوره وضاء في ربوع الفردوس، وشعت الشمس بألوانها السحرية فأضاءت أرجاءه العجائبية. كان آدم يسابق ظله للوصول سريعاً إلى خباء ليليث، محملاً بسلة مليئة بأشهى الفواكه والثمار وهو ينادي ليليث بصوته الجبار:

- ليليث ...

ولم يأته الجواب.

صرخ بأعلى صوته دون ان يحرى جواباً.

فطفق باحثا عنها قرب النبع ولم يجدها. ثم توجه إلى البحيرة والجنائن القريبة منها فاشبعها بحثا وتنقيبا ولم يعثر عليها.

- هل أصابها مكروه ياترى؟ لعلها اضلت طريقها داخل الغابات والاحراج البعيدة؟ يجب ان أبحث عنها في كل مكان.

ترك السلة قرب خباء ليليث وانصرف باحثا عنها. وأضاع نهاره وهو ينشد ضالته ويصرخ منادياً: ليليث.. ليليث...

وهبط المساء ثم خيّم الليل بظلامه الدامس .

ارتمى آدم تحت شجرة وحاول النوم، لأنه عجز عن رؤية درب العودة .

وعندما أشرق الصباح وانتشر النور في قبة السماء الزرقاء هب راكضاً إلى النبع، فوصله لاهثا متعبا وهو ينادي ليليث بأعلى صوته. ولما رآها بادر محيياً:

- صباح الخير.

- لا تقترب مني، فأنا لم اغتسل بعد.

تناهت كلمات ليليث قارعة اذنيه، فتبادرت إلى مخيلته عذابات الأمس وتملكه الغضب وقرر معاتبتها ولومها، لكنه تمالك أعصابه وخاطبها حانياً:

- أين كنت البارحة ياعزيزتي؟ لقد فتشت عنك كثيراً فلم أجدك.

- البارحة؟! لقد جئت البحيرة ولم ارك فشرعت اسابق الايلة والغزلان حتى وصلت إلى أماكن جديدة مليئة بالعنادل البديعة فأخذت بشدوها ومكثت هناك حتى المساء.

- واعجباه؟ ! متى اتيت البحيرة؟ أين كنت حتى لم ارك؟

فاجابته بلهجة قاطعة:

- لقد انتظرتك هنا وهناك على الشاطىء، ولكني لم ألحظك لا هنا ولا هناك.

سكت آدم لحظة مفكراً ملياً ومتسائلاً كيف يعقل ألاّ يراها؟ لا، هذا أمر غير معقول ولا مقبول، ومع ذلك أذعن للأمر وقال بحنو:

- ليليث ياجميلتي، لقد أحضرت فاكهة للفطور.

- تريث قليلا، فأنا لم أسرّح شعري بعد.

- وجلبت لشعرك الجميل أزهاراً مغموسة بندى الفجر.

- اشكرك، لاحاجة لي بها.. انتظر قليلاً ريثما أحضر اليك.

وانتظر آدم. فتطايرت ليليث كالشرر ثم عادت لتقف أمامه وقدماها بالكاد تلامسان الأرض.

- آه، انها ذات الفواكه التي وجدتها أمام خبائي.

- لقد احضرتها من أماكن رائعة جداً. لنذهب ياروحي معا؟

- تمهل قليلاً، ان لدينا متسعا من الوقت.

وجلست للافطار بينما احتل آدم مكانا إلى اليسار من ليليث كي يهب خلجات صدره الملتاعة الحرية المطلقة وليقول متحسراً:

- كم أنت جذابة ياليليث، لقد قضت الوحدة من مضاجعي.

واحتضن خصر ليليث بهيام شديد وضمها بقوة إلى صدره المحترق. فهبت واقفة وابتعدت هاربة وهي تقول له:

- ماهذا؟ انك تضمني بفظاظة مابعدها فظاظة، لقد حطّمت ضلوعي .

وادارت له منكبيها دلالة على عدم رضاها واستنكارها. كان منكباها الأرجوانين أشد روعة وجمالاً من طيف الشمس الذي يملأ رحاب الفردوس. فنظرها آدم وقد انقبضت روحه وأمسك بيديها ملاطفاً متحبباً ثم نظر في عينيها النجلاوتين فانبهر مسحوراً وقال:

– عذراً ياحياتي، ياروح روحي. لاترمقيني هكذا صامتة حزينة، بل ابتسمي وتكلمي بما يحلو لك. آواه، كم أتمنى ان يكون لي ألف اذن وأذن لأستمع إلى صوتك العذب ألف مرة ومرة دون ان ارتوي.

جلست ليليث. وعمّ سكون مطبق حزين قطعته ليليث قائلة:

– هل خلقك الله منذ أمد بعيد ؟

– أجل، يا جميلتي.

– وماذا كنت تفعل وحيداً في الجنة ؟

– كنت أطوف فيها بحثا عن رفيق لي بين البهائم .

فسألته ليليث وهي تداور عينيها خبثا :

– وهل وجدت لك رفيقاً ؟

– لا، لم أجد، ولهذا أبدعك الخالق لأجلي أنا .

– أوجدني لك أنت ؟ هه .. هه .. هه ..

قهقهت ليليث طويلا فاغتمّ آدم وعم صمت أطول قطعه الأخير يائساً وشارحاً:

– أجل، خلقك لأجلي كي لاأعيش منفرداً، كي نكون رفيقين اني افديك بحياتي وروحي.. أما أنت ؟... لعلك لاتدرين ان النعيم جحيم من دونك، والحياة من غيرك ممات. ان هذا لايروق لربنا أبداً وسيغضب جداً لو علم بذلك...

وارتعش صوته الذي خنقته العبرات.

تفرّست ليليث محياه البائس واطلقت قهقهة عالية، ولكنها عادت إلى صوابها بعد ان تناهى اليها اسم الله تعالى، وتطلعت إليه بنظرة حانية راضية ثم سألته:

– لما تبكي يا آدم ؟ لما تتكلم هكذا ؟ ألم اكن لطيفة معك ؟!

وطفقت تداعب لحيته المبعثرة بأصابعها الرقيقة، فامتلأ

فـؤاده زهـواً وخـيـلاءً وبات مـسـتـعـداً للركـوع أمـامـهـا، طـالبـاً غفرانها وعفوها. وعندها خاطبته بصوت رقيق عذب فقالت:

- لابأس عليك ياعـزيـزي، هـيـا أمـسك لي هذه الزهـرة الطـائـرة.

- هذه فراشة وليست زهرة .

- لا عليك، أمسكها .

وركض آدم وراء الفراشة محاولاً مسكها ولكن واأسفاه.

- سأقبض عليها في الحال. قالت ليليث ذلك وقفزت في الهواء وأمسكت بالفراشة في لمحة من البصر.

- أرأيت يا آدم كم انت ثقيل؟

فاستشاط آدم غيظا ورد مدافعا عن نفسه:

- حقا اني دونك في الوثب، ولكني سريع الجري.

- لا تـزهـو بـنـفـسـك كـثـيـراً، لانك لا تـقـدر على الركض أيضا.

- أقدر على ذلك ، فهيا بنا.

- لا داعي لا تعابك.

وتشبث آدم برأيه فقالت له:

- حسنا، لو تمكنت من اللحاق بي أعطيتك أشهى ثمار الجنة.

فسألها مستغرباً:

- مـاهـو هذا الثـمـر الشـهي الذي تـعـرفـيـنـه ولا أدري أنا كنهه مع اني تذوقت كل فواكه الفردوس ؟!

- القبلة.

- القبلة ؟! وماهي القبلة ؟ تساءل آدم مندهشا.

- أجل القبلة، التقاء الشفاه بالشفاه، ألا تدري؟!

وفكر آدم في نفسه، «انّى لها معرفة أشياء كهذه، كيف ومتى تعلمت ذلك» ثم رمقها بنظرة فاحصة حائرة، دون ان تنطق هي ببنت شفة. لكن نظراتها النارية كانت كالسهم المارق الذي أصاب بؤبؤ عينيه وأزهق روحه.

ركضت ليليث خفيفة رشيقة وتشجع آدم جاريا خلفها. فكانت تختفي بين الشجيرات آنا وتثب في الهواء آنا آخر. وعندما وقفت مبتسمة مشجعة إياه للاقتراب منها وتقبيلها من شفتيها الكرزيتين، فلم يقدر على امساكها أبداً. وعندها سألته قائلة:

- من أي شيء خلقك الله يا آدم ؟

- من التراب وعلى صورته.

- من التـــراب هه هه هه... ذلك هو ســبب ثقلك وقلة حركتك وسماجتك.

وثارت ثائرة آدم وانطلق وراءها وكأنه يركب جناحي النعامـة لكنه بالكاد لامس شعرها. وكانت ليليث تقفز كالقبرة متخفية بين الدغيلات ضاحكة مقهقهة وهي تقول له:

- كفاك عذابا يا آدم وهيا بنا نطوف أرجاء الجنة.

كان آدم المغلوب على أمـره يتابع البحث عنها بين الأشجار فلا يرى لها أثراً.

* * *

مع انبلاج الفجر تسمّرآدم قرب النبع منتظراً قدوم ليليث التي تراءت له كالحلم وقد وشّت شعرها بالأزهار فقالت:

- لنذهب إلى الأماكن التي تمدحها كثيراً.

- اواه يا عزيزتي، فالمديح لا يكفي ولا يغني، وخير لك ان تري مرة ولا تسمعي ألف مرة. يجب عليك ان تمتعي ناظريك بخمائل وينابيع وبحيرات هذا العالم السحري حتى تسكري بنشوة وجمال هذا الفردوس.

وأشار آدم بيده إلى الدرب.

- لا، لا، لنذهب بهذا الاتجاه.

قاطعه ليليث مشيرة إلى وجهة مضادة تماماً. فلاطفها قائلاً:

- معذرة يا ظريفتي، فهذه هي الطريق.

- كلا، سنذهب بالاتجاه الذي أرتأيه.

- ولكنها طريق وعرة المسلك. بينما طريقي جميلة رائعة المناظر، فاعذريني ان تجرأت وقلت لك انك تجهلين الجنة بعد.

فثارت ثائرتها وخاطبته بكل حدة :

- لا، وألف لا. اني لا أحيد عن رأيي قيد أنملة وان مانعت، فاني والله سائرة لوحدي.

ثم وضعت قدمها على الطريق التي اختارتها.

وتبعها آدم للحال. وبعد مسيرة قصيرة تجاسر قائلاً:

- والآن دعينا نجرب طريقي يا حبيبتي؟

- حسناً، لتكن مشيئتك كما هي دوما.

كانت الأزهار الملونة بالآف الألوان تغطي جانبي الطريق، بينما حومت الفراشات الشبيهة بالأحلام حوالي ليليث. وكانت أشجار الموز والأناناس تحيط بشاطيء البحيرة، حيث كانت تسبح الأسماك المتعددة الألوان ناقرة الزنابق المائية وأزهار اللوطس.

وكانت الطواويس الملونة بألوان قوس القزح تخفر مع الدجاجات الزمردية والأرجوانية تحت الظلال الفضية. وأطيار الجنة الجميلة تتطاير بين فنن الأشجار البديعة .

وعلى أشجار الخمائل الكثيفة وفي الأجواء العبقة الشبيهة بالرؤى والأحلام صدحت الطيور مفردة ومعبرة عن حبها وهيامها بالآف الأغاريد.

وقد تدلت الثمار من الأشجار الذهبية اللحاء، البديعة الألوان، الساحرة الظلال. فكانت ليليث تقطف منها ما تشتهي ويلذُّ ويطيب لها مأخوذة بمناظر الجنة البديعة وعجائبها الغريبة، مشدوهة مسحورة. وفاجأها آدم قائلاً :

- ذلك هو مثواي .

ولكنها لم تعره انتباها وواصلت سيرها مأخوذة اللب، مفتونة القلب. كانت مشيتها شبيهة بحركة الطيور، إذ بالكاد لامست أقدامها أديم الأرض .

أما آدم المسكين فكان يتبعها بخطى ثقيلة وئيدة وهو يحدق بشعرها الناري الجميل.

لقد تملكه شعور غريب ورغبة عارمة في الارتماء عند قدميها فحَث خطاه ليقترب منها ويمسك لاهثاً بساعدها الناري:

- انظري يا ساحرتي إلى الأفق البعيد، ياللروعة والجمال! ونظرت شاردة إلى المكان المشار إليه. كانت الجبال الشاهقة المكسوة بالثلوج الناصعة البياض غائصة في بحر من السكون اللازوردي، وكانت المياه تتساقط شلالات تنسكب في المغائر، بينما كانت الأيائل تخطر في خفر وخيلاء عجيبين.

وبدا البحر السندسي ممتداً أمام الرواسي العالية، وطيور النورس تتطاير في الهواء لتحط على سطح الماء ضاربة جدائجها بأمواج البحر العتيّة. مصفقة باجنحتها الفضية وهي في طريقها إلى الجزر الزمردية. وكانت الأزهار تعطر الأجواء بعبق أريجها الذكي، وأشجار النخيل تتراقص مع طيات النسيم الشذي.

- هل أعجبك هذا الجمال الأخّاذ، يا روحي؟

تمتم آدم بهذه الكلمات وهو يعتصر خصرها بشوق وأثارة.

- لابأس به، ولكن طريقي كانت ستبدو أكثر جمالاً، وروعة.

قالت ذلك وتملّصت من حضن آدم لتقف على حافة جدول ثم طفقت تمرح وتسرح فوق الرمال الذهبية المتراكمة تحت المياه الفضية.

- ما أروع هذه الحصى يا إلهي، يالجمال ألوانها وأشكالها: حمراء، زرقاء، خضراء، ذهبية... ناولني يا آدم بعضاً منها.

- دعك عنها يا حبيبتي، فانا قد رأيت حصى لامعة كالشمس، شفافة كالماء، صلبة كالفولاذ وجميلة جدا.

- ويه يا عزيزي، أين هي الآن يا روحي؟!

- انها في مكان قصي جداً، في أودية عميقة وبين شقوق الصخور الصلبة .

- ومتى ستأتي إلي بها ياآدم ؟ - قالتها بدلال ظاهر، وغنج قاهر، ثم وضعت يدها في راحته .

- ان كان ذلك يسعدك فسأذهب حالا لأعود بها غداً .

قال آدم ذلك بحماس منقطع النظير، مفكراً باغتنام الفرصة الذهبية لارضائها وكسب ودها.

- طبعاً يا حبيبي ، هيا اذهب حالاً ، أواه ما ألطفك يا عزيزي؟!

قالت ذلك وهي تداعب جبينه بيدها الرقيقة وتلاطفه بكلماتها المعسولة. فأمسك آدم هلعا بيدها ووضعها على ثغره،فهزّت طلاوة القبلة أعماق فؤاده، ثم ألقى عليها نظرة لائعة وأطلق ساقيه للريح. بينما كانت عينا ليليث تشعان أملاً وبريقاً وهي تدعو له بالعودة سالماً معافياً .

بعد استراحة قصيرة عادت ليليث إلى خبائها وهي تسلك درباً أخرى. وفجأة ظهرت أمامها الحية واتدة. حدقت كلّ منهما في الأخرى دون ان تبديا حراكاً، لقد انحسرتا معا. لقد أعجبت ليليث بقوام الحية المكور المدور، الملتوي النشّاب، فخيل لها ان الأفعى قد اخترقت جسمها. لكن الأخيرة خافت نظرات ليليث المتطايرة كالشرر، ففحت وانسلت بين نتوء الأحجار بأسرع من لمح البصر.

ابان ذلك كان آدم المسكين يجري لاهثاً ليصل إلى وادي الحصباء الجميلة. وما ان بلغ غايته حتى شرع في تجميع الحصى بكد لايهين، وعزم لا يلين. فكان يقلب الصخور الضخمة بلا عناء يذكر، ويقتلع الحصى بأسنانه بعد ان أدمى أصابعه وقدميه. ومع ذلك، لم يبال بالمصاب الجلل، بل كان يحلم بالحبور والسعادة في قلب ليليث عند رؤيتها لما جلب.

كان آدم مشدوها من المشاعر والأحاسيس التي انتابته واختلجت في صدره ابان رؤيته لليليث للمرة الأولى. لقد أصبحت الجنة أشهى وأحلى ألف مرة مما كانت عليه قبلا، وكل لحظة يعيشها لها معنى وأثارة لم يشعرهما سابقاً.

* * *

وصل آدم شاطىء البحيرة مع الشفق الأخير محملاً بسلة عظيمة من الحصى الثقيلة. كانت ليليث بانتظاره على أحر من الجمر وهي تحتضن قطة ملساء تداعبها كي لا تشعر بضيق الوقت. وتناهى إلى سمعها صوت آدم منادياً :

- ها أنذا قد عدت إليك ، يا حبيبتي .

كانت ليليث قد لحظت ظله على صفحة الماء الراكدة، لكنها تظاهرت بالمفاجأة وقالت :

- اوه ، هذا أنت يا آدم ؟!

- هل تأخرت عليك يا روحي، المعذرة يا حبيبتي فالمكان بعيد جداً.

- لا، لم تتأخر. فأنا حضرت لتوي. لم يكن بودي الحضور لشعوري بالصداع، ولكني غالبت أمري، فهل أحضرت الحصى ؟ ارني أياها.

وسارقت النظر إلى السلة ثم قالت مبهورة:

- لله ما أروع هذه الجواهر!

- هل اسمها جواهر؟ ! وانّى لك معرفة اسمها؟!

- أجل، أجل هو اسمها، دعني اقبلك ياحبيبي، يا عزيزي، يا...

ولم تعد تطيق صبراً فاطلقت العنان لقطتها وسارعت لتقبيل جبين آدم، الذي ارتمى عند قدميها مندهشا مأخوذا وهو يرقبها بإعجاب وإيهاب. كانت قد دست أناملها الرقيقة في السلة لتملأ راحتيها محدقة بالجواهر لتعيدها فرحة زاهية إلى السلة ثم تعاود الكرة مرات ومرات .

- رباه ما أعظم هذه الالماسات ذات الشعاع الناصع البراق، ما أروع هذا الياقوت الأحمر، يالصفاء هذه الزمردة الخضراء، ما هذه اللالىء والجمان، أيها أذكر وأيها لا أذكر، انها كثيرة وفيرة ..

كانت ليليث تلعب فرحة بالجواهر فتارة تزيّن بها شعرها ثم تعيد جمعها في السلة تارة أخرى. واستمر الأمر على هذا المنوال حتى انتشر القمر السعيد فنوّر كل أرجاء الفردوس المديد. كانت ليليث جالسة تحت شجرة الرمان ولما سقط عليها ضوء القمر زادها نوراً على نور. وقلب آدم يتطاير تحت صدره كالعصفور الذي يبحث عن مخرج من فيه.

- يا فريدتي ليليث ، أنت ذكية وحكيمة ، فاخبريني بالله عليك ما هذا الشعور الذي امتلك عليّ لبي مذ رأيتك لأول وهلة؟ إني أصبو للذوبان عند قدميك النيرتين، واميل لتقبيل التراب الذي تطأين. أريد ان أصنع تاجاً من قرص الشمس ازيّن به رأسك، وان أرصع بنجوم السموات دربك .

اصاخت ليليث السمع فرحة فارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة لطيفة.

- قولي لي يا أجمل من في الدنيا ما هو هذا الشعور؟ ما هو سبب هذا الاحساس الذي يجعلني أشعر بحلاوة الجنة حين أكون بالقرب منك، ويجعل النعيم جحيما والحياة مرا حنظلا حين ابتعد عنك ؟!

ان كنت نائماً أم يقظاً فخيالك الحبيب لا يغيب عن أحلامي ويقظتي. انك تعيشين في قلبي وتسكنين في عيوني.

وردت ليليث ساخرة بلهجة ملؤها البرود :

- انه الحب يا أدم .

- الحب ؟! وانّى لك معرفة ذلك ؟!

- اعرفه منذ أمد بعيد ، يا آدم .

- الحب .. ياله من اسم مقدس عظيم، أجل، انه الحب بعينيه، أما سمعت الباري يقول لنا: «احبا بعضكما». نعم، نعم، اني أحبك ياليليث، أحبك ألف مرة ومرة يا عزيزتي . وانّى لي عن حبك بديلاً يا فاتنتي، يا ساحرتي .

بلى، لقد فهمت تماما. انه الحب الذي نفخ نسمة الحياة، وأبدع ترانيم الطيور، ودوي الرياح، وقرقرة الينابيع .. أجل، الحب هو الذي يجعلني اشتم روائح البخور والقرنفل من الدروب التي وطأتها اقدامك .

أتدرين يا ليليث ان الأعصار الذي يضرب صخور الشاطىء بأمواج كالجبال هولا، لأشد خورا من حبي لك وأقل شأنا، ولكني أبغي الركوع عند اقدامك والتلاشي في سكونك اللامتناهي .

اود اغراقك في بحر من قبلاتي أزهق فيه أيضاً روحي. اواه كم أحبك حاجبيك المعقودين ظرافة وحسنا ياروحي. فحاجبك وايم الله قوس قزح انعقد فوق مقلتيك كما ينعقد قوس القزح في قبة السماء.

وفي سماء عينيك أرى مجرة عظيمة تحترق فيها آلاف وآلاف الشموس التي تضرم وتصهر روحي. دعيني انظر قرارة عينيك لأنسى نفسي واسلو الجنة بما فيها وأنا أحدق في مقلتيك.

وقبّل عيني ليليث ولثم حاجبيها ورموشها.

غير ان ليليث كانت شاردة تماما ازاء عواطف آدم الجياشة فبادرته سائلة :

- ما هناك يا آدم وراء تخوم الجنة ؟

- انها الأرض الخلاء الجرداء ، ولتذهب الأرض إلى الجحيم. اني أحب جيدك ياليليث فهو أبيض ناصع وطويل باسق كأشجار البتولا التي ترتفع أمام أبواب الجنة بايهاب وعظمة ؟

ومدّت ليليث عنقها بعد ان شعت عيناها بابتسامة الرضى فقبلها آدم بشوق وحرارة .

- ومن يعيش على الأرض، يا آدم ؟

- انه الشيطان الرجيم وقراره الجحيم. ولكني أعشق ثغرك ياليليث فهو أعظم ما في الفردوس من اعاجيب ..

- من هو الشيطان ، يا آدم ؟

- انه عدو الله ... كان ملاكا ناريا حكيما وسيما، لكنه ثار على الرب وابتغى ان يكون كفوءا له فطرده الرب من السموات إلى الأرض، لاعناً اياه إلى الأبد .. أجل لعنة الله عليه إلى أبد الآبدين . ولكن دعينا وشأننا، فأنا أحب ثغرك لأنه سلسبيل الأطايب التي لاتحد والعجائب التي لاتعد، فراحه أشهى ومن العسل الذ وأحلى .

أما لسانك فهو تجسيد حي لعندلة العندليب وأغاريد كل الأطيار، ان قبلة واحدة من شفتيك لأشد حلاوة من مذاق الجنة بما فيها من طلاوة، قبلة واحدة لاغير أتذوق بها الوجود والأبد... وقرّب آدم شفاهه الملتهبة ليرسم قبلة على شفاهها الباردة.. لكن ليليث اوصدت فيه بيدها لتهب واقفة وهي تدفعه إلى الخلف:

- لقد غلبني النعاس، فانتظرني عند البحيرة غداً.

وتهادت بكبرياء ثم غاصت في جنح الظلام.

وتابعها آدم بنظرات حسيرة كسيرة.

استيقظ آدم في الصباح فلم ير ليليث وظن انه يرى حلما، لكنه لم يجدها. بحث عنها في شتى دروب الجنة دون ان يراها. وهكذا، قبع آدم مترقبا ظهورها.

كان قلبه يضطرب اضطراباً عظيماً لسماع الظباء وهي تخفر في مشيتها، وفؤاده يتراقص هلعاً مع طيات النسيم التي تداعب الأعشاب، وانتظر بفارغ صبر حتى غربت الشمس، ومع ذلك لم تحضر ليليث. وتمدد آدم فوق العشب وأطبق عينيه علّه يراها في منامه.

ومن بعيد تناهت إلى مسامعه خشخشة قصب الشاطيء التي تناسقت ودقات قلبه الشجي، فانتفض واقفاً وقطع قصبة ثقبها ثقبين ثم شرع في العزف عليها. كان ذلك نغماً حزيناً شجياً يعبر عن حب آدم المتوقد ، فكان اللحن أشبه بالقطرات المتساقطة من أعماق صدره لتتدفق عبرات وزفرات، ولتتجسد شوقاً وحنيناً .

وفجأة شرع في الغناء:

«ليليث.. ليليث.. أنت قدري،

ما الخلود بدونك،

انك لذة الجنة وحدك،

أنت مسرة فردوسي ونعيمي،

ليليث أملي مهجتي وبهجتي.

أنت اللغز المجهول،

وعين الشمس الملتهبة،

ولذات الحياة الممتعة،

أنت المرأة المنتصرة،

ليليث السرمدية».

* * *

قـضى آدم ليله سـاهراً حـائراً حـالماً بالحب الأليم الذي يعـتـصـر فـؤاده .وفي اليـوم التـالي لم تأت ليليث أيضـاً. وأمضى يومـه مفتشاً عنها. كان يتحرق شوقاً لدرجة عجز فيها قرور الجنة عن اطفاء لهيبه المستعر.

وفكر آدم بانه سينزل على ليليث باللائمة حين يراها، لا بل وسيتوعدها باسم الواحد الأحد. أجل، هكذا كانت روح آدم تتعذب وتشقى في نعيم الفردوس .

* * *

ومع الغروب ظهرت ليليث فجأة من بين الأدغال كاملة الأنوثة رائعة الأناقة وقد زينت جسمها بأبهى الحلى وتبهرجت بأجمل الزينة.

قفز آدم نحوها كمن أصابه مس جنون ناسيا كل احن وضغن.

ولكنه رآها وهي تتبع حية مدورة فاحمة دون ان تحيد ببصرها عنها وهي في كامل اللذة والنشوة. وتبعها صارخاً بأعلى صوته :

– ليليث، قفي ياليليث.. انّى أنت ذاهبة؟!

فأجابته منتهرة : وما شأنك انت؟!

– مـاذا تقـولين؟ الم يشـأ الله ان الحـقك وان تذعنين لمشيئتي؟

– ان أخضع لمشيئتك؟ ومن أنت حتى امتثل لارادتك؟! اغرب عني يا ثقيل الدم، يا قطعة من صلصال. قالت ذلك بازدراء شديد ثم تطايرت كالشرر مختفية.

* * *

وطفح كيل الصبر فذهب آدم إلى الله ربه فوراً ليشكيه أمر ليليث وليخاطبه كاتماً فورة غضبه :

– مـا هذا الرفـيق الذي وهبـتني اياه ، يا الهي ؟! لقـد عـصى كل أوامـرك ولـم يطعني قـط. انهـا تـغريني ثم تـتركني اتحرق شوقاً وولعاً ، فأتلوع لقربها مني وأتحسر لبعدها عني. انها شـريـرة، وسـعـيـر مـحـرقـة.. وأنا أشـقى وأتـعـذب، وأذوب واتلاشى، ياربي..

صـرف الرب آدم بعـد ان هدأ من روعـه قليـلاً. ونادى الرحمن ليليث لكنها لم تمتثل لندائه. فأرسل الجبار ملاكيه «سينوى وسان سينوى» لاحضار المارقة العاصية ليليث .

ولما احضـرها الملاكان وقـفت أمام الغفار خاشعة خائفة. وبعد ان بالغ العظيم في تقريعها قال لها:

– لقد خلقت آدم من التراب وصنعتك من النار كي يكمل احدكما الآخر. انه قرينك وما خلقتك الاّ له. ليكن في معلومك اني سأعاقبك عقاباً شديداً لو عصيت اوامري.. هيـا اذهبي إلى بعلك... تلك هي ارادتي ومشيئتي .

ترسلّت ليليث تحت صفصافة قـرب الجدول وقد اكمّد مـحياهاً حزناً، فاسندت جبينها على يديها فبدا اكليل الزهر على شعرها ذابلاً ذاوياً...

وجاء آدم الذي تحرق صبراً لأوبتها فجلس بالقرب منها وأمسك يدها الباردة متوجساً هلعاً فاشتد ولعاً وشوقاً وقال مخاطباً اياها.

– ليليث يا روح روحي، لما أنت حزينة ؟ لما لا تضـحكين يا جـمـيلتي ؟! اواه ياليليث، يا ضـيـاء الشـمـس لماذا أنت ساكتة؟ ربما لا تدرين اني أعيش بحبك فقط ؟ انك والله ان عـصـرت قلبي فلن تجدي فيـه سـوى حـبك، اني أحبك وسع الكون.

وقـبلّ آدم ذؤابة شـعرها الناري ثم وضـعها على عـينيـه تبـجيـلاً وتـقديراً ، لكن ليليث ظلت شاردة صامتة وعيناها ترنوان إلى الأبعاد القصية .

- لنذهب إلى مسكني، ياظريفتي . لقد اعددت لك مائدة من اللذّ الثمر، وجمعت لك أزهاراً عبقة عطرة، واحضرت لك لبناً وعسلاً، وفرشت لك من الورد مرقداً تستريحين فيه وتنامين قريرة العين حالمة هانئة. وسأظل ساهراً طوال الليل عند اقدامك حتى بزوغ الفجر.

وقبيل الفجر سأعزف لك الناي وأنادي العنادل والكناري وكراوين الفردوس ليغرّدوا لافراحك واسعادك .

وظلت ليليث ساكتة لاتعيره التفاتة.

فامسك آدم خصرها الرقيق وحملها على ساعديه إلى مأواه. كانت ليليث تعبة من فرط حزنها وكآبتها من التقريع القاسي الذي انزله الرب بها، فغاصت في عالم الأحلام فوق سرير مفروش بالورود والأزاهير.

أمال آدم رأسه فوق ركبتيه المشدودتين ونشأ يرقب مشدوها عري ليليث البلوري ممزوجا بأوراق الورد الأرجواني .

استسلمت ليليث للنوم مذعنة مهتزة كالظباء التي ترتعد فرائصها من اهتزاز الأزهار. كانت ليليث شاحبة كالجمان. بينما ربت آدم على جسدها وهو يتمتم مناجيا ولهاً:

- أحب جسدك حباً لاحد له فهو جميل الصنع. انه أعظم نوراً من البرق في الليلة الليلاء. لقد جسّد الله فيه كل صفات ومزايا الأجساد. فهو لعمري حديقة غنّاء فريدة، ونار لاظية تذيب كل الرعشات.

يالعبير جسدك الفواح الأشد شذى من مسك ظباء الجنة، انه أطيب أريجا من الياسمين والنرجس والخزام الذين ينشرون عبقهم في أنحاء الفردوس.

يالروعة الصدر العطر الذي هو أكثر ذكاءً وطيباً من روائح البيلسان والخمان المنتشرة من أشجار الجنة لتعطر خطوات الرحمن.

ولثم آدم جسد ليليث بشفاه لاهبة وتنشّق رائحة نداها الطيب الأروع من أول طلّ ابدعه الباري فوق أوراق الشجر.

كان آدم يتحسس باصابعه المرتعدة صدر ليليث وهو يتحدث في سره:

- «أعشق صدرك المرمري ياليليث الاكثر جمالاً من الملائكة. فثدياك باقتا نور، باقتان براقتان من الحبق والمنثور، باقتان ساحرتان جاذبتان تزهقان روحي وتفصلانها عن جسدي.

وقبّل آدم نهديها واشبع لثما حلمتيها بشفاه ملتهبة مرتجفة. كل ذلك وليليث غامضة العين شاردة الذهن.

- ليليث يا آلهتي، اسمحي لي بتقبيل شفتيك. ان قبلة واحدة منها تجعلني أتذوق كل أطاييب النعيم، لا بل بها وحدها سأعرف مذاق الكون والوجود، طعم الأبدية والخلود...

ونسي آدم ذاته ولم يعد يرى في الدنيا سوى شفاه ليليث التي أشبعها لثماً وتقبيلاً بنهم وشوق عظيمين. وامتص آدم رحيق شفاهها وشعر بحلاوتها وطلاوتها دون ان يرتوي وتلاشت روحه في بحر عظيم من القبل.

وفجأة هبت ليليث واقفة لتخلص نفسها من قبلات آدم الكاوية الحارقة، ورمت بنفسها خارجا لتغيب في جنح الظلام.

* * *

وسقط آدم مغشياً عليه حتى الصباح.

ولما استفاق من غفوته تذكّر ان ليليث قد هربت تحت هزيع الليل فهب واقفاً مذعوراً. وشرع في البحث عنها مجدداً لاستجداء عطفها ورحمتها بالاتهجره وتطلقه.

ونادى ليليث فلم يسمع سوى صدى صوته.

فتّش آدم عنها في كل مكان، على شاطىء البحيرة وحول الينابيع في الاحراج والأدغال، في المغاور والكهوف فلم يجد أثراً لها.

بحث عن ليليث في الأماكن التي ارتاداها معاً، فكان يقبل التراب الذي مشت عليه ليليث بقدميها.

ومكث طويلاً في الأماكن التي آوت اليها ليليث، فكان يغمض عينيه ويفتحهما فجأة متأملاً رؤية ليليث منتصبة أمام ناظريه.

كانت ليليث باعتقاده أجمل المخلوقات طراً. وهاهي تتحول الآن مجرد أمل صعب المنال وأمنية عصية المآل.

وأصبح آدم يخشى كل مايقع عليه ناظراه، فزرع الجنة غدواً ورواحاً كمن أصابه مس من الجنون ... وواصل آدم ركضه السريع حتى وصل إلى تخوم الجنة، حيث الأرض الخربة الخالية.

كان آدم منهكاً جداً فأخلد للاستراحة ووضع راحتيه على وجهه واجهش بالبكاء، نادبا سوء حظه، نائحاً تعس حاله، سارحا في ذكريات ليليث المشرقة التي لم يقدر على نسيانها لوهلة واحدة.

وبغتة تناهى إلى مسامعه صوت ليليث وضحكتها الرنانة فظنها اضغاث أحلام. لكن ضحكتها اشتدت لتستبد بقلبه وتختلعه كالاعصار القوي. ومال بعينيه تجاه الصوت وكله رجاء وأمل في ان يرى... ويالهول ما رأى: لقد شاهد منظراً مرعباً عصف بروحه فاحرقها وجعلها هباءً منثوراً. لقد رأى الشيطان الرجيم بعينيه السوداويتين الشريرتين واقفاً ناحية الأرض القاتمة الشائكة بالقرب من سياج الجنة وقد أمسكت ليليث بعنقه مزينة شعرها بالخشخاش. كانت ليليث تقبل شفاه الشيطان بشهوة جامحة ولذة عارمة وكلاهما سعيدان مسروران.

واستبدت الغيرة بآدم الذي صاح مزمجراً:

- تبا لك وسحقاً ياليليث.

ولم يسمع آدم سوى قهقهة الشيطان الظافر القاهر التي تفجرت في رأس آدم كهزيم الرعد.

ورأى إبليس الشرير يحتضن ليليث ويغيب بها في مجاهل الأرض . واسودت الدنيا في عيني آدم فلم يعد ير شيئاً...

وطفق آدم كالمجنون يزرع أرجاء الجنة جيئةً وذهاباً. وشعر ان الجنة أصبحت قفراً يبابا، وأغاريد الطيور بكاء ونواحا.

- «ليليث .. ليليث، واأسفاه، وابليتاه» - كان ينوح باكيا وعبراته تتساقط أمطاراً تنسل في خلايا أوراق الشجر فتحرقها وتميتها.

وفي الليالي باتت أحلامه كوابيسا مرعبة يرى فيها الخائنة ليليث في أحضان الشيطان المخيفة.

وأصبحت روح آدم بائسة يائسة تصبو إلى الموت والمنية ناسية كل مايمت بالخلود والأبدية.

وعلم السميع البصير بمعاناة وآهات آدم. فأوقع الرب الآله سباتا على آدم فنام. فأخذ واحدة من أضلاعه وبنى منها امرأة واحضرها لآدم رفيقاً جديداً اسمه حواء التي يجب عليها ان تذعن لارادته وتحبه وحده، تؤاسيه وتسليه، وقد اسماها الرب امرأة لانها من امرىء اخذت.

ولما استفاق آدم من سباته رأى بجانبه رفيقة جديدة لم تكن على قدر من الجمال الذي كانت عليه ليليث المأخوذة من النار، ولكنها حسنة وروحها بشرية.

اقتربت حواء من آدم فألقت برأسها على كتفه وابتسمت ابتسامة رقيقة، وحدقت في عينيه الحزينتين الكئيبتين بناظرتيها الحالمتين العاشقتين.

كان آدم جالسا قرب حواء فخيل له ان أنفاس ليليث

تتصاعد من حفيف الورود، ومن أريج الفردوس فكان يستنشق منه عبق وطيب ليليث، وحتى عندلة العنادل كانت تذكره بصوت ليليث.

وعندما كانت حواء الوفية تغازل آدم وتغطي محياه بشعرها الأسود الفاحم كان آدم يحلم بشعر ليليث الناري الذي كان يغطي الآفاق. وعندما كانت العواصف تهدر والزوابع تمور كان يخيل له انه حب ليليث الذي قصف روح آدم.

وكان حين يغلق مقلتيه يتخيل صورة ليليث الجميلة في أعماق قلبه، وحين يرقب النجوم كان يرى فيها عيني ليليث، وفي قرص الشمس كان يجسد ليليث بقوامها الكامل...

كانت شفاهه تلفظ اسم «حواء» وروحه تلهج باسم «ليليث».

وكان يبذل كل مساعيه لنسيان ليليث فيضم حواء المخلصة إلى صدره ويقبلها، لكنه كان يظن انه يشد ليليث إلى صدره ويشبعها لثماً وتقبيلاً فلم يحس ويشعر إلا بليليث...

وهكذا عاش آدم مترقبا عودة ليليث وانتقل آدم الى الحياة الآخرة حالماً ومتألماً لأجل ليليث .

البندقية في العام ١٩٢١

الريح العاشقة

ذات يوم هبت ريح خفيفة من أعالي النوبة وانحدرت مارة بجباه أهرام الفراعنة. وهبطت شواطىء النيل ذي الأمواج الذهبية، ثم استرخت لاهثة متعبة تحت أقدام نخلة هيفاء فتية.

قالت:

ياملكتي الفريدة البديعة ، أنا أحبك ، هاأنذآ روح العالم الثائرة المتمردة اخبو تحت أقدامك .. عندما كنت أمر من الآفاق إلى الآفاق، رأيت طلعتك البهية في مياه النيل المقدس الفضية، رأيت وأحببت.. فافتحي لي قلبك الحبيب.

وأبدت النخلة احتقارها بان صمتت.

- هل انك عديمة الرحمة، انت أيتها الجميلة الرقيقة؟ اتتركينني أموت راكعة على عتبتك؟

ثارت الريح واحتضنت جذع النخلة المشوق وحاولت تقبيلها، لكن النخلة دفعتها غاضبة وقالت:

- لماذا تزعجينني ياأيتها الريح العاتية؟ ثم من أنت كي أحبك؟ فحبي ليس لامثالك، هيا اغربي عني ياشريدة ياطريدة.. فكيف لي وأنا حلم الجنائن الملوكية، ان أهب حبي لشريدة غوية..؟

- لكني أحبك بكل ما في البحار من عمق وعزم.- تألمت الريح.

- ولكن من أنت، ألست من تتأوهين في الخرائب ليلاً ونهاراً. وتتسكعين في الدروب الخوالي؟ كل الأبواب موصدة دونك. أنت التي تطفئين من حسدك سرج البيوت، لانك شريرة ضريرة، وفقيرة حقيرة، اذهبي، ابتعدي عني..

- أصحيح انك لا تعرفينني يا مليكتي؟.. أنا روح العالم التي لا تغلب، أنا التي اذا ما صفرت فوق صخور الهملايا الشاهقة أطير بقفزة واحدة إلى جبل ديميفاند البارتي فاحفر جبهته الفولاذية، ثم إلى جبهة ارارات الألماسية حتى أصل إلى مرتفعات الأطلس.

أنا التي اصلصل في وديان كشمير الزمردية، وانهب الأرض لأصل إلى غابات الأمازون البكر وأعبث بشجرها كما تعبث العذراء بشعرها الذهبي.

أنا التي أمخر عباب الأطلسي المجهولة وأصل إلى النجوم النارية، أنا التي أعمر من الرمل جبالاً عالية لادمرها بعد هنيهة، أنا التي دفنت ممفيس أم المدن تحت أمواج الرمال الصفراوية ..

- أنا أخافك وأرهبك، فأنت قاسيةً وضاريةً. أنا لا أحب سوى النيل، وهو أعنف منك لكنه رؤوف. ففي الليالي يترنم لي بالأناشيد، وينسج نومي بخيوط من الأحلام العذاب التي يجلبها من قمم الجبال المرمرية في العوالم القمرية.

- لكن لا تخافي يا جميلتي، لأني عندما أحب، أكون روح العالم الخيرة النيرة، أمعقول انك لم تعرفيني بعد؟ أنا التي انشر أطايب الجنة على العالم بجناحي الرؤوفين. أنا التي أهز أوتار الكنار الرقيقة وأنقل أنغامها إلى أرواح الهائمين الولهانين، أنا التي أخلخل سكون الغابات الخضراء العيق وأثير كركرة اللالىء في الينابيع.. أنا التي أصفق أجنحة النسور المحلقة، وادغدغ الباد الأسود النوميدية، أنا التي ألامس شعور العذارى من بزوغ الفجر إلى الفجر، وأجلب لهن أحلام النجوم. أنا يا مليكتي من يتهامس أبداً مع تمثال ميمنون الملكي.. ها أنذا أركع تحت أقدامك طالباً حبك.

فارحميني واسدلي شعرك الجميل عليّ فأنا تعبة معذبة، ودعيني اقبلك كي أنسى كلالي وفتوري عبر القرونْ وانغمس في سعادة أبدية..

- أنا لا أحبك، -غضبت النخلة- لقد قلت لك اني أحب النيل، انه جبار وظريف، عميق قلبه وبالرحمة مليء، فانظري كيف يلامس وجهي، ويحفظني في فؤاده، دائماً، انظري كم هو جميل وسيم، ترقبه عيون الماء الالماسية حتى الشروق، والشمس تنظر في مراته بكبر الملوك.

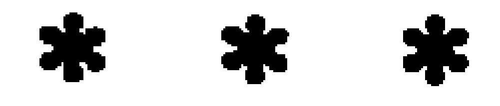
أنا أحبه وحده لا غيره، فأمواجه الذهبية تلثمني وتنعش روحي الملتاعة ومن الصباح حتى الصباح يغنيني اغان سحرية جذابة، ويقص عليّ حكايات فواحة.

إليك عني، ابتعدي أيتها الريح الشريرة المتباهية.

هذا ما قالته النخلة واسدلت شعرها فوق النيل الذي تتطايرت أمواجه إلى أعلى لارواء شفاه النخلة العطشى.

- ان كنت تكرهيني وتحتقريني فاعلمي من أكون -أنا سيدتك يا أيتها النخلة البلهاء الحمقاء، أنا سيدتك..

وعصفت الريح، وثارت وعكرت مياه النيل وقذفتها بعيداً عن الشاطيء، وتماوجت الأشجار والأغراس وهوت على الأرض، واختلطت أعمدة التراب مع الغيوم، فارتجفت النخلة وارتعشت، أما الريح العاشقة فقد احتضنتها بقسوة وعنف واقتلعتها من جذورها، وخطفتها على صدرها العاشق المعذب وأخذتها بعيداً إلى الصحاري المحرقة، والبحار اللازوردية، وقمم الجبال المغطاة بالثلوج .



معنى السعادة

وصل الدرويش الشيخ، اللافح الجبين، الصحراء المصرية ليستفسرأبا الهول العظيم عن كنه أسرار السعادة.

كان أبو الهول قابعاً منذ الأزل في وسط الصحراء الصفراء جامداً صامتاً. وكانت عيناه الجامدتان ترقبان منذ قديم الأزمان الأبعاد القصية الخفية.

وقف الدرويش مسمّراً أمام أبي الهول، غارساً قصبته الفارعة في الرمال المحرقة محدقاً في عيني أبي الهول، ثم خاطبه قائلاً:

- لقد جئت إليك من أطراف الدنيا. سألت في كل الأرجاء عن معنى السعادة فلم أجد جوابا.

لقد حضرت لتوي من قمم طور سيناء المشرقة، حيث تلقى كليم الله موس الوصايا السمحة، فسألتها عن ماهية السعادة فلم تجبني.

فسرت إلى أعالي النيل العظيم معرضاً ساقيّ لوخز الأشواك وجبهتي الشيباء لأشعة الشمس المحرقة حتى أشرفت على عتباتك. أرجوك أن تحرّك شفاهك المغلقة أبداً وتحدث العالم بما رأته عيناك الحكيمتان .

أخبرنا بالله عليك ، ما هي السعادة البشرية؟ !

ها هو الإنسان يصبو إليها من مهده إلى لحده دون ان يعثرعليها أو يدرك كنهها. أفض إليّ بسرالسعادة، وأنا

أعاهدك على ابلاغ بشارتك عن معنى السعادة في كل مكان. في الأكواخ الحقيرة والقصور البديعة، في الشمال والجنوب، في الشرق والغرب.

وأشتد السكون ثقلاً في الصحراء الكبرى بعد السؤال الذي كرره الدرويش الشيخ مرات ومرات، وأبو الهول يحدق كالسابق بعيداً في الآفاق القصية. مرت الأيام والليالي والدرويش واقف لا تأخذه سنة ولا نوم. كان الدرويش متحجراً في مكانه ينتظربفارغ الصبر جواباً يشفي غليله.

وكرت الأيام والليالي فاعاد الدرويش سؤاله، وخيم السكون الشامل الكامل. كان صوت الدرويش المسترحم يندفع من أعماق الروح الإنسانية المعذبة .

ولما سكت الدرويش حدق أبو الهول في عينيه وشرع في تحريك شفاهه المطبقة الصامتة أبداً بلا حراك وتكلم بلسان الصحراء فقال:

– « أيها الإنسان، يا ابن الدم المتعطش للشهوات، ان روحك البلهاء تصبو دائماً إلى الملذات. انك عاجز عن إدراك معنى السعادة، فوجودك المادي قاصر عن بلوغها، وأهدافك لا تستحق صبوتك اليها.

ولكني أقول لك للمرة الأخيرة: أغرب عني ولا تعكر صفو هدوئي وراحتي بعد الآن. بلّغ الدنيا قاطبة، بشّر شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً ان معنى السعادة لا يجب ان نحسه أو نتأمله أو نصبو إليه، بل يجب ان نتحجر ونتحجر ونتحجر... ».

وتحجرت شفاه أبي الهول ثانية وحدق بناظريه إلى الآفاق البعيدة وغاص في بحر من السكون العميق .

وعم الصحراء مجدداً سكون عميق ثقيل ...

تفليس ١٩١٠

الخليفة المنتصر

كان الخليفة الشاب متربعاً على عرشه المرصع بالجواهر واللآلىء في بغداد مدينة العجائب. تبارك اسم الخليفة المنسي ثلاثاً.

فهولم يستل سيف هارون الرشيد الذي أثار الرعب بين الشعوب بدئاً من جبال طوروس حتى مشارف أرض الكنانة.

لقد حرّر الحكم من القيود والأغلال وأعلن على الملأ قائلاً:

- «فليعش كل إنسان كما يحلو له وليترك الآخرين يعيشون كما يريدون».

وأمر بما لديه من مال وذهب بجمع أحسن المغنين والعازفين في دولته وقال لهم:

- «اعزفوا وأنشدوا وانسجوا الحكايا».

كان الخليفة غارقاً في أجواء الغناء ليلاً و نهاراً. وكانت روحه ترفرف على أجنحة الأحلام عبر الحكايات الجميلة الساحرة.

وعاش الناس سعداء وعملوا بحرية تامة وباركوا وكبروا ملكهم المعظم. وكرّت الأعوام ندية عطرةً كالفجر المشرق على بغداد.

وذات يوم دخل أحد السعاة لاهثا على الملك فقبل الأرض

بين يديه وقال:

- «مولاي العظيم، لقد هاجمنا العدو من الجنوب واحتل ولاية من دولتك» فساد سكون كامل قطعه الخليفة قائلا:

- تبا لهم فهم أعجز من ان يحتلوا شبراً واحد من مملكتي. هيا واصلوا الغناء.

بعد أيام قليلة جاءه رسول جديد وقال:

- أيها الملك السعيد، لقد داهمنا الأعداء واحتلوا اقليما كاملاً في الشمال.

- صه أيها الكذاب فلن يتجرأ أحد على تدنيس حدود مملكتي. فإلى المزيد من الغناء والطرب...

وأنشد العازفون ألحانا سحرية وحكى القصاصون حكايات عجائبية، فكانت روح الخليفة تتطاير في أجواء الأحلام الوردية.

وبعد أيام معدودات جاءه نذير جديد يقول له:

- سيدي الملك، لقد هاجمنا أحد الأمراء من الشرق بجيش جرار واحتل عدة اقاليم من مملكتك وها هو الآن يعلن الحرب عليك ويهاجم بغداد فاتحاً منتصراً.

وخيم الطير على رؤوس الحاضرين.. ووقف الوزراء ترقبا لأوامر الحرب، بينما كانت الرعية خارج القصر والأسوار تطالب بالحرب. لكن الخليفة تكلم بهدوء ظاهر وقال:

- لا تقطعوا الغناء لأنكم بذلك تدمرون مملكتي... اعزفوا وأنشدوا أغانيكم الماسية . فالأنصات إلى أغنية عذبة يوسع حدود مملكتي ويوصلها بالآفاق البعيدة. ليس بمقدوو كائن من كان ان يخرق حدود دولتي الحصينة المنيعة، فاعزفوا إلى الأبد

وفي اليوم التالي عزلت بغداد الثائرة الخليفة وتوجت أخاه الذي أغرق البلاد في بحر من الدم والانتصارات.

ومهما يكن ، ليتبارك اسم الخليفة المنسي إلى الأبد.

العام ١٩١٩

مالك الحزين

بنى طائران من اللقالق، ذكراً وأنثى، عشاً كبيراً ومتيناً على شجرة السرو المرتفعة بحديقة منزلنا، في الموضع الذي تتفرع الشجرة إلى ثلاثة أغصان كبيرة كي يستقرا مع فراخهما مسترخين.

عندما تنبت أزهار الثلوج في مطلع الربيع يأتي الطائران، ذكراً وأنثى، مصفقين بأجنحتهما الضخمة فوق القرية وهما يصوتان فرحا لاق-لاق، فيحطان فوق عشهما القديم.

بعد استراحة قصيرة يبدآن العمل، فيطيرا ليجمعا القش ودقائق العيدان والريش كي يرمما العش.

ويمر وقت، وترى في أحد الأيام أربعة أو خمسة فراخ صغيرة تهز رؤوسها من وسط العش وهي تصيح بصوت طفولي لاق-لاق .

كانت عيننا، ونحن الأطفال، لا تحيد عن اللقالق فنرقب كل حركة لها، ونرى كيف يتناوب الأبوان في الذهاب إلى الحقول تفتيشا عن المأكل لاطعام الفراخ، وكنا نرى أحيانا كيف يطيران وقد حملا الفراخ على أجنحتهما ليعلمانها الطيران، تماما كما يعلمنا الكبار السباحة في الأماكن العميقة من النهر.

في احدى السنوات وقعت فاجعة فادحة، كان اللقلق-

الأب واقفاً على طرف وكنه يحرس فراخه.الحديثة المولد، بينما ذهبت الأم إلى المستنقع لجلب المأكل.

وحدث ان جاء صيادون من المدينة، فأطلق عديمو الرحمة نيران بنادقهم على الأم المسكينة .

أضحى النهار وانتصف لكن الأم لم تعد. وانتظر اللقلق الأب طويلاً بدون جدوى، فطار عند الغروب ناحية المستنقع ليبحث عن زوجته.

ويالهول ما رأى، ارتمى مهيض الجناح إلى أعلى وأسفل، ضاربا رأسه بجناحيه حينا وبالأرض أحيانا... وعندما خيم الظلام رجع إلى عشه وقد جر جناحيه، ثم جمع فراخه تحتهما وصمت.

صمت ولم نسمع صوته بعد ئذ.

كان يطير عند الفجر إلى الحقول وشواطىء الأنهر القريبة دون ان يغيب بنظره عن العش، فيجمع الطعام ويعود ليقدمه لفراخه.

عندما كملت أجنحة الفراخ كان الأب يأخذها واحدا تلو الآخر فيعلمها الطيران حتى باتت قادرة على الطيران عبر الحقول ومن ثم تقفل راجعة فرحة مصفقة بأجنحتها لافراح الأب الحزين.

وجاء الخريف فرحل الجميع معا.

في الربيع التالي رجع اللقلق وحيدا.

وبعد ان شاهد عشه طار وحط على المستنقع في المكان الذي صرعت فيه انثاه، فوقف طويلا ثم عاد الى وكنه.

كان يذهب إلى هناك كل يوم. فيقف على ساق واحدة ساعات طويلة كئيبة، حانياً عنقه، داسا رأسه بين جناحيه.

كنا نرى مراراً كيف تقرب لقلق غريب من عش الأب يحادثه لاق-لاق ثم يبتعد عنه مكرها. وكانت اللقالق أحيانا تحاول الجلوس على عشه فتداعبه بمنقارها تحببا له، أو تدس

مناقيرها بين ريشه، إلا انه كان يمانع بقوة فيطردها من عشه.

في أحدى المرات حومت لقلق - انثى ثلاثة أيام بكاملها حول طائرنا، وبقدر ما كان لقلقنا يطردها، كانت تأتيه وتفرش جناحيها فوق طيرنا أو تدس رأسها بين جناحي طائرنا الذي ابى ذلك، فهو ممزق القلب ولا يحس بالرغبة في حب جديد.

كنا غالبا نسمع لقلقته الحزينة وهو يتجول وحيداً كئيباً، عاش وحيداً مترملاً.

كان يأتي عند كل ربيع ويغادر عند الخريف، وفي أحد أيام الخريف ذهب، طيرنا، وانطلق الربيع، لكنه لم يظهر، انتظرنا وانتظرنا - لكنه لم يأت .

بقى العش طويلاً حتى تهدم.

استانبول ١٩١٢

* * *

غيرة ادبية

كنت شابا في مقتبل العمر يوم نفيت مع شاب آخر إلى مدينة اوديسا. سلمني أخي قبيل سفري رسالة لصديقه الحميم القاطن هناك منذ نيف وعشرين عاماً ثم قال:

- مارتين إنسان طيب القلب سيحبك مثل أخيه، ولن تكون وحيداً في غربتك.

بمجرد وصولي إلى منفاي سارعت الخطى نحو الكنيسة الأرمنية لاستفسر عنوان مارتين، ثم ذهبت إليه فوراً، قرأت على قارمة الدكان اسمه وكنيته ودخلت. رأيت رجلاً ضخماً كالفيل، أكل الشيب رأسه رغم انه يبدو في الخمسين من عمره. كانت جبهته ضيقة، وحواجبه كثيفة، وعيناه واسعتين حدقتا بي طويلاً. توجهت إليه وناولته الرسالة قائلا:

- مرحبا، هل أنت السيد مارتين؟

فتح المظروف وحاول عبثاً قراءة الرسالة فردها الي لأقرأها له. وتلوت عليه مضمونها فما كدت انتهي حتى صاح بأعلى صوته:

- ألف أهلاً وسهلاً.. انك أخ اوفى صديق لي من أصدقاء الصبا.. اجلس، اجلس يا روحي.

حدق مارتين بي طويلاً ثم استطرد كلامه:

- يالله ما أشبهك بأخيك، انك صورة طبق الأصل عنه

حين كان في سنك ! يا لها من أيام مشهودة عظيمة!

وأمسكني بيديه السميكتين المشعرتين ثم جذبني إليه وقبل وجنتيي، مستفسراً عن سبب قدومي وموعد ذهابي، رغم ان أخي شرح له كل ذلك في رسالته. ولما أوضحت ما غلق عليه من تساؤلات قال بصوت حاقد:

- لعنة الله عليهم .. ماذا يريد هؤلاء الكفار من الأرمن؟!

وبكلمات أشد قدحا قيّم الحكومة القيصرية ثم امال رأسه نحو باب شبه موصد، صائحاً بصوت كالرعد:

- يا امرأة، يا زوجتي الحبيبة! تعالي وانظري، عندنا ضيف من بلدنا الحبيب!.

وسألني عما إذا كنت أدخن فأجبته بالإيجاب. وعندها مد يده إلى الجارور فأخرج علبة سجائر ممتازة ليقدمها لي قائلا:

- دخن عليها تنجلي، لا تهتم ولا تغتم، فأنا أخوك والبيت بيتك .

تأثرت جداً من هذا الاستقبال الحار، ولحظتئذ جاءت زوجته محيية هاشة باشة، فشعرت بالسرور يطغي على نفسي. وبقيت عندهم على الغذاء.

كان لأخي مارتين -هكذا صرت ادعوه فيما بعد- منزل من غرفتين بجوار الحانوت تماما. هو يديرشؤون الدكان، وزوجته تهتم بأمور البيت. وقد ضن القدر عليهما بالأولاد، كنا كلما جلسنا إلى المائدة يمطرانني بوابل من الأسئلة عن مدينتهما وعن هذا الصديق أو ذاك القريب.

حكى الأخ مارتين أثناء الغداء سيرة حياته بكل صدق وصراحة. كان قد هاجر وزوجته الوطن بحثا عن لقمة العيش، فتنقل كثيراً في بلاد الروسيا المترامية الأطراف، مواجها

صروف الدهر وشظف العيش حتى استقر به المقام في اوديسا، واختتم حكايته بالكلمات التالية:

- أما الآن فالحمد لله. أعمالي جيدة ولا أخفيك إني وفرت قرشي الأبيض ليومي الأسود، المهم ياعزيزي إني أود بيع الدكان بثمن باهظ، كي أعود أدراجي إلى الوطن الغالي الذي اشتقت إليه كثيراً. سأعود إلى أصدقائي الأوفياء لنأكل ونشرب معاً فأمضي بقية العمر معهم وبعدها انتقل إلى دار البقاء. فما رأيك ياأخي العزيز؟

ولما أدرك الأخ مارتين ان لي صديقا أرمنيا في المنفى يشاركني الضراء والسراء، عاتبني عتاباً شديداً، وقال مؤنبا:

- لم لا تحضره معك؟ أرجو ان يأتي معك على الغداء غدا لا زعلت منك، ولن أكلمك قط!

* * *

استقبل الأخ مارتين صديقي بحفاوة بالغة، وشرع في سرد قصة حياته الماضية وما ينوي عمله في المستقبل القريب، تماما كما فعل معي البارحة، ولما كنا عائدين إلى البيت مساء قال صديقي مازحا:

- هل لاحظت كم هي كبيرة أقدام مارتين؟ انها أشبه ما تكون بالقارب. أما هو فمارد عملاق، ولكن يبدو ان طيبة القلب وعفة النفس من أفضل سجاياه.

وبعد مدة وجيزة توطدت بيننا وبين الأخ مارتين أواصر المحبة والألفة وأصبحنا كأصدقاء العمر. كنا نعوده كل يوم تقريبا لنساعده في مشاغل الدكان، ولاسيما صديقي الذي غدا ساعده الأيمن. وكنا خلال غيابه عن الحانوت نقوم بما يلزم من

فـروض وواجـبـات. وألفنا الزوجـان وأحـبّانا جـدا لدرجـة لم يكونا يتناولان لقمة شهية دوننا.

* * *

كنت قد نشرت قبيل وصولي لأوديسا ديوانا لأشعاري. أهديت منه نسخة للأخ مارتين فقرأ الإهداء ثم قال مشجعا:

- مرحى لك! زادك الله موهبة وشاعرية!

وظننت ان الفرصة ستسنح له مطالعة قصائدي يوما ما. وبعد أسبوع شاهدت ديواني مرميا في صندوق الأوراق التي يلف بها الموالح والسكاكر، وفكرت في سري. «لايحق لي ان ألومـه فـالرجل لايحب المطالعة. وهو لا يملك سوى أربعة كتب في بيتـه: واحد ملكه الخاص، واثنان لزوجتـه، والرابع عام، فكتابه سفرأغان عنوانه «القيثار الارمني» لا يفتحه إلا في الأعياد والمناسبات، يوم يحتسي بعض الخمرة وينتشي فيهرع إلى قيثاره، يختار ما يحلوله من أغاني الحب والأناشيد الوطنية، يغنيها بصوته الجهوري مترنما مطروبا، أما كتابا الزوجة فهما إنجيل وكتاب صلاة وتراتيل حفظتهما عن ظهر قلب دون ان تعي شيئاً من المضمون، أما الكتاب العام المسجى على الطاولة دائما فهو عبارة عن مفكرة وتفسيرأحلام، اهترأ من كثرة الاستعمال».

* * *

حدث في أحد الأيام ان نُشر تقريظ عن ديواني في احدى المجلات. قرأته مع صديقي فرحين ثم توجهنا إلى الأخ مارتين لنشاركه وزوجته سرورنا.

- انظر إلى هذا الاطراء الرائع يا أخ مارتين!

قالها صاحبي مشيراً إلى المجلة ثم أخذ في قراءة المقال.

كان الأخ مارتين جالسا قبالته ينصت بذهول عجيب. وفجأة لاحظت ان الأخ مارتين يزداد وجوما مع استرسال صديقي في القراءة. وأعجباه -! هل من المعقول ان المديح المكتوب عني لا يروقه؟! كيف هذا وهو يحبني على الشكل الذي ذكرته؟! أنه موقف غريب ولغز عجيب؟!

بعد انتهاء صاحبي من القراءة خيم على الغرفة صمت مطبق. انتصب مارتين واقفاً وشرع في بعثرة البضائع على الرفوف هنا وهناك، وهو يقوم بحركات عديمة المغزى، كنا أنا ورفيقي نتبادل النظرات الحائرة دون ان نعي سببا لتصرف الأخ مارتين. بيد ان زوجته انقذتنا من هذا الموقف الحرج حين دلفت الغرفة، داعية إيانا على الغذاء، ولكن مارتين لم يكرر الدعوة كعادته. فاعتذرت عن تلبية الدعوة متذرعا بحجة ما، وكذا فعل صديقي. وخرجنا معاً على الفور فسألني صاحبي:

- ما هو تفسيرك لهذا التصرف الغريب؟!

- لا أدري، لعل هناك مشكلة تقلقه، ولا تخصنا؟

ولم نحر جواباً شافياً لتساؤلاتنا.

ذهبنا إليه في الغد وتظاهرنا بأن شيئاً لم يحدث. وهكذا فعلنا في اليوم التالي. غير ان سلوك أخينا تبدل نحونا، ولاسيما تجاهي أنا بالذات، وقد أيقنت هذا عندما أخبرني صديقي بأن مارتين كا ن يعامله معاملة حسنة كالسابق، وخاصة في غيابي. عندها اضطررت لاختصار زياراتي إلى بيت الأخ مارتين.

لاحظت ذات مرة ان ديواني ارتقى من زاوية النسيان ليحتل مكانة لائقة الى جانب «القيثار الارمني» و «تفسير الاحلام». ماالذي حدث ياترى ؟! ماهذا اللغز المحير الذي لم اجد حلاً له؟! وفي احدى الاماسي قال لي صديقي متسائلاً :

- هل تدري سبب الموقف السلبي الذي اتخذه منك الاخ مارتين ؟

- كلا ، لاادري .

- غيرة ادبية !

اجابني رفيقي بهدوء كامل. نظرت اليه مشدوها. وغرق صاحبي في قهقهة عالية. واخبرني بحقيقة الامر وه : ان مارتين لايعدني شاعرا مبدعا ، ويوجه اليّ سهام نقده معتبرا نفسه شاعرا اصيلا. وانه يود الشروع في كتابة الشعر، لكن الخبرة تنقصه في فن العروض، ولذا التمس رفيقي تقديم بعض مايحتاجه من ادوات تعينه على نظم الشعر مثلي، لا بل واحسن مني. ورجاه ان يطلعه على كنه اسراري في قرض الشعر. ولكن صديقي ادعى بأني أنظم الشعر في السر والخفاء. وعندها سأله ان يستفسر مني شخصياً -دون ذكر اسمه- عن اسرار كتابة الشعر. لحظتئذ تملكتني موجة طاغية من السرور والحبور، فاللغز قد انفك والحمد لله، وانجلى الأمرعن حادث طريف يثيرالضحك حقاً.

غداً سيلقي عليه صديقي محاضرة عن نظم الشعر، عن الأوزان والتراكيب والموسيقى وما إلى ذلك.

* * *

انصرم ما يربو على خمسة أو ستة أسابيع، وما ان دخل زميلي الغرفة عائدا من بيت الأخ مارتين حتى قال فرحاً.

– سنذهب غداً إلى رفيقك في القلم، فنحن مدعوان على وليمة فاخرة!

لقد انقضى شهران كاملان، كأنهما دهران، دون ان أذوق مأكولات زوجة مارتين الشهية، فماسبب هذه الوليمة يا ترى؟! غيران رفيقي بدد حيرتي عندما قال:

– سيتلو علينا قصائده في الغد ويريد ان يأخذ رأيك فيها. فيجب عليك تطييب خاطره بالأطناب وفي كيل المديح له، فيزداد بهجة وغبطة!

وقصّ علي صاحبي كيف حاول مارتين قراءة أشعاره عليه وحده، ولكنه أقنعه بأنه لا يفقه في الشعر شيئاً، وأنه من الأفضل القائها أمامي، لأنني شاعر في آخر المطاف. غير أن مارتين رفض الاقتراح بداية، متذرعا بأن زملاءالفن الواحد لا يقدرون اقرانهم حق قدرهم بسبب الغيرة التي تملأ نفوسهم ازاء الآخرين. بيد ان صاحبي بذل المستحيل لا قناعه باني لست حسوداً، بل عصاميا أقول الحق ولو على نفسي. وأخيراً، توصل إلى ارضائه بالأمر الواقع، مؤكداً له بأننا كشعراء سنزداد ألفة ومحبة، وتفهماً وتقارباً.

في المساء التالي زرنا الأخ مارتين فاستقبلنا فرحاً مبتهجاً وكأن شيئاً لم يكن. وسارع لاقفال الدكان ثم ولجنا غرفة الطعام. أحضرت ست البيت الشاي. ووضع مارتين المصباح على المنضدة قرب دفتر أشعاره. اتخذ وزوجته جانبا من الطاولة، واحتليت ورفيقي الجانب المقابل.

بدأ القراءة بصوت جهير وحماس منقطع النظيرحتى أتى على خمس أو ست من قصائده، كل منها في صفحتين أو ثلاث، دون أي تغيير في المبنى أو المعنى. وبيت القصيد في أشعاره هو:

«أنهى مارتين تصفية حسابات الدكان وركب الباخرة محملاً بأجود البضائع عائداً إلى وطنه الحبيب... يودع اوديسا التي عاش في ربوعها أيام عسر ويسر. ثم يصف الرحلة في البحر، السماء زرقاء، والمياه خضراء، والباخرة تمخرعباب

البحر. وفجأة تتلبد السماء بالغيوم الدكناء، فترعد وتبرق السماء، ويرتفع اعصار هائل ليحطم الباخرة... فيبتلع البحر الموحش زوجته وثروته، وتقذفه الأمواج إلى بر الأمان، فييأس ويقنط، ويناطح الصخور برأسه ويندب حظه ويبكي بكاءً مراً على فقيدته... ويتساءل: كيف أذهب إلى الوطن بعدما حل بي من زعازع الدهر؟ فيتجرع كأس الضيم ويرثي حاله ليلاً نهاراً، وينوح نواحا متواصلاً...

هذا هو باختصار فحوى قصائده. كنت ورفيقي حابسي الأنفاس خوفاً من الاسترسال في الضحك. وعندها هبت زوجته غاضبة وقالت:

– تبا لك، لماذا تميتني وتبقى أنت على قيد الحياة ؟!

– لضرورة الشعر، يا روحي .

أجابها مارتين اجابة هادئة تنم عن فخر واعتزازالإنسان الواعي لخبايا وأسرار فن الشعر، ثم شرع يمسح عرقه المتصائب.

– أية ضرورة هذه؟ إنها رغبتك الدائمة لازهاق روحي.

– كي ارثيك واظهر لك حبي من خلال يراعي.

– ان كان ما تقوله صحيحا فأمت نفسك مرة وأرحنا من نظم الشعر. لا، انك تريد موتي حقا، لعلك تعشق امرأة أخرى؟ آه ، انك تخشى الموت ولا تريده لنفسك؟! يا لك من مجنون. فأنت عاجز حتى عن مسك دفتر حساباتك، وشتان بينك وبين القلم. اهتم يا رجل باشغالك وأعمالك، فبيتنا قد انهدم وأنهار، يا لك من معتوه ثرثار!

صبت الزوجة جام غضبها على زوجها وانتصبت واقفة متجرعة غصتها ثم ولجت الغرفة المجاورة صافقة الباب وراءها. فسادت لحظة من الصمت المكبوت. ارتخت بعدها أعصابي فانفجرت ضاحكاً مقهقهاً. فقطب الأخ مارتين مابين حاجبيه وصرخ بي هائجاً مائجاً :

- صه يا هذا ! لم يبق الآك تسخر مني.. لعلك تحسب نفسك شاعراً ؟! كلا، وألف كلا. أنا هو الشاعر الحقيقي. فأنت تقرض ست أو سبع أبيات من الشعر ثم توقع تحتها مغروراً فخوراً. ولعل أغرب ما فيك أنك لا تطيق أحداً من غيرك. هيا اغرب عن وجهي، أيها الشاعر الخاسر...

ثم أشار بإصبعه الكبيرة نحو الباب.

فوقفت وقد استبد بي الارتباك لأخرج من البيت وأغوص في غياهب الليل الداجي.

* * *

ما ان فتح صديقي الباب حتى أطلق ضحكة رنانة وقال:

- لماذا وليت فاراً؟ لقد جاءت زوجته وما كفت كلابها عنه. فخرجت والأخ مارتين بحثا عنك. لقد ندم زميلك على فعلته أشد من الكسعي، فظل طوال المساء منكس الرأس... ولكنك خسرت أكلة شهية من البرغل والدجاج بيد انه لابأس عليك، اذ أكلت بدلا عنك أيضا، لقد قلق الزوجان عليك قلقاً شديداً.

ثم استغرق في الضحك واستطرد قائلا :

- انك لم تر خيراً من الشعر بعد، وها أنت قد حرمت بسببه من البرغل والدجاج. وهذا نذير شؤم، فاسترنا يا أرحم الراحمين.

البدقية ١٩٢٥

منطـق القـلب

قال لي رفيقي الإيطالي في أحد الأيام:

- ان قلبنا ذو منطق عجيب. نعم غريب وفريد به، فهو يخالف منطق الفكر كلية، إذ ليست هناك أية أحكام وقوانين، بل شيء مغاير تماماً. فقوانين منطق القلب لم يكتشفها وينظمها أحد ما وهي تنتظر بفارغ الصبر ظهور أرسطو طاليس جديد.

ان قلبنا لغز عظيم. فهو عالم كبير وعميق مليء بالمشاعر والأحاسيس. انه عالم باطني حر واسع المدى، خارج عن نطاق الأشياء الكونية، لا بل ان الكون بالذات يخضع له، أليس كذلك ؟ قل لي بربك : أين الخير والشر، والصالح والطالح، والمليح والقبيح خارج الطبيعة؟ انهم جميعا في قلوبنا تحديدا. فلا غرو بعد ذلك ان نقول ان قلبنا هو الذي يتحكم في الكون. أجل، ان بصيرة الفؤاد مدهشة.

لقد أطلت عليكم طبعا، ولكن ما ذكرته ليس عبثا. اذ بودي ان أقص عليكم ما سمعته قبل أسابيع، ومازلت أفكر وأتأمل فيه دون ان أعيه بمنطقنا العقلي، لكني اتفهمه جيداً بمنطق القلب الواسع. فاليكم الحكاية.

كان لأمي خادمة كبرنا كلنا على يديها. وهي الآن ليست خادمة فقد بلغت الستين من عمرها، ولكنها لا تزال صديقة

وفية لوالدتي. لقد اعتادت كل منهما الأخرى. كان ابن العزيزة ماري قد قتل أثناء الحرب الشيطانية في ربيعه الثالث والعشرين. وكان لها زوجا طاعنا في السن. بعد تصرم عام على الحرب،أحضرت جثث الشهداء الذين سقطوا في ساحة الوغى ووريت الثرى في مدافن الوطن بحفاوة بالغة.

تملك ماري الآن أبناً حبيباً راقداً في مقبرة الشهداء بجزيرة البندقية ذات المياه العجائبية. يرقد الآن تحت حجر صغيرعليه صليب خشبي أسود، نقش عليه الرقم (٢٤). هذا كل ما بقي لها من ولدها الحبيب الذي كان مليئا بالحيوية والنشاط، فلا اسم له ولا حتى شاهدة فالرقم (٢٤) هو ابنها. كان ذلك كل شيء بالنسبة لماري. انه عالم حي متفاعل. كانت ماري تخصص كل سبت لابنها، تذهب فيه المرأة الملتاعة إلى المقبرة بعد ان تكون قد اشترت بعض الأزهار والشموع بما وفرته من مال، كي تزين ضريح ولدها، عفواً، لقد اخطأت، كي تجمل فلذة كبدها الخالد أبداً. كانت تقضي الساعات الطويلة راكعة عند قدميه، تبكيه وتناجيه، ثم تسكت وتنصت، وفي أعماق روحها الصامتة كانت تشعر ان الحياة عادت إلى وحيدها، الذي يشرع في اللعب عند اقدام والدته الرؤوف. أو كانت تتخيله طفلاً صغيراً أو تلميذاً مجتهداً يتعلم دروسه تحت سمع وبصر أمه الحنون. وكانت أحياناً تراه شابا يمارس حرفة ما وعملاً معيناً...

كانت ماري تقفل راجعة في المساء وقد تآست وتعزت من مصابها الجلل وهي تمني النفس بأمل زيارته في السبت التالي. ودام الحال على هذا المنوال ثلاثة أعوام صيفاً وشتاءً دون ان تخلف الميعاد.. يا للمسكينة ماري.. يا للأمهات المسكينات...

وهنا قاطعته قائلاً:

- لكن أمهاتكم أوفرحظاً من أمهاتنا فلأولادهن مقابر محددة، أما أمهاتنا فقد حرمن هذا العزاء أيضا. لقد ذهب شبابنا وشهداؤنا ضحية للبرابرة الوحوش.

- باعتقادي انكم أوفر حظاً، لأن عدوكم الكاسر كان بعيد النظر، فهو لم يوفر أماً ولا أبنا كي يبكي أحدهما الآخر، ألست مصيباً؟

- أجل، أنت على قدر من الحقيقة ...

- هذا جدل طويل يذهب بنا بعيداً يا صديقي، فدعنا نعود إلى حكايتي.

في أحد الأيام أخبرت ادارة المقبرة الأم ماري ان التحقيق أظهر بعض الخطأ وبأن ضريح ولدها يقع في الجانب الأيسر وليس الأيمن وتحت ذات الرقم «٢٤»: ذات القبر والحجر والصليب الخشبي. ليس بوسعي يا صديقي ان أصف لك الحزن الشديد الذي أصاب ماري، التي يئست وناحت وكأنها فقدت لتوها ابنها الحبيب. لقد واصلت البكاء والنواح لأيام عدة بلا عزاء. ولما تناهى الخبر إلى والدتي ذهبت إليها وأحضرتها ضيفة علينا كي نؤاسي المرأة الملتاعة ونخفف بعض أحزانها. وانعصر قلبي لرؤياها ويئست كلياً، لكني خاطبتها معزياً مؤاسياً:

- مالي أراك حزينة هكذا يا ماري العزيزة؟ فابنك لم يستشهد حديثاً وقد مرت سبع سنوات على وفاته! لقد بكيتيه ما يكفي، ثم انك لست الوحيدة في مصابك، بل هناك الملايين من أمثالك.

-ماذا أقول لك ياسيدي؟ لعلك لا تتفهم جيداً يا سيدي ان ولدي بقي ثلاث سنين بلا معين وظل المسكين ينتظر أمه في حنين. لقد ظل القبر تحت أوحال الربيع وأوراق الخريف، بينما كانت أمه الملتاعة تحب وتحنو وتعطف على إنسان آخر.. وابليتاه، فألمي فريد في نوعه... وخنقت العبرات المرأة المسكينة.

- وما الفارق يا ماري؟ افترضي انه ابنك فكري جيداً في الأمر، فلن تجدي فرقاً. كنت اتفلسف ببرودة ولا مبالاة- أليس ابنك لا يحس شيئاً البتة؟ أما هو الآن... وعجزت عن أقول لها: انه الآن لا شيء.

وخمنت الأم ما كنت أرمي إليه وخشيت ان تقر بحقيقة الأمر الواقع المر فقاطعتني بحزم قائلة:

– كلا، وألف كلا، فالفرق كبير جداً. فابني اسمه كارلوس أما الذي بكيته فلا أعرف حتى اسمه ولم أر وجهه قط. وكيف يكون الشيء ذاته ان الثم حجر قبر الغريب ظنا مني اني أقبل وجه ولدي الحبيب، آواه ما أغباني، يا لحماقتي...

وبقدر ماحاولت اقناعها بمنطق العقل ان لا فارق فيما حدث فالحب الذي اظهرتيه كان موجها لابنك من دون سواه، كانت الأم تقنعني بمنطق القلب إنني على خطأ وإني قاصر عن إدراك الحقيقة وان كلاً منا لا يفهم الآخر. حقا ان كلامنا لم يكن يفهم الآخر. فانّى لي ان اؤمن بغير الواقع المادي البحت؟ وانى لي تصديق الواقع المجرد بأن أبنها ليس ميتاً. وان ولدها المواري تحت الثرى يشنّف آذانه لسماع وقع خطوات أمه؟! وان أمه هذه تخلت عنه، نسيته؟! وانّى لها أخيراً ان تدرك ان ولدها قد تحول إلى لا شيء؟ كلا، كلا أبداً... أتعرف ان الأيمان هو ألا يصدق قلبنا أي شيء مغاير لمشيئته، فالأيمان بعينه هو قناعة القلب، نعم انه قناعة القلب البشري الراسخة.

أخيراً، وبعد عدة أيام غادرت ماري دارنا كما دخلتها دون عزاء».

توقف صاحبي عن الكلام وأشعل سيكارة بيد مرتجفة هائجة وطفق يدخن بلا انقطاع. كان فضولي قد استبد بي فسألته بصبر نافذ:

– وبعد.. وبعد؟! ماذا فعلت المرأة المسكينة؟ لعلها استسلمت للأمر الواقع وشرعت ترعى ولدها بالطبع؟

– سأتابع حديثي. – قاطعني صاحبي ثم أردف قائلاً :

– «لقد اوجد منطق الاحاسيس مخرجاً مغايراً تماماً لما قررت. نسيت ان أقول لك انها انقطعت فترة من الزمان عن

زيارة القبر خجلاً من ابنها ؟ ولكنها تمارس زياراتها الآن. فهي تزور الضريحين معا فتزينهما بالأزهار وتوقد الشموع وتنوح الاثنين قائلة: «عندي الآن ولدان: ابني كارلوس، وابني الآخر الذي تبنيته وقاسمته أحزاني وأشجاني فبات يحبني كأمه تماماً. لقد انصت لي طويلاً وبكينا معاً فكيف اتركه وحيداً بلا أم. عندي ولدان تحت الثرى، ولدان عزيزان حبيبان...

يا للأمهات المسكينات .. يا لقلب الأم المسكينة .

البندقية العام ١٩٢٣

* * *

ميكائيل مانويليان
(١٨٧٧-١٩٤٤)

فنان وممثل قدير ولد في تفليس حيث تلقى علومه. شارك في صباه بالتمثيل مع فرقة اوهانيس ابيليان وفي مسارح أخرى. التحق عام ١٩٠١ بالمسرح الشعبي في باكو. سافرسنة ١٩٠٣ إلى موسكو حيث تلقى علومه المسرحية على يد الممثلة المشهورة اومانيس رايسكايا. كان من أوائل مؤسسي الحركة المسرحية بعد توطيد الحكم السوفييتي في أرمينية.

مثل عشرات الأدوارالتي جلبت له الشهرة والمجد ولا سيما مسرحيات شكسبيروفرانس مور اشتهربنشاطه الجم في الأدب. صدرت باكورة مجموعاته القصصية بعنوان «رسوم» سنة ١٩٠٣، تبعتها مجموعات أخرى: «قصص» (١٩٠٦) و«رسوم دارمية» (١٩٠٩) و«الحكايا» (١٩١٤). وفي سني الحكم السوفييتي صدرت له مجموعات «المدينة السوداء» (١٩٢٧) و«الميلودراما المعاصرة» (١٩٣١) و«تزهر الصحراء» (١٩٣٣) وغيرها. صدرت قصصه المختارة في مجلد واحد (١٩٣٦) والمؤلفات المختارة (١٩٤٣) ومذكراته تحت عنوان «أوراق حياتي» (١٩٥٠). أعيد نشرمؤلفاته عامي ١٩٥٥و١٩٥٩. فيما يلي ترجمة قصتيه «المهرج» و«شجرة التوت».

المهــرج

كان ثمانيـة أشخاص جالسين في انتظار عيادة الطبيب. كانوا ينتظرون بفارغ صبر مواعيدهم، ولذا انشغل كل منهم بأمـر مـا كي لا يحس بوطأة الانتظار. كـان أحـدهم يقلب صفحات مجلة ناظراً إلى الصور الموجودة فيها. بينما كان الآخر يرنو إلى رسوم الجدران. وثمة اثنان يتبادلان الحديث بشأن مرضهما. بكلمة واحدة: اهتم كل واحد منهم بشيء ما.

ولولم يكونوا مـشـغـولين بهـذا الشكل، لكان قـد لفت انتباههم السيد الجالس بالقرب من الجدار، سيما وأنه دخل الغرفة دون أن يلتفت إلى أي منهم، بل اقترب من الكرسي الموضوع في الزاوية ثم تناول كتاباً عن المنضدة القريبة ففتحه ولم يحرك بعدها ساكناً.

كان رجلا في الأربعين، أو أقل من ذلك، وكل ما أدريه أنه شاب قبل الأوان. كان يحدق في الكتاب دون أن يقرأ، إذ ظل لأكثر من ربع ساعة ينظر إلى نفس الصفحة، وربما نفس السطر أو الكلمة.

كان بين الحين والآخر يحرك يده حركة عصبية وكأنه يطرد ذباباً كريهاً. اليأس والسأم يعشعشان في عينيه. الزاوية اليمنى من شفتيه مرتفعة قليلاً، ولذا كان يطلق أحياناً همهمة لا معنى لها .

عندما جاءه الدور، انتصب واقفاً بهياج ظاهر، لكنه لم يتسرع، بل تريث حتى ناداه الطبيب ثانية «التالي».

توجه إليه الطبيب بالسؤال التقليدي «عم اذا كان قادراً على مد يد العون له». سكت هنيهة وحاول اطلاق صوت ما، عله يريد التفوه بكلام معين، ولكن دون جدوى، فقد ذهبت محاولاته أدراج الرياح. وأخيراً، صدر عنه صوت أشبه بخنخنة الخنزير منها بصوت البشر.

دعاه الطبيب للجلوس، فجلس صامتاً ساكناً مترقباً.

– لا أدري ما أقوله. . . (كرر ذلك عدة مرات بعصبية حادة وسكت مجدداً) أنا لست مريضاً (تابع كلامه) ولا أشعر بأي ألم. . .

–يبدو أنك لا تنام مرتاحاً (قاطعه الطبيب).

– من أخبرك بذلك (سأله المريض وقد توجس خيفة).

– ليس عسيراً التنبؤ بذلك. أخبرني بالتفصيل من فضلك.

– أنا رجل معافى تماماً. . آكل وأشرب جيداً، ولكني لا أنام. . لقد مضى علي شهر ونيف دون أن أذوق طعم النوم.. أتفهمني يا حضرة الطبيب؟ أكثر من شهر وأنا اضطجع في فراشي وأنهض منه دون أن أجد سبيلاً إلى النوم. يخيل لي أحياناً بأني نعسان فأسارع إلى الفراش محاولاً الاستسلام للنوم. وبقدر ما كنت أسعى جاهداً للوصول إلى غايتي، بقدر ما كان النوم يطير من عيني اللتين بقيتا مفتوحتين فلا أجد طريقاً للرقاد، فكم وكم من الليالي تحولت إلى أصباح من كثرة السهاد الذي أثقل أجفاني. كنت أتوهم أحياناً بأني سأنجح في الدخول إلى ملكوت النوم، وأن قلبي يخفق بانتظام وانسجام، وأن الوساوس طارت من رأسي، فأنتقل إلى عالم الفرح والسعادة، وأنا أكاد أطير من فرط سروري وحبوري. في مثل هاتيك اللحظات لم أك أدري هل أنا نائم أم مستيقظ؟ هذه الحالة لم تكن تدوم سوى لحظات عابرة

ومـعدودة، فـأترقب بصـبـر نافـذ لحظة انتـقـالي إلى عـالم السـبـات، الذي سـيـأتي أجـلاً أم عـاجـلاً، ولكنـه لا يأتي، ولا يحضر. . .

أصابتـه رعشة مفاجئة جعلته يتشنج ويحاول الانتصاب في كرسيه ثم قال :

– انه ذلك الوحش الكاسـر. . ذلك الغـول الرهـيب الأشـد فظاعـة من الأرق والسـهاد. . . إني على اسـتـعداد كامل ألا أنام أبداً، شـرط ألا اسـمـع صوتـه. . صوتـه المرعب المخـيـف. . انـه يطرقني ليـلاً ساعـات طوال يقص علي حكاياه ويجـبـرني أن أنصت إليـه. . .

قاطعه الطبيب مستفسراً :

– من هو ؟

– لا أدري من هو، فأنا لم أر وجهه قط. . اسمع صوته ولا أراه. صـوتـه الخـسـيس الذي يروي لي حكاياتـه بـرتـابة مملة قـاتلة. . وأنا لا أعي شـيـئـاً مما يرويـه لي، ولا أفـقـه كلمـة مما يتفوه بـه. . يحكي لي ساعات وساعات، ويضطرني أن استمع اليـه. فـأصرخ من شدة الألم واليـأس إذ لا أرغب في الانصات إليـه، أضع يدي على أذني كي لا أسـمـعه، ومع ذلك يـتابع كلامـه بكل حزم وعناد. فـأثب واقـفاً لأضرب رأسي بهذا وذاك الحائط. . فـينتصب هو الآخر واقـفاً ثم يتـوارى تدريجياً عن أنظاري وهو يروي حكاياتـه. . . وبت أخشى الاستلقاء في الفراش كي لا أسمع صوتـه. . لقد مضت أيام أربـعة، ياحضرة الطبيب، ولم أرقـد فـيها لحظة واحدة. سيـتملكني الجنون يا أيها الطبيب المحـتـرم، أنقـذني بالله عليك، فلم أعـد أطيق هذا العـذاب. . خلصني من ورطتي ياسيدي الطبيب. . .

ثم دس رأسه بين يديه يائساً حزيناً .

سكت المريض وكذا الطبيب. وبعد هنيـهة قطع الأخيـر حبل الصمت سائلاً:

– لماذا لم تراجع الطبيب طوال هذا الوقت؟

- لقد راجعته.

-هلاّ أحضرت لي الوصفات التي أعطاك اياها؟

أخرج المريض عدداً من الوصفات الطبية المهترئة ووضعها أمام الطبيب، تأمل الأخيرهذه الأوراق المدعوكة بضع لحظات ثم قال بلهجة تقريرية:

- أنت في أمس الحاجة للراحة. . أعصابك منهكة جداً أنت بحاجة إلى حياة هادئة وطعام جيد ورحلات وجو سعيد من الأصدقاء والخلان، أضف إلى ذلك كله -وقد يبدو هذا غريباً لأول وهلة، ولكني أنصح به جميع مرضاي - التردد إلى السيرك. . . هناك مهرج قدير يثير ضحك الناس. . انه ضحك العافية، فمرضاي يعترفون بالنتائج الحميدة التي يتركها في نفوسهم ذلك الضحك. وأنا شخصياً أشعر بحبور عميق لدى سماعي ذلك المهرج الفذ، ولذا أتردد على السيرك ثلاث مرات في الأسبوع للانصات إليه. إنه رجل حاد الذكاء حاضر البديهة. وأمثال هؤلاء المهرجون قلة نادرة، وهم يثيرون الضحك من أعماق القلب والروح معاً. فهل سبق لك أن شاهدت أو استمعت إلى ذلك المهرج؟

بدت على محيا المريض امارات الإعجاب الشديد، ولكن ابتسامة مرة ارتسمت على شفاهه.

- جرّب ذلك .

وقف المريض دون أن ينبس ببنت شفة ثم وضع النقود على الطاولة. ازداد وجهه احتقاناً واكتئاباً. . توجه نحو الباب. . .

- مهلاً. . .

كان على وشك أن يفتح الباب، غير أنه انزل يده واطرق صامتاً. . حدق لحظة في الطبيب وهمس قائلاً:

- أنا هو ذلك المهرج . . .

شجـرة التـــوت

كان رأسـها مـوشـحـاً بمنديل مـرفيّ تسـربت من تحـتـه خصـلات شـعرها المحن، الذي خطه الشيب قبل الأوان. كـانت إحدى عينيها شبه مـغلقة من شدة الألم، والأخرى أكثـر اتساعاً من حـجـمـهـا الطبـيـعي لتكمل النقص الناشيء في العين الأولى.

كان صدرها مفتوحاً دوماً وقد لفحتـه الشمس؛ فـاسـودّ مثل وجهها تماماً. وكانت شفتاها متلاصقتين دائما. ان نـظرة فـاحصـة لوجـهـها الصـغير المتـجـعد تمكننا من تـخـمين عـدد الأسنان الباقية في فمها.

كانت العجوز في السبعين.

تجلس يومـيـاً من مطلع الفـجـر حـتى الغروب بجـوار شجـرة التوت الضـخمـة. وهي تحـتـفظ بسلة ومكنسة بالقرب منها، وتغزل الخيوط بمغزلها.

تصـرمت أعوام عـشـرة على وفـاة زوجها. وقـد غـادرها ولدها الوحـيد بعد مـوت أبيـه، وتقريباً لم يعد أبداً. وبقيت العجوز وحيدة حزينة.

لم يبق أي شيء من الأشـجـار المثـمـرة التي كانت تـغص بها الحديقة الغناء، ناهيك أن جدرانها انهارت تماماً، وسرقت

أبوابها منذ أمد بعيد. لم يبق في البستان سوى شجرتين من الجوز وأخرى من اللوز، بينما توسطتها شجرةالتوت الضخمة المعمرة، حيث كانت العجوز تجلس تحت ظلالها الوارفة منذ اطلالة الربيع وحتى أواخر الخريف.

لقد تحولت الحديقة الى حقل ترى فيه عيدان القمح المحصودة، نافذة كأشواك القنافذ، عوضاً عن الأشجار المثمرة اليانعة.

وأصبحت شجرة التوت التي تربطها بها ذكريات معينة محور اهتماماتها، ومحط عنايتها ورعايتها. ولعلك تزداد قناعة بما أقول حين تشاهد الحب العظيم الذي تبديه نحو التوتة بالرغم من العذاب الشديد الذي تعانيه جراء احناءة الظهر القاسي المتحجر. كانت دائبة على رش الأرضية وتكنيسها وتنظيفها كي لا يتسخ التوت الساقط عليها.

وقبل أن ينضج التوت كانت العجوز تعتني بالشجرة ايما عناية، فتعفرترابها بأصابعها وتزيل الأعشاب وتسوي التراب.

وتظل تغزل الخيوط بصمت.

كانت الحارس الأمين على سلامة التوتة. فالعصافير تخشى الوقوف على أغصانها، واذا قدر لأحد العصافير أن يقترب منها، رشقته العجوز بواحدة من الحصى التي تحتفظ بها عند جذع الشجرة.

كانت تنصت بعناية إلى سقوط حبات التوت على الأرض، فترفع رأسها حالاً، وتتوقف عن الغزل لتشاهد الموضع الذي وقعت فيه، ثم تتابع عملها. وعند المساء تجمع التوت في سلتها بعناية فائقة وتعود ادراجها إلى القرية، حيث كانت بانتظارها نعجة وعنزة.

لقد تأخر الربيع هذا العام.

لقد ظهرت براعم الأشجار، ولكنها كانت تخشى الانفتاح.

وفجأة، وبقوة عصا سحرية، ازدانت الأشجار بأوراق خضراء - صفراء صغيرة. . . وازدهرت أشجار الفواكه، فامتلأت كل الحدائق والجنان برائحة الربيع العطرة الذكية.

ملأت السنونو وغيرها من الطيور الراحلة عنان السماء صداحاً وتغريداً.

واستجمعت العجوز قواها وخرجت من مخبئها لزيارة شجرة التوت، التي تأخرت عن التزهير هذه السنة. نظرت العجوز إلى التوتة نظرة ملؤها الأسى والحزن، وخيل لها أن شجرتها في طريقها إلى الزوال. فاسودت الدنيا في عينيها وأصيبت بدوار أقعدها على حجر قريب من جذع الشجرة.

بعد قليل وقفت ثانية. وتذكرت أن الربيع قد تأخر عامة، ولا داع للخوف، وأن شجرتها ستورق ولا شك بعد أيام عدة.

راقبت الشجرة من كل الجوانب ولاحظت فجأة غصناً هزيلاً في أسفل الشجرة تغطيه أوراق خضراء - صفراء صغيرة، فامتلأ قلبها حبوراً وسروراً، ورفعت بصرها نحو السماء وابتهلت قائلة: «الحمد لك يارب».

لقد انفطر قلبها خوفاً وهلعاً، ومع ذلك حاولت اقناع نفسها بأنها على خطأ، وسارت الهوينا إلى البيت.

* * *

بعد أيام قليلة زارت شجرتها الحبيبة ثانية. وأيقنت أن الشجرة ستموت في الربيع قبل أن تزهر. فالأوراق التي رأتها في المرة السابقة ذبلت تماماً. ولم تصدق مارأته بأم عينيها. أخذت سكيناً حادة وأزالت قشرة جذع التوتة كي تختبرها.

لم تكن الشجرة قد يبست بعد تماماً. فالعصارة لما تزل

باقية في جذع الشجرة. لم يعد هناك مجال للشك اطلاقاً. ومع ذلك لم تقتنع بالواقع، فسارعت لصب ابريق ماء حول جذع التوتة.

ماذا ستفعل بدون الشجرة؟ بأي شيء ستملأ فراغ حياتها؟

* * *

تصرّم أسبوع كامل لم تر فيه العجوز شجرة التوت التي أحبتها واعتنت بها كثيراً. كانت راقدة في غرفتها الوحيدة التي بقيت من بيتها المتهدم المتداعي. لم تكن مريضة، ولكنها عجزت عن السير. ولم يكن جسدها يحس بأي ألم أو وجع ، ومع هذا كانت عاجزة عن الوقوف.

كانت تحلب النعجة والعنزة جارتها التي تزورها عند المساء لدقائق معدودة ، فتقوم بواجبها على وجه السرعة، وتتطمأن على صحتها، ثم تودعها تاركة اياها وحيدة حتى المساء التالي، وهكذا دواليك.

ظلت راقدة في فراشها دون أن تتوجع وتتألم. يبدو أنها كانت عاجزة عن التفكير. فعيناها رانيتان إلى سقف الغرفة: تحدقان صامتتين في نقطة واحدة، بلا حركة.

كان الشجر والزهر قد اخضر وازهرّ، الا شجرتها الوحيدة التي كانت تذبل وتذوى وتموت. . . هذه الفكرة الرائعة تماماً دفعتها لتجميع شعرها المتناثر بعصبية حادة، وللجلوس حالاً في فراشها.

- أنىّ لشجرتي أن تموت. . . كلا، وألف كلا. . لا يجب أن تموت.

وهكذا، شرعت تنقل الماء كي تسقي شجرتها الحبيبة وقد تقوس ظهرها، فالآخرون يمتلكون العشرات من شجرات

التوت، فلم تموت شجرتها الوحيدة. لا، لن يحدث هذا ابداً.

لعلها ازدهرت الأن؟ ألم يمضي أسبوع كامل على غيابها؟

وانقطع حبل أفكارها لينحى فجأة منحى أخر مغاير كلية. لقد ذكرتها شجرتها الوحيدة بولدها الذى لم تره منذ عشرة أعوام. لعله يأتي الآن ليؤاسي والدته العجوز المقعدة؟

- الله رحيم عليم، ومن غير المعقول أن يكون إلا رزاقاً مناناً، رحماك يارب، رحماك.

وعم الظلام فلم تعد ترى شيئاً داخل الغرفة. اضطجعت ثانية. . اغمضت عينيها واسلمت نفسها للهواجس والوساوس.

خيل لها على حين غرة أن أحداً ما يطرق الباب. . رفعت رأسها وأصاخت السمع. . لم تسمع شيئاً، اذ كان الصمت شبيهاً بصمت القبور. اسندت رأسها على الوسادة من جديد.

شعرت صباحاً أنها قد تعافت تماماً. نهضت من سريرها ثم جلست. . . كانت تتذكر كل شيء بوضوح خالص، لدرجة خيل لها أن ذلك لم يكن حلماً.

رأت في المنام أن التوتة قد أثمرت، وأنها تجمع التوت من تحت الشجرة لتملأ السلال. فملأت عشرات منها وظلت تجمع وتملأ التوت بلا نهاية. لقد تصبب العرق شآبيبا من جبهتها ولكنها لم تتوقف عن العمل. .

لقد أصابتها الحمى . كان جسدها يشتعل ناراً، والعرق يسيل من جبينها. عيناها ذابلتان محمرتان، أنها محمومة بالطبع. . ولكنها أحست بالحيوية والنشاط.. حاولت الوقوف، فاسودت الدنيا في عينيها وسقطت أرضاً. جاهدت ثانية حتى وقفت. أخذت عصاها من زاوية الغرفة، واستندت إليها متجهة صوب البستان. . . ورغم أنها لم تكن تدري ماتقوم به والام تسير، فان قوة خفية كانت تدفعها، ولم يكن بمقدورها التصدي لتلك القوة.

اقتربت من البستان جارة اقدامها من غير ان ترفع رأسها كانت تسير متكئة على عصاها وهي تخشى النظر إلى الشجرة.

- وإن كانت الشجرة يابسة والحلم خادعاً، فماذا. . .؟!

في هذه الدوامة من الأفكار لم تشعر العجوز كيف وصلت التوتة. . .ماذا حدث لها بعدئذ ؟ عندما فتحت عينيها وجدت نفسها ملقاة تحت أقدام الشجرة.

كانت الريح تتقاذف الأغصان اليابسة وهي تحف حفيفاً مؤلماً.

لملمت نفسها ونظرت إلى الشجرة مجدداً فانفطر قلبها حزناً وألماً . . تمنت البكاء فلم تجد له سبيلاً، لقد تجمد الدمع في مآقيها.

وقعت عيناها فجأة على شجرة اللوز المغطاة بأزهار وردية رائعة الجمال والمنظر. . شعت ابتسامة الرضى على محياها ثم انطفأت بأسرع من لمح البصر. حين فكرت كم من الوقت ستنتظر. . وكم يجب أن تعمل حتى يتحول الزهر الوردي إلى ثمار يانعة؟!

وبدا لها أن ذلك بعيد المنال، لا بل من المحال، وأيقنت أنها لن ترى ذلك اليوم ابداً.

وفجأة تذكرت العجوز الشاة والعنزة فبذلت قصارى جهدها للوقوف على قدميها، من غير أن ترفع رأسها. وتحاشت القاء نظرة أخيرة على التوتة. ابتعدت عنها والحسرة في قلبها وسارت مترنحة نحو البيت.

وفي الصباح التالي لم تستيقظ العجوز.

١٩١٣

واهان توتو فينتس

شاعر ومسرحي أرمني مشهور من مواليد ١٨٩٤. خاربيرت بأرمينية الغربية. أنهى دراسته الثانوية في مسقط رأسه. وفي عام ١٩٠٩ هاجر إلى باريس ومنها إلى نيويورك. تخرج عام ١٩١٢ في جامعة ويكنسون الأميركية، وفي عام ١٩١٥ شارك في عمليات المقاومة البطولية في وان وأرضروم ضد الطغاة الأتراك. كان محرراً لجريدة «أرمينية» الصادرة في تفليس بجورجيا خلال الفترة ١٩١٧-١٩١٨. توجه إلى أميركا ثانية سنة ١٩٢٠. وعاد إلى الوطن عام ١٩٢٢، حيث عاش فيه حتى وفاته عام ١٩٣٨. فازت مسرحيته «بيزنطة الجديدة» بجائزة الدولة ومثلت على خشبة العديد من مسارح الاتحاد السوفييتي وفرنسا. له الكثير من المؤلفات الأدبية والنقدية والاجتماعية والمسرحية، فضلا عن العديد من الترجمات من مناهل الأدب العالمي، ولاسيما أدب شكسبير.

من أشهر أعماله:

- «الحياة على الطريقة الرومانية القديمة»، بيروت ١٩٥٦.
- «بيزنطة الجديدة»، يريفان ١٩٢٩، بيروت ١٩٥٨.
- «أميركا»، يريفان ١٩٢٩.
- «الشرق»، تفليس ١٩١٨.

- «أصادرو وكليوبطره»، يريفان ١٩٢٩.

-«الحمام»، يريفان ١٩٥٧.

-«دون كيشوت أرمينية»، استانبول ١٩٢١.

-«قصة امرأة عربيّة»، ضمن مجموعته القصصية «أميركا» تصور حنين الانسان الشرقي إلى الوطن.

- «مختارات واهان توتوفينتس» في مجلدين، يريفان ١٩٨٨ ضمت أشعاره ورواياته وقصصه ومسرحياته.

* * *

قصّــــة امـرأة عربيــة

واهان توتوفينتس

اضطررت ذات يوم لعرض السجاجيد أمام أحد الزّبن في حانوت السجاد الشرقي من متجر «ونتن» بسبب انشغال جميع الباعة. فانتقى الزبون بعض السجاجيد الثمينة وقدم إلي بطاقة زيارته قائلاً:

- لزوجتي معرفة أكثر مني في السجاد الشرقي فأرجوك، ان حضرت هي غداً، أن تعرض عليها المزيد فتنتقي أية سجادة تروقها ثم أرسلوها لمنزلي كي أحول الصك اللازم في نهاية الشهر.

فقلت باشّا:

- حسناً جداً ياسيدي!

أخذ الشاري اسمي وكنيتي ومضى في سبيله.

وعرفت من بطاقة زيارته انه المستر شيلد، أحد أكبر تجار ريش النعام في نيويورك وتساءلت في سري «لعل المسز شيلد من السيدات اللوتي زرن الشرق ويعتقدن بأن

زيارتهن تمكنهن من اكتساب الخبرة في السجاد الشرقي».

في الحادية عشرة من صباح اليوم التالي دخلت محلنا امرأة. فاقترب منها أحد الباعة محيياً وقدم لها كرسياً. فأجابت على تحيته باحناءة رأس وأخرجت قصاصة من حقيبتها وقدمتها له. وللحال ناداني البائع فاقتربت منه، وما أن وصلت حتى بادرتني السيدة بالتحية قائلة:

- صباح الخير!

- صباح النور!

- أنا المسز شيلد.

- اوه . . نعم، لدي سجاجيد أعرضها عليك!

كانت السيدة شيلد امرأة سمراء حسنة الهندام، سوداء العينين ذات نظرة حزينة. كانت عيناها براقتين جداً، وعند الابتسام تبدوان مثل سوسنة في الضباب.

بينما كانت جالسة على الكرسي شرعت في عرض السجاجيد التي اختارها السيد شيلد. كلمتني بلغة انكليزية فصيحة تشوبها لكنة أجنبية فقالت:

- على الرغم من أني شرقية الأصل لكني لا أفهم في سجاد الشرق. أما زوجي فهو مصر بأني سأنتقي خير أمنه ولذلك أوفدني اليكم. وكلي أمل في أن تساعدوني كي لا أخجل أمام زوجي.

- ما دام الأمر كذلك فاسمحي لي يا سيدتي أن أضع هذه السجاجيد جانباً ولنختر معاً واحدة لا تبيض وجهك فحسب إنما. . .

- هذا كل ما أريده.

وبدأت أفتش عن سجادة فريدة لافي بوعدي لها. فلاحظت أن السيدة شيلد لم تكن تنظر إلى السجاجيد بقدر ما كانت تتطلع إلي بعينين دافئتين. لعلها كانت تستقرىء ما اذا كنت ذلك الانسان الذي يخلص بوعده ويجنبها تقريع

زوجها وانتقيت لها سجادة صوفية مرنة زرقاء موشاة بأزاهير حمراء مرجانية. فسألتني:

- ما سعرها؟

- ثمينة ياسيدتي. ثلاثمائة دولار. وبما أن زوجك لا يريدها أغلى من مائتي دولار، فاني سأرتب الأمر وكأنكما اشتريتماها من سوق الاسبوع الفائت.

فاستفسرت قائلة:

- وما معنى ذلك ؟!

- بحسم ٤٠٪ بالمائة. أي سيكون سعرها ١٨٠ دولاراً.

وبرقت عينا السيدة شيلد بالشكر والامتنان فقالت:

- أشكرك جداً. وارجوك ارسالها لمنزلنا وسأدفع لك المبلغ نقداً.

- لقد أوصانا المستر شيلد بارسال صك في نهاية الشهر، فلا تتعبي نفسك.

- لا، لا .. سأدفع الان اذ لدي المبلغ وباستطاعتي دفعه.

وقدمت لي المبلغ فحولته على القسم المالي.

فسألت: - هل بمقدوركم ارسالها اليوم ؟

- قبل وصولك إلى البيت ستكون السجادة هناك.

استبد بي شعور عميق لمعرفة البلد الذي تنتمي إليه السيدة شيلد فتجرأت وسألتها:

- اعذريني يا سيدتي من أي البلاد اتيت إلى أميركا؟

- من العربيّة.

- من العربيّة؟!

- أجل، أنا عربية، - أجابت بتنهد عميق.

وشعرت أن وراء أنتها قصة مأساوية وحدست أن تلك التنهيدة، هي النغمة الأخيرة في تلك المأساة. وحدقت طويلاً في عينيها السوداويين مقوستي الحاجبين، فسألتني:

- وهل أنت من المشرق أيضاً ؟

- نعم يا سيدتي، من أرمينيا.

عندما عرفت أني من أرمينيا نظرت إلي بحنان وشوق وقالت محيية:

- السلام عليك . . .

-وعليك السلام . . .

كانت تحيتها شعاعاً لفّ روحي فسألتها:

- هل مضى عليك زمان طويل في امريكا ؟.

- حوالي ثمانية أعوام.

- هل أنت راضية عن حياتك؟

- كيف أكون راضية، - قالت ذلك عندما انفتح باب المصعد فدخلته معها. كانت السيدة شيلد تتميز عن الاميركيات اللواتي في المصعد كما تتميز نجمة الصباح في المساء.

- ٢ -

بعد عدة أيام جاءت السيدة شيلد حانوتنا فتقدمت منها في الحال ولكنها سارعت إلى القول:

- لا أرغب في ابتياع أي شيء وانما جئت خصيصاً من أجلك.

- لقد رغبت في مخابرتك ودعوتك لشرب فنجان قهوة عربية ولكن الجرأة خانتني ياسيدتي.

- وهل ثمة مقاه هنا؟ !

- طبعاً.

- فلنذهب اذن، ـ هكذا اقترحت السيدة شيلد بفرح طفولي.

- ذهبنا معاً إلى مقهى- مطعم «استانبول» الذي يقدم قهوة شهية.

وحكت لي السيدة شيلد كيف زار زوجها كثيراً من بلدان الشرق بوصفه تاجراً لريش النعام فمر بالعربية ومصر والحبشة وحتى الهند. وكيف كانت هي فتاة يتيمة مشردة فرآها السيد شيلد وأخذ بيدها وعرض عليها الزواج منه والذهاب إلى أميركا. وانهت كلامها بقولها:

– كنت فقيرة بائسة فقبلت عرض السيد شيلد وها أني زوجته الآن.

فأضفت قائلاً:

– ولكن ما أسعدك ياسيدتي فبعد الفقر واليتم ثروة وجاه و. .

– أرجوك الا تتحدث عن الثروة. . إني احن إلى العربية وإلى لغتي وقومي.

ولمحت في عينيها الحزينتين أشعة تلك الشمس التي تحرق الصحراء العربية، فقالت:

– كانوا يسمونني ابنة الطالب والآن يدعونني المسز شيلد. لقد مرت السنون دون أن أتعود هذه التسمية. ان السيد شيلد يحبني كثيراً لدرجة أنه يسعى لأن يجعل من نييويورك جنة لي، ولكنه عبثاً يحاول ذلك.

وعندما كانت السيدة شيلد تتحدث كان يخيل لي أنها نخلة في صحراء بعيدة تبكي بأسى، كأنها شعاع شمس منسي في الضباب. كنت أشعر أن حزناً عميقاً ممزقاً قد تجسد أمامي. وأضافت السيدة شيلد قائلة :

– لي أمنية واحدة في حياتي وهي أن أتمكن يوماً من السير حافية فوق الرمال المحرقة اللافحة وأن أجلس تحت ظل نخلة في صحرائنا العربية .

– اسمحي لي أن أدعوك ابنة الطالب. .

–ارغب في سماع ذلك لان أذني لم تأنس به منذ سنين طويلة.

- اطلبي من السيد شيلد ارسالك إلى العربية لبضعة شهور.

- انه يخشى عدم رجوعي، لا، لن أوفق في رؤية الرمال المحرقة والنخيل.

كانت نبتة الجنوب الفريدة تعاني صقيع الشمال ورياحه الحديدية.

جلب خادم المقهى قهوة فوضعها على الطاولة وانحنى مبتسماً. فأمسكت ابنة الطالب فنجان القهوة الارجواني برفق شديد. كانت تلمع على اصبعها السمراء جوهرة كبيرة ثمينة تشد نظري اليها رغماً عني فقالت لي مصارحة:

اصدقك القول ان ذرة من رمال العربية لهي أغلى عندي من هذه الجوهرة.

وصدقت صراحتها بايمان عميق.

كانت تشرب قهوتها بلذة وشوق غريبين فقلت لها:

- انك نخلة في هذا الشمال وعبثاً يحاول المستر شيلد أن يحافظ على نضارتها وخضرتها في بلاد الاسمنت والخرسانة.

واغرورقت عينا ابنة الطالب بالدموع البراقة أكثر من الجوهرة الفخورة. ومن خلال عبراتها همست قائلة: اني أكره السيارة وأملها. ليت لي بدلاً منها حصاناً عربياً أضمه وأقبله.

كانت تتكلم بحب الجنوب الدامي وكان كل مانطقت به كلام مغمس بشمس الجنوب الدافئة فقلت لها:

- لقد أحضروا من العربية خيولا أصيلة سيعرضونها في سيرك نيويورك، فلنذهب سوياً ؟

- سأحضر ولكن شرط الا يعلم السيد شيلد بذلك، فهو يعتقد أن السيرك لا يليق بزوجته .

- وكيف سنذهب اذن ؟

- سأكذب عليه، أجل سأكذب. سأقول له اني ذاهبة إلى الاوبرا وهو لا يحب الموسيقى ولن يرافقني.

- حسناً ياسيدتي. اهتفي لي كي نحدد موعداً لنا.

فأمسكت العربية بيدي وشدت عليها بقوة.

- ٣ -

عندما بدأت الخيول العربية تصول وتجول على رمال مسرح السيرك شعت عينا العربية بالنور. كانت تنظر مبهورة مأخوذة بجريها السريع وقفزها العجيب، وبدت محبوسة الأنفاس، فاتحة الأيدي وكأنها تنظر أحب الناس لديها. واقترب منا حصان ونظر الينا بعيون لامعة براقة وكأنه يرقب البعيد فتصل نظراته إلى الآفاق القصية. وفجأة صهل الحصان فكان صوته صدى لآفاق الشرق النارية، صدى تحس فيه شوقاً عارماً وتشعر به نغماً حزيناً كئيباً.

قلت لها:

- ما أشبه قدركما ياابنة الطالب؟

نسيت ابنة الطالب نفسها ومكانها وفجأة نادت الحصان الواقف أمامنا قائلة:

- تعال. تعال إلي يا عزيزي!

وأصابني النداء في فؤادي، وأوقد فيّ شعوراً عميقاً من العطف والحنان على هذه العربية المسكينة. التي أحست أني بت عليماً بمضامين وخفايا روحها. فاتكأت علي وأمسكت يدي وشدت عليها بحرارة وقوة دون أن تحيد بصرها عن الحصان.

وخيل لي أننا جالسان تحت ظل نخلة في الصحراء العربية، عندما صهل الحصان ثانية ووثب في الهواء كطير أسطوري.

بعد انتهاء سباق الخيل رجتني العربية الذهاب إلى صاحبها اطلب منه أن يسمح لها بمغازلة ومناغاة أحد خيوله. وقادونا إلى الخيل، فاحتضنت العربية حصاناً وقبلت عينيه

اللامعتين البراقتين اللتين يسطع فيهما ضوء الشرق، وأغرقت العربية رقبة الحصان الوضاءة بالدموع، تحسست لبدته وقبلت عينيه مئات المرات وغازلته كثيراً لأن الحصان العربي حكيم ويحب الملاطفة، فاحنى بدوره رأسه ومسح ذقنه بكتف العربية ونظر إليها نظرة حزينة طويلة، لم أتمكن من فصل المسكينة عن الحصان الا بشق الأنفس. فخرجنا من السيرك وركبنا في سيارة فأخذت تتمتم والعبرات تنهمر من عينيها:

- اشكرك جداً . . وطاب مساؤك.

- عمت مساء يا ابنة طالب، ـ قلت ذلك واقفلت باب السيارة.

- ٤ -

بعد أيام هتفت لي السيدة شيلد قائلة:

- تعال الينا مساء فزوجي يرغب في التعرف اليك.

- حسناً جداً ، سآتي.

وشعرت من خلال سماعة التلفون بارتياحها واحسست بحرارتها ودفئها عندما قالت:

- لقد ذهبت اليوم إلى مقهى «استانبول» وشربت القهوة. وفي المساء سأحضرها لكم بنفسي.

- بكل سرور وحبور.

- احضر بسرعة وبدون تأخير.

- متى يحضر السيد شيلد ؟

- في السابعة عموماً.

- سآتي في السادسة اذن .

- ما ألطفك ؟

قبل السادسة ببضع دقائق كنت قد وصلت

«مينتهاتن» فتوجهت مباشرة لبيت السيدة شيلد التي فتحت الباب بنفسها وتوقفت كالصنم. فانتظرت على عتبة الباب ولففتها بنظري. لقد كانت ترتدي قميصاً طويلاً شفافاً، وربطت خصرها بزنار عريض.

- مرحباً . .

- مرحباً .

واقفلت الباب من ورائي فاستندت عليه وشرعت تحدق بي طويلاً .

فامتلأت بفرح آثم.

اقتربت منها. . وسكرت بعبيرها ودمها . .

* * *

استقبلني السيد شيلد بأدب جم بعد أن دخل في سين وجيم عن حياتي. وحتى لا يزيدني غرابة من أمره- لأن الأميركيين لا يهتمون بالمسائل الشخصية إلا نادراً - قال :

- لقد تعلمت هذه العادة من الشرق .

فمازحته قائلاً :

- لعلك أمضيت وقتاً طويلاً هناك حتى تعلمت هذه العادات والتقاليد.

وأخذ السيد شيلد يحكي لي بشكل ممل عن رحلاته في الشرق. وكان لا يزال متابعاً حديثه عندما أحضرت العربية القهوة التي وعدتني بها في فناجين نيلية. فقلت لها:

اسمحي لي ياسيدة شيلد أن أدعوك باسمك الحقيقي؟ فقالت:

- كما يحلولك.

وعندها قلت ملاطفاً :

- يا إلهي ما أروع وألذ هذه القهوة!

وابتسمت أسنان بنت الطالب البيضاء مثل نور الصباح من داخل شفتيها السمراوين.

وظهر الارتياح في عيني السيد شيلد الذي قال فرحاً:

- إنها بارعة في كل شيء!

واسترقنا النظر، أنا والعربية، فكانت نظرتنا لافحة لاذعة ومحرقة.

أما السيد شيلد فقد أخرج من درجه رزمة صور كبيرة وقال:

- لقد التقطت هذه الصور في الشرق.

واستمر السيد شيلد ساعتين من الزمان في عرضه وحديثه الممل عن صوره. وحين كانت ذاكرته تخونه يجلب دفتر مذكراته الضخم فيفتحه لاعلامي بتاريخ السنة واليوم والساعة والمكان وهوية الرجل الجالس على الحمار واسم الشارع ثم انه عرض علي كاميرة التصوير «العجيبة جداً» والتي اشتراها من انكلترا وليس من أميركا.

كنت ضجراً جداً حتى أني أخذت في التأفف لكن ضيافة المستر الرائعة لم تسمح لي باظهار مللي وسأمي علناً وصراحة، سيما وأن السيدة شيلد كانت ترجوني بنظراتها أن استمع إليه. لم يكن محكوماً علي بالاستماع فقط وإنما وجب عليّ مجاملته وطلب المزيد من التفاصيل فكنت أقول له مثلاً:

- غير معقول أن تكون في القاهرة في ذلك العام ؟! وفي أي شهر ؟ وكم بقيت هناك ؟!

فكان يجيبني بارتياح كبير وبتفاصيل مملة كريهة تثير التقزز في النفس. ولعل أكثر هذه الحكايات نفوراً هي حكاية الأهرامات. حيث بدأ يقص حكايتها بشكل بدائي عفوي نجده حتى في أقدم كتاب عن تاريخ الأمم، حكاية عرفها ومر بها كل إنسان تخرج من الثانوية.

لقد فهمت أن المستر شيلد ليس أبلهاً لهذه الدرجة وإنما كان يحاول تسليتي لفرط ضيافته. وعلى كل حال، كنت أشعربارتياح عميق لأن الاميركيين إذا لم يحبوا ضيفاً ما اشعروه بذلك في الحال، وهذا ما كنت أحبه كثيراً، لأنه من الخير أن يطرد الانسان من البيت على أن يتمتع بضيافة كاذبة مزورة.

وأخيراً، أعلنت عن رغبتي بالانصراف في الحادية عشرة ليلاً، لأني تعبت جداً من الانهاك الشديد. والقيت نظرة أخيرة على العربية فوجدتها مكدودة العينين.

لم يبغ المستر شيلد افلاتي فاقترح ايصالي بسيارته الخاصة. فقلت انه لا داعي لازعاجك في مثل هذه الساعة، لكنه أصر على رأيه فوافقت لأن ابنة الطالب رجتني بنظراتها إلا أرفض اقتراح زوجها الكريم. وودعتني العربية قرب غرفة الضيافة فنزلت مع المستر شيلد إلى خلفية المنزل حيث مرآب سيارته.

كان شيلد صامتاً في الطريق صمتاً جعلني أتيقن أن ذلك الثرثار قد أنهى ما في جعبته من كلام. وكان يقود السيارة بسرعة جنونية حتى شعرت بنفسي طائراً، مما اضطرني لأن أذكره بقوانين المرور في نيويورك. فقال فجأة:

- هل تتكلم عن قوانين هذه البلاد؟

وكان صوته غريباً جداً، وكأنه ليس ذلك الانسان الذي كان يلاطفني قبل قليل. لم يكن ينظر إلي حين وضع سيكاراً في فمه وأخذ يزيد من سرعة السيارة تدريجياً. لم أعره انتباهاً في بادىء الأمر، وفجأة ظهرت في رأسي فكرة تقول لعله فقد توازنه العقلي. وحاولت اختباره فسألته قائلاً:

- هل هناك من داع لدفع أية غرامة اضافية يا مستر شيلد؟

فأجابني بلهجة غير مفهومة:

- القانون شيء جميل وكذا دفع غرامته.

وسكت على مضض مقتنعاً بأن شرطياً ما سيوقف السيارة ويكتب ضبطاً وبذلك تسنح لي الفرصة لتوديع المستر شيلد.

- هل تعرف قوانين هذه البلاد جيداً ؟

سألني المستر شيلد بعد سكوت طويل وهو يشد على أسنانه.

فأجبته قائلاً:

- اعرفها قليلاً.

وفجأة شد المستر شيلد فرامل سيارته فحطم عظامها. فظننت أن عطلاً ما قد حل بها. فقذفت بنفسي خارجها وكذلك المستر شيلد الذي اتجه نحوي وقال بلهجة درامية محتقرة.

- أتعرف قوانين البلاد جيداً ؟

كنا تحت مصباح كهربائي مكنني من رؤية المستر شيلد كلية. كانت نظراته شزراء وأوداجه محقونة بالدم، وقد صر على أسنانه فشعرت أنه سيهاجمني وأن هذا المكان سيكون نهاية لأحدنا. وأحسست أن قلبي قد تضخم وأن موجة عارمة من الغضب قد لطمت رأسي. كان سبب حدتي وهياجي أن الرجل الواقف أمامي يعتبر نفسه «محلياً متميزاً» ويعتبرني غريباً أجنبياً، فأمرت ذلك المتميز القذر قائلاً:

- غيّر لهجتك معي .

- أجب بسرعة. هل تعرف قوانين بلادنا ؟

- قلت لك أعرفها قليلاً .

- ذلك لا يكفي. . ويجب عليك أن تلم بها كلية، وبالأخص قوانين الأخلاق، وأن لم تتعلمها فهذا سوف يلقنك اياها - ووجّه إلي مسدساً أخرجه من جيبه.

- أنا لن أكون وصياً على شرفك.

- بل ستكون كذلك .

-أخبرني بنيتك ؟

- لتكن آخر مرة ترى فيها زوجتي. لقد راعيت شعور زوجتي فقط عندما لم أقتلك في منزلي.

- هذا كل ماتود قوله؟

- ذلك هو الآن.

ووضع المسدس في جيبه وأضاف قائلاً :

- وداعاً. . .

- وداعاً. . .

وابتعد المستر شيلد بسيارته. أما أنا فقد تمشيت نحو محطة الميترو.

* * *

كانت تؤرقني طوال الليل فكرة واحدة وهي هل أعتبر المستر شيلد نفسه بطلاً؟

- ٥ -

في العاشرة من صباح اليوم التالي توقف أمامي ساعي المتجر وقدم إلي بطاقة زيارة صاحب المتجر الذي كتب عليها
- تفضل إلى مكتبي.

فسألت الصبي قائلاً:

- وأين هو الآن؟

- في المكتب.

استقبلني التاجر بحفاوة وقدم لي سيكاراً ومن ثم بدا هجومه قائلاً:

- لقد أسأت إلى أكبر زبن متجرنا.

- لا أذكر أني جافيت أحداً قط.

- لقد جرحت المستر شيلد، تاجر ريش النعام الكبير.

- اني لم أسيء إليه أبداً. بل على العكس، فقد خدمته وزوجه على أكمل وجه، وهما مرتاحان جداً من السجادة التي اشترياها.

- لا أعني ذلك. وإنما أقصد مغازلتك لزوجته.

- ولكن ما علاقة هذا بالاساءة إلى زبن المحل؟ !

واعتدل صاحب المتجر في كرسيه وتابع قائلاً:

- أيها السيد المحترم، لقد تعرفت على السيد شيلد في حانوت السجاد الشرقي، أي أنكما تعارفتما بواسطة تجارتنا ولذلك فأنتما مجبران بالحفاظ على قوانيننا الأخلاقية.

وقررت الإنتباه بسرعة فأجبته قائلاً:

- ان أخلاقكم ليست حتمية والزامية بالنسبة لي ياسيدي، لأني حر في حياتي الشخصية.

يبدو أن محدثي لم يسمع جواباً كهذا طوال حياته، لأنه كان مشدوهاً من ردي فقال:

- معنى ذلك أنه بامكانك أن تشعر بحرية أكمل وأتم.

- منذ الآن يا حضرة. .

واحنى رأسه على الطاولة وكتب إلى المحاسبة لتدفع إلي أجر يومين وأسبوعاً بمناسبة الطرد. فأخرجت العقد من جيبي وقدمته له قائلاً:

- اعذرني ياسيدي فلدي عقد معكم.

- ان عقداً كهذا يعد حماقة مع إنسان مثلك، - وضغط زراً كهربائياً لدعوة مدير المتجر، فقال له :

- لماذا عقدت معه اتفاقاً كهذا؟!

- لا يمكننا فعل غير ذلك مع اختصاصي مثله.

- اوه . . نعم ذلك صحيح.!

كان السيد من اولئك الناس الذين لا يفقهون أشياء

كثيرة ولكنه يفهم أي قضية تجارية في لمح البصر.

وتسلمت بموجب الاتفاق أجر الأسابيع التالية لمدة خمسة شهور. وبعد نصف ساعة غادرت ذلك المتجر إلى الأبد...

- ٦ -

كانت فكرة رؤية ابنة الطالب تؤرقني. اذ من الخطر أن أتلفن لها فلربما رفع السماعة المستر شيلد وشك بها فأكون سبباً في نزاع عائلي جديد. واتصلت ببائع أرمني يعمل في متجر السجاد الشرقي ورجوته أن يحيطني علماً اذا سألت السيدة شيلد عني، فوعدني بذلك.

بعد أيام واجهت السيدة شيلد في مقهى مطعم «استانبول». فقررنا الذهاب إلى (المطعم الصيني). وعندما انفردنا في غرفة خاصة منه تبين لي أنها فوجئت بطردي من المتجر. وأنه لا علم لها بما دار بيني وبين زوجها الذي لم يلمح لها بأي شيء عني، لا بل وحين آب إلى البيت سألته ابنة الطالب قائلة:

- هل أوصلته إلى البيت؟

فأجابها قائلاً:

- نعم أوصلته. انه سيد محترم جداً.

كان السيد شيلد يفكر بأن للقضية نهاية قاطعة. وبعد أن عرفت العربية الحقيقة كاملة امتلأت بغضب عميق وقالت:

- كنت أظن أني في بلاد متحضرة. هكذا يقال في العربية، حيث يعتبرون المرأة ملكية خاصة وبضاعة، لكن ذات الشيء موجود عندنا في أميركا.

فأضفت قائلاً:

- ان المدنية قناع يا ابنة الطالب. فالمرأة بضاعة إن

كانت هنا أم هناك. في الشرق المرأة بضاعة «يدوية» أما هنا فهي «آلية»، اي أن سلعة كهذه في الشرق أغلى منها ههنا.

ورجوت العربية ألا تتفوه بشيء لزوجها عما دار بيننا من حديث. فأجابت حازمة:

- انه لم يعد زوجي. . كل ما هنالك إني أمثل معه حتى أتحرر منه.

وهدأت عيناها وتألقتا ببريق امرأة جنوبية ثم همست قائلة:

- انك واحة في قلب هذه الصحراء.

- وأنت ينبوع قرورفي تلك الواحة .

ونظرت إلي بعينين براقتين مشوقتين.

وتعانقنا مثل أغصان شجرة اللبلاب.

ساعتئذ كان المستر شيلد تاجر ريش النعام يبيع بضاعته في محلات «برودي» الكبيرة. يبيع غاشاً الزبائن بما يطيب له من جشع وطمع.

كانت العربية تذرف دموعها شآبيب في كل مرة تعود فيها إلى منزل تاجر ريش النعام.

وفي أحد الأيام قالت لي شيئاً غريباً وقد أصرت اصراراً أبله:

- لا أعتقد أن شمساً واحدة تنير كوكبنا الأرضي. سيأتي يوم يقرر العلماء فيه أن الشمس التي تنير النصف الشرقي تختلف عن التي تنير الجزء الغربي من أرضنا.

- انها ذات الشمس يا ابنة الطالب وكل ما هنالك أن الحياة هي التي تغير الشمس.ان الوسط الاجتماعي هو الذي يجعل الشمس أكثر أو أقل انارة وحرارة. فعندما ترقبين الشمس من كوخ ما تبدو لك باهتة أكثر مما تنظرينها من القصر.

لم تقتنع العربية بذلك بل أصرت على رأيها بعناد

كعناد الأطفال .

كانت العربية مشتاقة إلى فقرها ويتمها. . . إلى ذلك الزمان الذي كانت فيه فقيرة ولكن حرة طليقة.

عندما كانت تبتعد عني كنت أشعر بفراغ داخل قلبي الذي يبدو مثل موقد خامد .وعندما كانت تأتي في الموعد المحدد كنت أتخيلها صباحاً ينبلج وشعاعاً من الآفاق الشرقية.

(٨)

التقيت بالعربية في ميعادنا بالضبط. كانت تحمل حقيبة في يدها وبدا القلق ظاهراً على محياها ولكنها ازدادت هدوءاً حين رأتني فقالت:

- لم يحدث قط أن تأخرت علي ولكني لا أدري سبباً لقلقي.

- ما بك ؟

- اني مسافرة .

- إلى أين ؟

- الي العربية .

- وأنّى لك ذلك يافرس الصحراء ؟

- اني جادة فيما أقول. لقد اشتريت تذكرة السفر أرجوك أن تساعدني .

وحاولت عبثاً اقناعها بالبقاء في أميركا وبالطلاق من المستر شيلد فأجابتني بحزم :

- انه وحش كاسر. لا ، لايمكن أن أبقى في بلاد كهذه .

في ذلك الحين كان تاجر ريش النعام الذي يدعو زوجته تحبباً « ريشة الطاووس » يفتش في كل مكان عن زوجته.

وفي طريقنا إلى محل الرهونات قالت لي:

- لقد أخذت واحدة من جواهري وزوجاً من الثياب حتى أتمكن من الوصول إلى العربية. لقد تركت كل ما أملكه في البيت.

وأخرجت ابنة الطالب خاتمها ووضعته بحبور أمام طاولة الجواهري المكار الذي فحص الجوهرة بمكبرته ثم وزنها وقال وهو يخلع نظارته:

- بمقدوري الاحتفاظ بها ستة أشهر بسعر ألف دولار وبفائدة قدرها خمسة في المائة.

- وان رغبت في بيعها؟

وفجأة وضع الرجل نظارته وشرع يفحص ويمحص الجوهرة بالعدسة ثم وزنها ثانية وقال:

سأدفع لك ١٥٠٠ دولار.

- هات المبلغ.

ووضع الجواهري نظارته ثالثة فقلبها بين يديه وامتحنها طويلا ثم فرك يديه فرحاً وقام فأخرج من خزانته ١٥٠٠ دولار.

خرجنا من محل الرهونات باتجاه المرفأ. كانت العربية قد قطعت تذكرة بالباخرة الفرنسية «له تورين». وعندما بدا البحر أمامنا أشرقت عينا العربية سروراً وزهواً وكأن صوراً ما ترتسم أمام مخيلتها.

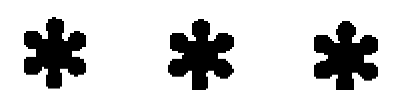
نظرت العربية إلي من خلال دموعها الرقراقة وهمست قائلة:

- استودعكم الله. . .

- مع ألف سلامة يا ابنة الطالب. . أرجوك أن تبلغي سلامي إلى الشرق الحبيب.

كانت السفينة تمخر عباب الأطلسي ولبنة الطالب طائرة إلى الشرق.

عند ذاك كان المستر شيلد تاجر ريش النعام يبيع زبائنه في محلات «برودوي» الكبيرة دون أن يدري أنه فقد أثمن وأغلى مايسميه «بضاعة».



اصـــادور وكليوبطــرة

واهان تيوتوفينتس

اشتريت ملحق جريدة «نيويورك ـ بوست» وتابعت طريقي حتى ألفيت نفسي أمام المطعم الشرقي «القسطنطينية». كان في انتظاري على مدرج المطعم واحد من اتراب الصبا في بلدي.

– أصادور. . .

وتعانقنا طويلا دون أن ننبس ببنت شفة. قبلني اصادور وانسابت الدموع متدحرجة على خديه.

* * *

كان اصادور وأهله يقطنون في الشارع الخلفي لدارنا في الوطن السليب ، كان والده خبازاً، وكانت أمه تشتغل بالخياطة.

كان اصادور بالكاد يغطي عريه بأسمال بالية تقريباً.

كانت علائم البؤس والعذاب محفورة على وجهه. أمسكت بيده ودلفنا معاً الى المقهى ، حيث اتخذنا طاولة منعزلة. بدا لي صديق الطفولة مارداً عظيم الجبروت، عريض المنكبين، طويل القامة، معافى البدن، ناري العينين، أشقر الشعر والحواجب.لقد تجسدت في سيمائه كل الملامح التي تتصف بها الشخصيات الأسطورية، باستثناء اليأس المعشعش في مقلتيه: كانت نظرته غائرة حاسرة. ولكنه عندما ينظر إلي مبتسماً، تلمع عيناه لمعاناً براقاً شبيهاً بعيني المهر الجامح.

كان قد تناهى إلى سمعي، ان اصادور وصل أميركا، بعد أن قضى سنين طويلة في مصر، ولكنهاالمرة الأولى التي ألقاه فيها. قال أصادور:

-لم أكن أدري انك في نيويورك. علمت بذلك البارحة فقط. لو قدر لي الالمام بوجودك في هذا البلد لما كنت عانيت ماعانيته من بؤس ويأس.

قال ذلك وارتمى بجسده الضخم على الكرسي، مسلماً نفسه للراحة.

- كيف اتفق ولم تجدني طوال هذا الوقت؟

- لقد أضعت عنوانك وعنوان أخيك يوم كنت في مصر . وهذه المدينة الملعونة كبيرة لدرجة أنك. . .

- ماذا فعلت؟

- ماذا أفعل؟ الا ترى حالي؟ كنت أدرس حالة الفقر واتعلم كيف يصل الناس إلى ذروة المرارة، حيث التيه والضياع.

- بالعكس، فالناس يجدون أنفسهم في قمة المرارة ولا يفقدونها. فالبؤس مدرسة حقيقية ومحك للرجال. . .

قاطعني اصادرو مصراً:

- بئس هذه المدرسة.

- لم تقول هذا؟ يجب أن تكون المصائب مهمازاً لعزيمة

الرجل في تذليل الصعاب، فليس على الانسان أن ينسى أن المصائب تضع على هامته اكليلاً لا يناله بغيرها. ولا يفوز بهذا الاكليل الا من يصبر عند النوائب، ويتجلد عند الشدائد.

- نعمَ ماتقوله ياصاحبي. كنت حتى اليوم أجابه المتاعب والمشاق، محافظاً على شرفي وكرامتي، ولكني لا أدري ما سيحدث بعد الآن.

وحدقت في ناظريه طويلاً وشعرت أن نظراتي أحرقت طرفه، فامال رأسه طارقاً الى الأرض. قلت له:

- يجب علينا ألاّ نفقد كرامتنا أبداً. لقد قاسيت مرارة الحنظل، ولا زلت أعاني بعض الضيق، ولكني كنت وسأظل أبداً أحافظ على كل عظيم ونبيل في الروح الانسانية.

- أية كرامة؟ وأي نبل؟! فالسفهاء والأوغاد الذين يسرقون وينهبون، ويبتزون ويهينون الناس، هم الذين ينعمون بخيرات هذه الدنيا.

- أجل، أجل، أنت محق تماماً فهم الذين ينعمون بالأطاييب، ولكن شتان بيننا وبين اولئك السفلة الأوغاد، فنحن من الناس الكادحين بعرق جبينهم، الباحثين عن العمل الشريف.

- أي عمل ياعزيزي؟ فنحن محرومون حتى من هذا الحق!

لقد امتلأ صدر اصادور بالحزن والكآبة.

وقررت في سري أن آخذه معي إلى غرفتي. فأقدم له ما تيسر من المتطلبات الضرورية، عله يجد في ذلك بعض العزاء والترويح عن كربة النفس. وبعد الغداء قلت له:

- تعال معي يا اصادور، اسكن في غرفتي حتى تجد عملاً يناسبك.

- آه من هذا العمل اللعين! لا عمل في هذه المدينة الضخمة... لعنة الله على هذه السيارات، فلولاها كنت اصنع

عربة اجرها بنفسي وايسر أموري، جسدي قوى كالحصان -والحمد لله- ولكنها الالة تسلب كل حقوق الانسان.

- هون عليك يا صاح! سنجد لك عملا ما. المهم في الأمر ان تجد مأوى لك، وها انتذا تعيش في غرفتي ريثما نؤمن لك مسكنا.. فربك كريم.

- كنت قد بحثت عنك طويلاً، ليقيني بأنك خير من يقوم بواجب الصداقة.

- ولكن كيف حال الأهل: الوالد والوالدة؟

- الوالدة انتقلت إلى رحمة الله. والوالد باع الفرن وهو يشتغل الآن لحساب الآخرين، غارق في الديون حتى ذقنه.

- ساعطيك ما تيسر لي من مال ترسله لأبيك.

ولم يتمالك اصادور نفسه فانتصب وتقدم مني معانقا ايلي ثم قبلني.

كانت قبلة اصادور صادقة كقبلة الأم لطفلها.

وعزمنا التوجه إلى البيت. اقترحت عليه ركوب التاكسي فقال:

- أفضل الذهاب بالمترو.

ولكن كنت قد اوقفت سيارة فدخلناها على عجل.

كان اصادور منكس الرأس، سألته عن سبب ذلك، فقال:

- إني امقت أضواء هذه المدينة.

- حقا أنها مدينة عظيمة الثراء والرخاء، ولكنها باردة كالحة خانقة.

- لم يسبق لي ان كرهت الغنى والثروة إلى هذا الحد. أنت أدرى باني كنت شبه معدم في الوطن أيضاً، ولكني اليوم فقط أدركت معنى الفقر، ومغزى الغنى.

وصلنا غرفتي في ناحية يروكلن. اضرمنا نار الموقد وجلسنا أمامه. كان الضوء الأحمر المنبثق عن جمر الفحم

الحجري يضيف القا ولمعانا عظيمين على نظرات اصادور، الذي بادر الحديث متأوها:

- آه، آه، لقد عشت أجمل أيام حياتي في مصر!

- لماذا مكثت طويلاً هناك وأنت في طريقك إلى أميركا؟

- هكذا شاءت الأقدار. ولكني كنت آمل في البقاء هناك حتى الأبد.

- هل كانت أشغالك جيدة ؟

- جيدة جداً !

* * *

وقص علي اصادور حكايته قائلاً :

- كتب علي الانتظار في الاسكندرية ريثما استقل باخرة ما مسافرة إلى أميركا. وبما أن الفنادق غالية الثمن، قررت استئجار غرفة في أحد البيوت، كي أوفر مالي. استأجرت غرفة ومكثت فيها ثلاثة أعوام كاملة ، بسبب علاقة الحب بيني وبين سيدة الدار. كانت ربة البيت مصرية سمراء هيفاء تتحدث العربية بطلاوة أحلي من الشهد. دعوتها كليوبطرة منذ أول لحظة، رغم أن المرأة لم تكن تعرف شيئاً عنها. ولما أخبرتها ببعض ماحفظته من التاريخ عن كليوبطرة سألتني:

- ماهو وجه الشبه بيني وبين ابنة بلدي كليوبطرة هذه؟!

- أنت عظيمة الشبه بها، رغم أنها كانت غانية بيضاء الجسد، ولكن سمرة روحها مثل سمارك هذا الملوح بأشعة شمس الجنوب.

كانت كليوبطرة متزوجة من رجل يوناني يبيع القهوة.

كان زوجها كرشاً شرهاً شديد الشهية للطعام، مشغولاً دوماً بـرواد المقـهى. قـبل دخـولي المفـاجىء لهـذا البـيت، كـانت كليوبطرة تعيش وحيدة كشجرة فريدة في صحراء نائية. ولما استـفسرت منها عن غرفـة، شعت عيناها السوداويتان أملاً وحـبـوراً. ولما افـتـر ثغرها عن ابتـسـامـة حلوة، خيل لي أن أوراق وردة بيضاء قد تطايرت من عينيها النجلاويتين، وأن قبساً من النور بدد ظلمة ليل غيهب.

أجابتني كليوبطرة والفرح يتراقص في صدرها:

- نحن لا نؤجر غرفنا عادة، ولكنا سنؤمن لك غرفة!

كـانت الكلمـات العـربـيـة اللطيـفـة تتـراقص من خـلال أسنانها البيضاء الشبيهة باللآلىء، كما يتراقص اللجين فوق صفحة الماء.

مـذاك بقـيت في تلك الدار أعـوامـاً ثلاثة طوالاً، عـبـر خلالها الكثـير الكثـير من البواخر دون أن أعير التفاتة لأية منهـا. حللت عند المرأة السـمـراء الحارقـة الكاوية. كان ظهـر كليـوباطرة غضـاً بضـاً ملتـوياً في حـركاتـه وسكناته مثل نهر النيل المنحدر المتلوى كالحية الرقطاء. كانت أسنانها ناصعة البياض كالثلج ، ولثتها الحمراء كباقة ورد فاقعة الاحمرار. كانت كليوبطرة تعانقني كما تعانق النار عود الحطب. فكنت أتذوق السعادة في حلاوة شفتيها العسليتي المذاق. ولما ولجت غرفتي أول مرة، شعرت أن حياتي امتلأت سعادة وغبطة كما تمتلىء الشمس عند الشروق. كانت تحبني بنظراتها الرانية وروحها الملتاعة وشفاهها الحارقة. كل ذلك في جو من السكون يعادل في لذته الاف - الاف الأغاني. وفي كل يوم كان يقترب فيه موعد أوبة بعلها، كانت تودعني بنظرات ملتهفة والدموع في مآقيها. وعندما كانت تتسلل إلى غرفتي تحت جنح الليل، كنت أعـيش لحظة العـمـر، ورعـشـة الروح كـعاشق الموسـيقى الذي يترنم بسماع السمفونية التي يحب ويعشق.

لم يتابع اصادور حديثة أكثر من ذلك. علت وجهه موجة من الأسى والحزن، فأشاح بوجهه شطر الموقد وغص بالجرعة

فسألته:

– ولم جئت إلى أميركا؟ فالنساء هنا لا يجدن إلى مثل هذا الحب سبيلا. المرأة هنا تحب وفقاً لمعايير معينة وقواعد محددة. والناس هنا جامدون باردون كالحديد، وقوانينهم صارمة كالحديد.

وبعد أن هدأ قليلاً أكد متسائلاً:

– لا وجود للشمس أيضاً، فأين هي شمس هذه البلاد حقاً؟!

– الشمس موجودة طبعاً، ولكن أنى لك رؤيتها. لو تمكنت من التحرر من هذه الحواجز العالية والخروج إلى أحضان الطبيعة لرأيت شموساً عديدة كالشمس الجنوبية في الصحراء العربية. أجل السدود الشاهقة هي التي تعيق حتى شعاع الشمس، شعاع الأمل.

– والنجوم كثيرة في قبة السماء. . . ولكن من الأفضل لنا الحديث عن الخبز، فقد اشتقت كثيراً إلى «العيش المصري»، ونجوم مصر التي لا تحصى ولا تعد.

وبعد هنيهة صمت سألته مجدداً:

– لم تقل لي، لماذا أتيت إلى أميركا؟

– ماذا كان علي أن أفعل غير هذا. لقد عرف زوج كليوبطرة بعلاقتنا فاشتكى الى الجهات المسئولة التي طردتني من بلاد الأهرام. وهكذا، فرض الزوج المتخم الاقامة الجبرية على كليوبطرة فلم تعد تغادر الدار أبداً، حتى أني لم أجد سبيلاً لرؤيتها قبل سفري. آواه. . لا زلت أشعر بحرارة ساعديها الحارقتين، وما برحت ارنو إلى مقلتيها المليئتين بآلاف الصور والحكايا التي تبز في روعتها وجلالها تاريخ مصر العريق في الحضارة.

وبعد صمت طويل مكبوت رفع اصادور ساعديه القويتين عالياً وقال:

– لا بديل عن هذه السواعد. هي وحدها الجديرة

بالتقدير، سأذهب لأداء أي عمل يتطلب قوة جسدية، يعوضني عن بؤسي ويأسي. ليتني أوفق في هذا المسعى. هذا هو ما أرجوه من هذا العالم المليء بالسموم، والذي أصبح مجرد ذكرى لا معنى ولا مغزى لها. فكليوبطرة عاشت وأحبت قبل عصور متناهية في القدم، بينما لم أعايش أنا سوى خيالها وظلها.

أبان الحديث، كان اصادور يعض على شفتيه المحمرتين وقد استبدت به شهوة الجسد. كان مثقلاً بحمل لا طاقة له به. فحين كان يتحدث عن تلك المصرية، كان يخيل لي أن ناراً لافحة تحرق روحه المعذبة، فقلت له:

- كفاك يا اصادور. يجب عليك أن تصحو من كابوس الجنوب هذا.

بيد أن اصادور العملاق كان أسير شهوة الجسد الجامحة، فاقد الإرادة، يرنو إلي بعيون مسحورة. كانت روحه مهشمة تماماً. كنت أتصوره صنماً محطماً لا قيمة له، كان أقل من لا.

ولكني صممت أن أجمع شظايا ذلك الصنم لأصنع منه انساناً ينبض قلبه بشغف الحياة، فالقلب كالشجرة لا يسيل ماؤها الا من جراحها.

* * *

مرت الأعوام وكرت دون أن ينجح اصادور في سعيه الدائب للعثور على عمل ما. كنت دائماً أحاول الترويح عن كربته الناجمة عن كل النكسات والاخفاقات التي أصابته. لكن اصادور ازداد عصبية وتشنجاً مع كر الأيام ومال رويداً رويداً إلى اليأس والقنوط واستبد به التشاؤم. وذات مرة قال:

- يجب اتباع سبيل الرياء والنفاق في هذا العالم، وإلا



فاني لن أجد مخرجاً من هذه الورطة.

وسخرت منه لأنه لم يجد مخرجاً غير هذا فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار. وشاءت الأقدار العمياء ألا أتمكن من تدبير أية وظيفة له. لقد رجوت كل أصدقائي الاميركيين أن يجدوا له أي عمل كان. لكن باءت كل محاولاتي بالفشل الذريع. كان كل من يراه يرتاعه الذعر والهلع من شرر عينيه وضخامة جثته. وفي احدى المرات قال لي صديقي الاميركي محرجاً:

- انه فوضوي حتماً.

اثرّ الاخفاق تأثيراً سلبياً شديداً في نفس اصادور، الذي أسلم ذاته للصمت الممزوج بالقلق والضياع والمعاناة التي كانت تظهر في عينيه العميقتين. وذات يوم قال لي اصادور:

- لا تفكر بي بعد اليوم، فاني سأتغلب على محنتي خلال أيام.

- ماذا ستفعل؟

- سترى قريباً ما أنوي القيام به. لقد وجدت سبيلاً سهلاً جداً، سأطلعك عليه بعد أيام.

هذا الكلام لم يثر في داخلي الحيرة والدهشة فقط، بل والسخرية.

- ان كان هناك ثمة سبيل على هذا القدر من السهولة، فلماذا لم تأخذ به حتى اليوم ؟ لماذا جعلت نفسك فريسة للأوهام واليأس والشؤم؟!

قال اصادور بالحاح:

- طريقي يسير بعد أن تجده ، فالاهتداء إليه ليس بالأمر اليسير. سأخرج قريباً من هذه المحنة وسترى ذلك بأم عينيك - ان شاء الله.

وبالفعل، عاد اصادور إلى البيت ذات يوم بلباس

كهنوتي، معتمراً قبعة عالية. كان حليق الذقن، نظيف المظهر وقد تبدلت حركاته وسكناته.

- ماهذا ؟

وبعد أن وضع قبعته على الطاولة أجاب بصوت حازم:

- لقد أصبحت واعظاً ، وسأبشر بعد اليوم بالدين المسيحي.

وبدون أن أجيبه حدقت طويلاً في عينيه فلاحظت بعض الغشاوة في أعماقهما. لقد فقد اصادور ذلك الشاب الريفي الساذج سحر العيون الصافية الجذابة، كانت نظرته شبيهة بالماء القراح الممزوج بمسحوق أبيض. وبعد صمت قصير سألته:

- هل تؤمن بالمسيحية؟!

- لا أؤمن بأي شيء. كل ما أعرفه أنه يجب العيش دون تسول.

- أما كنت تعيش معي ؟ هل تعتبر هذا تسولاً؟!

- كلا أبداً. ذلك ليس تسولاً، ولكن سيأتي يوم أشعر فيه اني عالة عليك، فكيف أطيق نفسي ؟ سأكذب وأخادع هذا الشعب، وألهب في نفسه الحمية بترهات لا أؤمن بها شخصياً.

- ولكن الشعب ليس وحدة متجانسة، فهناك فئات اجتماعية متباينة من حيث المظهر والجوهر، ويجب علينا التمييز فيما بينها.

بعد أيام معدودة أعاد لي أصادور ماعليه من دين، اذ تسلم من الكنيسة سلفة مالية كبيرة. وانتقل اصادور إلى شقة جديدة ذات حمام وغرفة للاستقبال وأخرى للنوم، فضلا عن مكتب خاص.

انقضى زمن طويل لم أر فيه أصادور، اذ لم أك أذهب

إلى الكنيسة. وخلصت إلى استنتاج مفاده ان اصادور قد أسلم روحه للتجارة والنفاق، وأصبح واحداً من أشد سدنة الكهنوت نفاقاً ورياء.

بعد تصرم أشهر معدودة جاء اصادور إلي. كان حسن الهندام، صحيح البدن، لطيف المنظر، ترك في نفسي الانطباع الذي يتركه الثور الفحل القوي.اذ كان مظهره يدل على مافي باطنه من الشهوة والمجون. كانت شفتاه متورمتين، وجفونه محقونة بالدم. كانت ثيابه معطرة بروائح تثير في النفس الاشمئزاز، لا بل الغثيان. وبعد أن تبادلنا بضعة تعابير مألوفة سألته:

- ما هو عملك يا اصادور ؟!

- اني مشغول بالكتاب المقدس والنساء.

- واي جامع بين الاثنين ؟!

- آه، العلاقة وثيقة ياصاحبي. فأنا حين أبشر الناس بقولي «احبوا بعضكم البعض»، فان النساء الثريات يدركن حق الادراك مغزى هذه العبارة. انهن غارقات في بحر من الثروات يفرض عليهن التمتع بملذات هذه الحياة. أنا أبشر بالرب السماوي لساعات معدودة في الاسبوع، ثم أطوف البيوت لأهتم بالأمور الدنيوية. فهؤلاء النسوة المهتمون بأمور هذه الدنيا الفانية، لا بد لهن الا يغفلن أمور العالم السماوي.

- ألا يوجد غير النساء على هذه الأرض؟!

- لا يوجد غيرهن.

فأجبته بعنف ظاهر:

- كان حرياً بك أن تقول هناك أبقار وثيران.

- صدقت القول، وها أنذا أقوم بدور الثور.

صمت كلانا لبرهة غير قصيرة. فالمجون يثير في نفسي شعورالحقد والغضب. وقررت ألاّ أتفوه بأية كلمة، كي يتفضل

أصادور بتركي وحيداً، ولكنه قطع حبل الصمت:

– لقد برح الشوق بي إلى كليوبطرة. اني أعطش من رمل اليها. فما من امرأة في هذه البلاد قادرة على اطفاء ظمأي وحرقة قلبي. أعرف انك غاضب علي، وأني أثير حفيظتك واشمئزازك، وأنت محق تماماً. فأنا أعيش حياة كريهة مقززة، ولم يبق في داخلي وشل من انسانية. ومع كل ذلك لا يسعني الا أن أقول لك أني أحب كليوبطرة. سأذهب اليها حتى لو أسلمني زوجها إلى المشنقة. سأسافر إلى مصر رغم أن الشك يراودني حول مسألة التمكن من رؤيتها. وأن تعسر ذلك، فاني سأقنع بالعيش في المدينة التي تحويها. عندئذ فقط أكفر عن ذنوبي.

وأيقنت أن عيني هذا المارد اللتين كانتا قبل هنيهة تشعان شهوة وشبقاً، صارتا كعيني طفل وادع بريء. فأيقظ في نفسي مشاعر التعاطف والحنان اقتربت منه وسألته:

– يا لله، كم تحب هذه المصرية؟

لم يحر اصادور جواباً واجهش بالبكاء.

* * *

زارني اصادور مجدداً بعد انقضاء شهر واحد. كان يتراقص كالطفل ويقوم بحركات لا معنى لها كتلك التي يقوم بها من طار صوابه، أو كمن صعقه فرح مفاجيء.

أخيراً هدأ اصادور. ساد صمت غير مريح. حدق بي طويلاً ثم عانقني طالباً العفو:

– أرجوك ألاّ تسخر مني وألاّ تصفعني. فالمرارة قد عشعشت في صدري، أتوسل إليك ألا تجعل من روحي طعماً للنار. فشرور هذه الدنيا هي التي دفعتني لارتكاب هذه المآثم.

– ومن يرتكب اثماً دون سبب؟ ومن يلقي نفسه في

العار ويتمرغ في الأوحال دون علة؟

- سأبرأ عاجلاً من هذه الآثام. سأذهب عما قريب.

- إلى أين؟

- إلى مصر.

- نهائياً؟

- من يدري، ربما نهائياً. . .

ساد صمت قصير قطع اصادور حبله:

- اني موفد من قبل الكنيسة لزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين.

- الكنيسة توفدك أنت؟!

- أجل.

- لماذا؟

- كي أطلع على الأماكن المقدسة فازداد إيماناً وإلهاماً، وأكتسب مايلزم من الخبرة للمارسة مواعظي الدينية. فهم يؤكدون على أن كل واعظ يجب أن يرى الأماكن المقدسة التي تنقل وعاش فيها السيد المسيح. ولكني أصارحك بأني سأذهب إلى مصر.

- ألن تذهب إلى القدس؟!

- من يدري، قد أذهب؟

خيم السكون على الغرفة، وكأنه لم يبق مانتحدث فيه.

- من المحتمل أن أبقى في مصر. ان عدت، سأخبرهم بأني سافرت إلى الأماكن المقدسة فتجولت وشاهدت كل المقدسات الموجودة فيها. وان لم أعد سيكون كل شيء على مايرام.

- هل تدخن سيجاراً؟

- شكراً.

قال ذلك وقد أخذ سيجاراً من العلبة ثم ارتمى في الأريكة الوثيرة وشرع يدخن السيجار مثرثراً:

- سأرى كليوبطرة، سأتجول في الشوارع التي تمر بها فازداد وحياً وإلهاماً، أكثر مما يقدمه لي جميع القديسين على الأرض، وان كان نفاقي عاجزاً عن تيسير هذا القدر البسيط من السعادة، فاني سألعن النفاق أيضاً.

وبعد لحظة انقطاع تابع اصادور قائلاً:

- لقد أشرقت الشمس الآن في مصر: تستيقظ حبيبتي كليوبطرة من نومها وتتمطى في سريرها مسدلة شعرها المرسل على منكبيها، وأحلام الليل لم تبرح بعد مقلتيها... ابتعد أيها الوغد...

وللحال انتصب اصادور مذعوراً وطفق يحدق كالمعتوه في الفراغ.

انقطعت عن قراءة الجريدة ورفعت رأسي متسائلاً:

- ماذا دهاك يا أصادور؟

- لا شيء... كنت أفكر في كليوبطرة فخيل لي أن زوجها قد...

- هَه.. هَه.. هَه... هل تريد الدفاع عنها في مصر وأنت لما تزل هنا في أميركا؟

- أنت لا تعرف زوج كليوبطرة: انه وحش كاسر.

- هكذا يبدو في ناظريك.

- قسماً بالله انه وحش شرس إنه أحقد من جمل.

واحتقنت عينا اصادور بالدم حقداً وغضباً.

- يجب أن أذهب، سأقنع أرباب الكنيسة بارسالي على وجه السرعة. يجب أن أحضر كليوبطرة إلى أميركا.

قاطعته غاضباً:

- على رسلك يا اصادور...

- أنا أعرف ما تود التفوه به. من حقك تماماً أن تدينني لأنك لم تر قط كليوبطرة. فأنت لم تر جمال عيون تلك المرأة العربية. صدقني ياعزيزي أنها كتلة محرقة من الشمس تذيبني وتصهرني، تؤرقني وتسهدني كما تحرق شمس الجنوب المحار فوق الرمال. لقد سمعت منها رواية مصرية أقصها عليك. الحكاية عن كليوبطرة بالذات، لا أظن أن هناك نظيراً لها عند الأمم المصرية. كليوبطرة تلك المرأة الجنوبية العربية هي التي روت لي الحكاية.

وبعد أن امتص نفساً طويلاً من لفافته نفث دخانه في الغرفة وبدأ بسرد الحكاية:

- «كانت هناك ثمة فتاة نشأت وترعرعت على شاطىء النيل. كانت عيناها صفراويتين فاقعتين كلون البرتقال الذي ينمو في جزر بحر ايجه. كانت قامتها كعود البان، وكان شعرها فاحماً لامعاً كالدرة السوداء، أما جسدها فكان كسمرة خليط مسحوق السكر والقهوة. وفي ربيعها السادس عشر احمرت شفتاها كما يحمر الكرز في بلادنا. وكان نهداها يتراقصان مثل براعم الرمان الأحمر. وذات يوم هجر واحد من الصعاليك الملتحين زوجه وأولاده، وخطف الفتاة السمراء، فاراً بها على حصان يسابق الريح. أحست الفتاة بسعادة تغمرها لأنها كانت تسابق ريح الجنوب، ولما لامس شعر لحية اللص شفتيها ارتعدت ورمت بنفسها في لجة النيل. فعانقتها أمواج النيل وأسلمتها لاخواتها من أمواج البحر. غير أن شاباً مجنحاً أزرق العينين احتضنها عالياً بعد أن اختلط شعرها الفاحم بزبد البحر الناصع البياض. وغاصا بعيداً بعيداً حتى وصلا إلى جزيرة نائية لم تطأها قدم انسان. كان الرجل معلقاً بشفاهها الكرزية. وانقضت العصور، وتصرمت الدهور والاثنان متعانقان حتى اليوم».
واستطرد اصادور معلقاً: أتدري ان كليوبطرة روت لي هذه الحكاية يوم استيقظت ذات صباح وشفاهنا لما تزل عالقة منذ منتصف الليل حتى بزوغ الشمس. حقاً ان الزمن كله لايستوعب قبلة واحدة. قال اصادور ذلك وسكت.

عم صمت فاتر في الغرفة. وشعرت كأن نسائم الجنوب قد هبت حولنا. وفجأة سمعت حشرجة سيارة منهكة في الخارج، وأحسست أن مدينة نيويورك بكل ضوضائها وجلبتها اخترقت عالمي الداخلي.

بدا لي اصادور شخصية اسطورية في مدينة الحديد هذه فقلت له:

– مالك ولهذه المدينة؟

– حقا ما تقوله ياصديقي، فانا لاشأن لي بهذه البلاد. فالناس هنا كالحجارة الصلبة والاصنام الهامدة.

قال ذلك وذرفت عيناه.

كان هذا الرجل العملاق – الواعظ ذو الياقة السوداء يبكي بكاء مرا كالطفل الذي سلبوه دميته.

– انك تخادع الناس وتراوغهم كالثعلب. أنت إنسان اذل من الوتد. تلبس اسكيم الرهبان لتبشر بالمسيحية، فاذا بك تحول رسالتك إلى خداع ونفاق.

– لقد خدع ادعياء المسيحية البشرية قرونا طويلة، فكيف تلومني ان راوغت هؤلاء الادعياء قليلا؟

وصمتُ .

– رويدك ياصديقي، فما ان الج السفينة حتى اخلع زي الكهنوت واتخلى عن مهمة التبشير.

لحظة صمت اخرى. بادرته السؤال:

– أنذهب لشرب بعض اكواب البيرة؟

– هيا بنا.

قال ذلك وسارع لاقتلاع ياقته السوداء عن رقبته، وبدل قبعته ، ثم انطلقنا معا.

خرجنا معا الى الشارع. كان التيار البشري يمور بالحياة فتلاشينا في الزحام.

بعد ان ارتشفنا بعض اكواب البيرة في الخمارة، اقترحت على اصادور الذهاب لسماع الموسيقا، فقلت:

- هلم بنا إلى برودوي حيث يعزفون بتهوفن.

- بكل سرور. لقد مللت الموسيقا الكنائسية. ولكن أية مقطوعة يعزفون؟

- لا اذكر البرنامج، ولكن أي مقطوعة لبتهوفن تشنف الآذان.

وذهبنا إلى برودوي. كانوا يعزفون السمفونية الخامسة. وفجأة غمغم اصادور قائلاً:

- انه العبقري الذي يدق أبواب القدر!

قال ذلك وتأوه آهة عظيمة.

- كل إنسان يقرع أبواب القدر، كلانا أيضا نطرق باب القدر.

- حقاً ياصاحبي.

أجاب اصادور بتثاقل ظاهر. وبعد خروجنا من الحفلة ظل اصادور صامتا طوال الوقت.

- أما زلت تفكر في كليوبطرة؟

- كلا، إني أفكر بالقدر.

ذلك المساء، بعد ان فارقت اصادور، استيقظ في داخلي شعور قوي بالأمل في ان صديقي سيتحرر قريباً من مخالب الكذب والخداع. أمل بأنه سيعود قريباً إلى الحياة المليئة بالمصاعب والمشقات، الحياة الطاهرة الصافية، حيث تجد القليل القليل من السعادة والغبطة، ولكن لهذا القليل مغزى آخر يضيء ظلمة القلوب.

* * *

انقطع اصادور عن زيارتي. وأيقنت انه سافر إلى الشرق. وكنت أحياناً أتساءل: «أمن المعقول أن يسافر دون أن يخبرني بذلك ؟». وبعد أسابيع قليلة قررت الذهاب للاستفسار عنه في الكنيسة. وفي صباح يوم الأحد ذهبت إلى الكنيسة فلم أجده. سألت الشخص الجالس إلى جانبي فقال: «لقد سافر الواعظ الشاب إلى الشرق لرؤية الأماكن المقدسة». وبعد القداس تعرفت على أناس يترددون على الكنيسة بانتظام.

كان اصادور بالنسبة لهؤلاء المؤمنين الاتقياء الرسول الوحيد الذي يمثل الشرق في العالم الجديد المسمى أمريكا. كانت شهرته في الورع والتقوى، وسمعته في التفاني لخدمة الكنيسة المسيحية، قد جعلته اشهر من نار على علم. فقد أعلن البعض أن مستقبل اصادور سيكون أكثر اشراقاً من بيلي صندي أعظم دعاة الكنيسة الأميركية في الوقت الحاضر.

لم أخبر هؤلاء «المؤمنين» أي شيء مما أعرفه عن اصادور. ولكني توصلت إلى ما يشبه القناعة من ان اصادور لن يعود من الشرق. انه شرقي قلبا وقالبا، وسيبقى في الشرق حتما.

كانت الكنيسة تعلق الآمال الكبار على رؤية اصادور للاماكن المقدسة. وكان رعايا تلك الكنيسة يتصورون الواعظ الشاب وقد توصل إلى أعظم درجة من الاشراق في معرفة الذات الالهية ، كيف لا وهم مقتنعون كل الاقتناع أن السماء أقرب إلى مدينة القدس من أية مدينة من مدن أميركا.

- سيقابل هناك الروح القدس وسيرى السيد المسيح بأم عينيه.

قالت احدى العجائز وهي راكعة للصلاة تتمتم بابسم يسوع المسيح. وقالت سيدة أخرى:

- ان الواعظ الشاب قديس حقا.

ورددت سيدة ثالثة:

- طوبى لكم لانكم من مواطنيه، طوبى لكم لانكم رأيتم مسقط رأسه.

لم يكن ينقص اصادور سوى أسطورة عن ميلاده. ذلك من الأمور اليسيرة حقا. فوالد السيد المسيح كان نجاراً، ووالد اصادور خبازاً.

كانت الأسطورة في طريقها إلى الصيرورة، فالكمال.

خرجت من الكنيسة وقد خلصت إلى الاستنتاج التالي: لقد خدع اصادور هؤلاء المسيحيين، وهم بدورهم يردون له الصاع صاعين.

* * *

مضت فترة ثلاثة أشهر استلمت بعدها رسالة قصيرة من اصادور وهي: «أنا في مصر. أقابل كل يوم كليوبطرة بشق النفس. الأتراك لا يمنحون سمة دخول إلى فلسطين. أنا سعيد لتعنت الأتراك هذا».

ولم أجب اصادور.

* * *

تصرمت أشهر ثمانية. وفاجأني اصادور بظهوره. كان قد نحل جداً، وامتقع لونه بعض الشيء، وفقدت عيناه بريقهما إلى حد ظاهر. بكلمة: كان اصادور منهوك القوى.

- ما أخبارك؟ ظننت انك لن تعود البتة؟.

- لم اشأ العودة، ولكن كليوبطرة رفضت الطلاق من زوجها بأي ثمن من الأثمان: لافي البقاء بمصر، ولا بالذهاب إلى أميركا. كانت تزورني خفية كل يوم، ولكنها لم تبغي الطلاق من بعلها. سألتها كثيراً عن السبب، ولما ألححت عليها

قالت لي:

- أنا على يقين بأنك تحترق سريعاً وستتحول إلى رماد قريباً. إنك شديد الغرام والهيام، سريع الإحتراق والفناء.

وسكت اصادور. كان يائساً قنوطاً جداً. وأحسست أن روحه طفقت تبكي على الرماد المتراكم، فسألته:

- وماذا ستفعل الآن؟!

- يجب علي ان أضاعف من كذبي، سأجعله «أسير في الآفاق من مثل».

فترة سكوت قطعها اصادور قائلا:

- يوم الأحد سأحدث المؤمنين عن انطباعاتي، سأصف لهم الأماكن المقدسة، ألم أكن قريباً من السيد المسيح؟

فصرخت غاضباً:

- كيف ذلك وأنت لم تذهب إلى فلسطين؟!

- صه .. ما من أحد غيرك يعرف بذلك. سأخبرهم إني ذهبت إلى القدس وتجولت على شاطىء نهر الأردن، ودخلت هيكل سليمان الحكيم وشاهدت بئر يعقوب... وهلمجرا. لقد أحضرت معي علبة كاملة مملوءة بصور الأماكن المقدسة والصلبان والأيقونات وغيرها من الهدايا التي تباع في مصر.

* * *

وذهبت لسماعه يوم الأحد.

- «الحق أقول لكم ان كان لكم مقدار خردلة من الإيمان وقلتم لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر فيكون».

بكلمات المسيح هذه ابتدأ اصادور عظته.

فمن يتجاسر الاّ يكون له مقدار حبة خردل من الإيمان؟

لقد أمسك الواعظ الشاب بنقطة الضعف الأساسية في الإنسان، ان يكون له حبة خردل من الإيمان.

وفي منتصف الموعظة دوى صوت اصادور عاليا مجلجلاً وهو يصف الأماكن المقدسة وصفاً دقيقاً مفصلاً يثير الدهشة والاستغراب . وخيل لي ان اصادور يشعر بوخز الضمير، وبأن حلقات الرياء المتواصلة أخذت تشدد الخناق عليه، ومع ذلك حشد قواه واستطرد قائلا:

- «وفي أحد الأيام صعدت الجلجلة. المسيحيون المؤمنون يصعدون على ظهر الاتان كي لا يتشبهوا بالرب يسوع، وكذلك صلب الرسول بطرس عقبا على رأس لانه ليس أهلاً للتشبه بالفادي. ومرت بخاطري فكرة ربانية وهي ان أسير على الأقدام كي أشعر بالعذاب الذي قاساه السيد المسيح حين صعد إلى الجلجلة. فجثوت على ركبتي وصليت خاشعاً، طالباً غفران ابن الرب يسوع! صليت طويلاً وغسلت أرض الجلجثة بدموعي، وفجأة أحسست أن المسيح قد غفر لي، وصعدت الجلجثة بعدها سيراً على الأقدام. ولما انتصف الطريق بكت روحي بكاءً مراً، إذ أحست بما عاناه ابن الأنسان من عذاب وشقاء. وقبل ان أصل إلى القمة امتلأت نفسي بشعور من الحقد ازاء الإنسانية، التي أظهرت عداوتها وحقدها نحو الرب الذي أرسل ابنه السماوي إلى الأرض من أجل خلاص البشرية. وعندما وصلت القمة شعشعت رحمة الرب في روحي، لأني أحسست حرارة الروح التي اسلمها المسيح فداء للأنسان».

وخيم السكون المطبق على الكنيسة. فتأثير الكلام الواعظ على الناس كان كتأثير البلسم على الجرح.

لم يكن اصادور قد انهى كلامه بعد.

- «وذات يوم التقيت فقيراً وأنا في طريقي إلى بيت لحم...» ولم اشأ البقاء في الكنيسة كي لا يتناهى إلى مسمعي نباح اصادور.

١٩٢٩

الفهرس

* * *

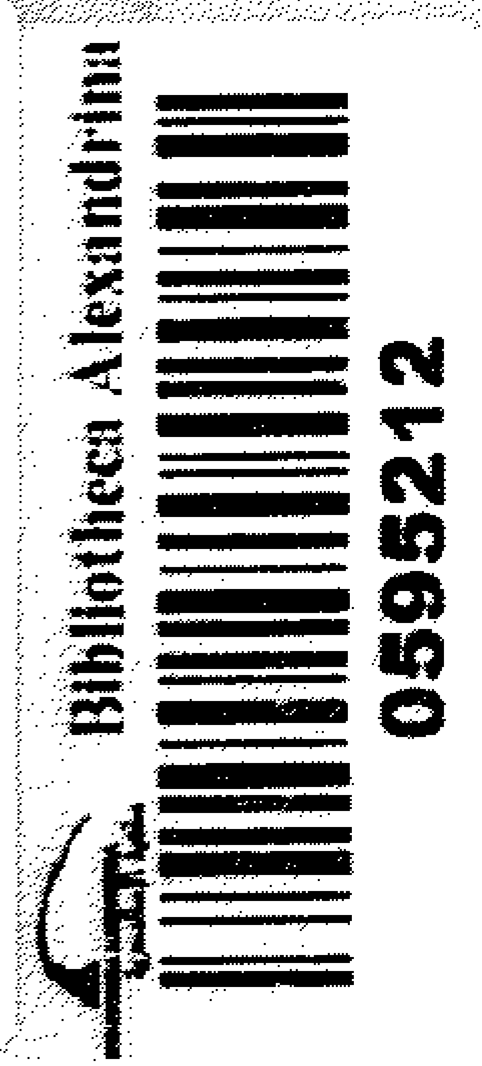
..٢٥٠ط ١/١٠/١٩٩٣

تعالج هذه القصص مشكلة طرحت وتطرح وستطرح...

وتأخذ اليوم شكلاً حاداً في عصر تهجير المواطنين المتزايد وتشتيتهم في أرض الله.. المشكلة هي: أيمكن للمهجّر أن يتأقلم مع البلاد التي ينتقل اليها، ثم يندمج مع أهلها بحيث ينسى، مع الجيل الثاني أو الثالث من ابنائه، وطنه الأم؟

جواب مؤلفي هذه القصص هو: كلا، حتى ولو توفرت له شروط الرفاه كلها. فالفتاة العربية الفقيرة -التي استمد جامع القصص من قصتها عنواناً لمجموعته- تؤثر شاباً أرمنياً فقيراً، يحمل إليها رائحة بلادها، على زوجها الثري الأمريكي. و«دار للايجار» تروي قصة جدّة تؤثر حرق دارها وذاتها مع الدار عندما تعرف ان أحفادها سينقلونها إلى مأوى العجزة ليؤجروا دارهم.

جامع هذه القصص ومترجمها كاتب من جمهورية أرمينيا ومن مواليد سورية يتقن العربية. وله أيادي بيضاء في تمتين عرى العلاقة بين الشعبين العربي والأرمني من خلال ترجماته من العربية إلى الأرمنية وبالعكس. وكانت وزارة الثقافة قد نشرت له، منذ حوالي عشر سنوات، مسرحية مترجمة بعنوان «فداء للشرف». وقد تعمّد اختيار مجموعته الراهنة من بين عشرات قصص أرمنية وضعت أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وتجري احداثها بين اسطنبول وتفليس والشرق العربي.... ليدلّك على قضية واحدة أساسية في نظره، وهي أنّ الأرمني انسانٌ شرقي مرتبط بشعوب الشرق كلها، ومنها بالدرجة الأولى، الشعب العربي. إلاّ أنّ الذي يعطي لهذه القصص قيمتها الكبرى، وإلى جانب الفكرة التي تدافع عنها، مستواها الفني الرفيع ولغتها العربية المتينة المشرقة.



الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٣

سعر النسخة داخل القطر
١٠٠ ل.س

في الاقطار العربية مايعادل
٢٠٠ ل.س